



دعوة الحق

مجلة شهرية تعنى بالحراسات الإسلامية وبشؤون الشفاعة والعكر
تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية
السنة الخامسة والستون - العدد 439 - ذو الحجة 1443 هـ / يوليوز 2022م

عدد خاص بذكرى عيد العرش المجيد



دعوة الحق

مجلة شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية وبشؤون الثقافة والفكر
تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية

السنة الخامسة والستون - العدد 439 - ذو الحجة 1443هـ / يوليوز 2022م



أسسها جلالة الملك المغفور له محمد الخامس طيب الله ثراه
سنة 1376هـ / 1957م

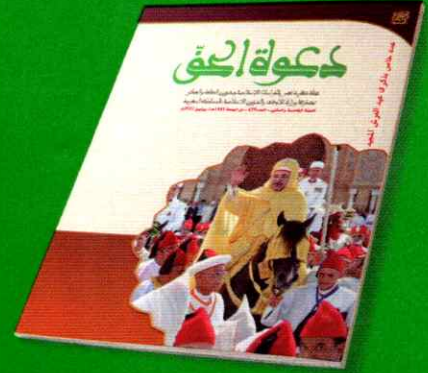


”... ولكلنا سزا أن تتولوا وزارة الأوقاف إصدار
مجلة جامعة تعنى بصفة خاصة بناحية الإصلاح
الكيني، كما تعالج مختلف الشؤون الاجتماعية
والثقافية، ولنا وصيد الأمل في أن يلتفت حولها
أعلاء الفكر والثقافة والإصلاح في هذه البلاد
وغيرها لتؤكّد مهمتها خبير آباء“.

وعسى أن تسلك مجلة ”دعوة الحق“ سبل النجاح والتوفيق“

من الكلمة التي وجهها المغفور له جلالة الملك محمد الخامس طيب الله ثراه
إلى مجلة دعوة الحق بمناسبة صدورها في شهر يوليوز 1957

- الأبحاث التي ترسل إلى المجلة لا تعاد إلى أصحابها نشرت أو لم تنشر.
- ما تنشره المجلة يعبر عن وجهة نظر كاتبه، ولا يمثل بالضرورة وجهة نظر المجلة أو الجهة التي تصدرها.
- ترتب مواد المجلة وفق اعتبارات فنية محضة لا علاقة لها بقيمة البحث أو مكانة صاحبه.



مجلة شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية
وبشؤون الثقافة والفكر

مدير المجلة

الأستاذ أحمد قسطاس

رئيس التحرير

الأستاذ عبد الحميد العلمي

العنوان

مديرية الشؤون الإسلامية،

وزارة الأوقاف الإسلامية

المشور السعيد - الرباط

الموقع الإلكتروني: www.daouatalhaq.ma

البريد الإلكتروني: daawatalhak@mhaj.gov.ma

هاتف التحرير

05 37 76 59 05

هاتف مدير المجلة

05 37 76 17 21 / فاكس: 05 37 66 06 74

التوزيع

هاتف وفاكس: 05 37 76 32 10

الحساب البنكي

القرض الفلاحي - وكالة الحسابات الكبرى - الرباط:

RIB : 225-810-0195092946510102-88

الاشتراكات في المجلة

الاشتراك التشجيعي: 500 درهم

المملكة المغربية: 150 درهم

الخارج: 300 درهم

ثمن العدد: 15 درهم

رقم الإيداع القانوني: 1981/3

الرقم الدولي: 1981PE0003

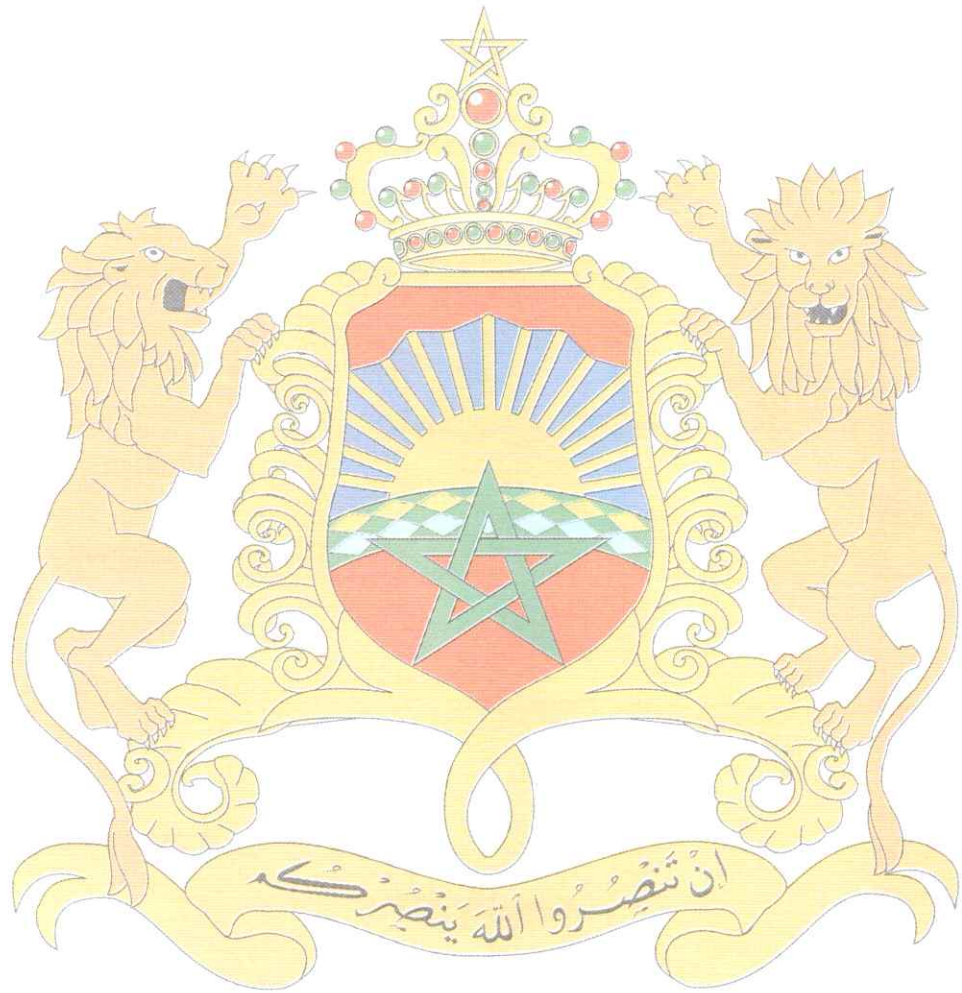
الإخراج الفني والطباعة

مطبعة البيضاوي - الهاتف: 05 37 87 11 25 - سلا

439



أمير المؤمنين صاحب الجلالة الملك محمد السادس نصره الله وأيده



افتتاحية

أذكر عيد العرش الثالثة والعشرون، ... أذكر خالدة بل نسيج متفرّد من المنجزات والانتصارات والمواقف العاسمة التي يبلّغها تاريخ الأمة المغربية، وشهدتها العالم بأسره، والعالم العربي والأمم الإفريقية على الخصوص...

أذكر تربع صاحب الجلالة الملك محمد السادس نصره الله وأيده، على عرش أجداده المنعمين... أذكر قيادته للمملكة المغربية سالف عهدها وشامخ أجداده، وهي تقف اليوم في مصاف الكبار، لا قيد ولا تميد، وقد استرحت حقوقها وحقت مبتغياتها، بسياسة حكيمة متبصرة، تقدم السلم على النزاع، وتفضل التعاون على القسوة، والرقى والنماء على التخلف ونشر أسباب الفتنة... وبفكر واع يشتغل بالبناء والتشييد والنصر الثاقب البعيد إلى مستقبل مشرق وضاء، متحدية كل الصعاب، ومستعينة في ذلك كله بعزة دين الإسلام، ومتمسكة بمبادئه السمحة، «وقل اعملوا فسير الله عملكم ورسوله والمؤمنون» صدق الله العظيم.

أذكر عيد العرش العبيد وتيسيد «لروابط البيعة المقدسة والتلاحم القوي الذي يجمع على الدوام ملوك وسلاطين المغرب بأبناء شعبهم في كل الظروف والأحوال» كما قال جلّالته حفظه الله وهي المراكز الحقيقية واللبنة الأساس التي قام عليها هذا الصرح الشامخ للحضارة المغربية، والسر الدفين وراء نعمة الأمن والاستقرار والازدهار الذي تعرفه المملكة المغربية اليوم. وإنه لشرف عظيم لأسرة الجلالة أن فنصر هذا العهد لتعميق البحث والدراسة في معاني وتجليات أذكر عيد العرش العبيد، بمشاركة ثلة من العلماء والباحثين والمفكرين، رافعة أكف الضراعة لدى العالمين أن يكرم سوابغ نعمة وتوفيقه ونصره على أمير المؤمنين صاحب الجلالة الملك محمد السادس وأن يقر عينه بولي عهده صاحب السمو الملكي الأمير الجليل مولاي الحسن ويشد أزله بشقيقه صاحب السمو الملكي الأمير العبيد المولى رشيد وأن يفضله في كافة أفراف أسرته الملكية الشريفة، إنه سميع مجيب.



عيد العرش : مرحمة من رحم ملحمة

ذ. مولاي عبد السلام علوي البلغيتي

رئيس المجلس العلي المحلي لإقليم بولمان.

دأب الشعب المغربي الأبى على تجسيد ولائه، وإظهار حبه الصادق الظاهر والخفي، للعرش العلوي الوفي، ذلكم هو يوم العيد السعيد، يوم اعتلاء الملك على عرش أسلافه المنعمين، يوم التربع على رمز المجد والعز والتمكين.

إن هذا الحدث التاريخي - أعني عيد العرش - هو يوم مشهود، في حياة الأمة المغربية، تحيي ذكراه عرفانا وشكرا، تقديرا وفخرا بقائدها وثوابتها، هو يوم مرحمة من ملحمة: أي خرج من رحم ملحمة أبطالها حكماء، وزعماءؤها رحماء، هو يوم منحة خرجت من رحم محنة، فكان شجرة مباركة لها طلع نضيد، أثمرت الاتحاد والتوحيد، والتلاحم والمجد التليد. توتي أكلها كل حين بإذن ربها، ويستظل بظلها الراعي والرعية، لتجديد العهد وتقييم خطى المجد، لتجسيد المحبة وما تقتضيه من الرحمة والتراحم، والتعاون والتلاحم، لشحن الهمم، وتجديد العزم، لبلوغ القمم في البناء والتشييد.

في هذا اليوم يحتفل الشعب بالعرش والعرش بالشعب. في تناغم ديني ومقاصد شرعية شمولية. فما هي الدلالة والرمزية، وما هي المكانة الاعتبارية التي يحظى بها العرش وعيده؟ وكيف تطورت الملحمة حتى بلغ بها المغرب - قيادة وشعبا - قمم المرحلة؟ والجواب عبر ثلاثة عناصر:

أولا: رمزية العرش وقديسيته دعامة الملحمة.

ثانيا: حفظ الشريعة للعرش أس المرحلة، وسند الملحمة.

ثالثا: مرحلة من رحم ملحمة.

العنصر الأول: رمزية العرش وقديسيته دعامة الملحمة.

تقاس عظمة الأمم بمجدها الخالد، ولو كان مستوحى من الاجتهاد العقلي والفكر البشري أو القانون الوضعي، الذي مهما بلغ يبقى قاصرا أمام التشريع الإلهي. أما المغرب فمجده في رمزية عرشه

المقتبس من قدسية شرع الله. فلا غرو أن يسجل التاريخ للمغرب مواقف مشرفة، وملاحم ذات صلة برمزية العرش وقدسيتها.

1 - رمزية العرش في مفهومه:

العرش ما علا فأظل، أو ما دل على ارتفاع من بناء وغيره، ثم استعير لما يجلس عليه الملك من سرير ونحوه¹، وفيه رمز للسمو والعلو، يقول الراغب الأصفهاني: «سمي مجلس السلطان عرشا اعتبارا بعلوه»². واستشهد بقول الله عز وجل: «ورفع أبويه على العرش»³. وبقوله سبحانه: «قال يأيها الملاء أيكم ياتيني بعرشها»⁴. ثم قال الراغب: «وكني به عن العز والسلطان والمملكة»⁵.

فالعرش مستوحى من الشرع، ولا يرجع فيه للاجتهاد أو محض العقول، يقول الجويني - رحمه الله: «وإذا تقرر نصب الإمام فالذي صار إليه جماهير الأئمة أن وجوب النصب مستفاد من الشرع المنقول غير متلقى من قضايا العقول»⁶.

هذه الرمزية والقدسية للعرش لم تغب يوما عن المغاربة الأحرار، فهي الدعامة لما سنرى من الملحمة، بل هي الضامن للوحدة وللنصر في كل ملحمة، هي الملاذ والمرجع للعزة بإذن رب العزة، ولا سيما في عهد الدولة العلوية الشريفة.

2 - رمزية العرش من تاريخه:

منذ بداية سقوط الأندلس وتوالي الاعتداءات الأجنبية على المغرب لاحتلال مرافئه وموانئه - كما يقول الأستاذ محمد الخطيب⁷ - أحس المغاربة بالخطر وقصد جماعة منهم بلاد الحجاز لأداء فريضة الحج، واهتدوا في ينبع النخيل لعائلة، كانت تتوفر على تقدير الناس لها واحترامهم إياها، نظرا لانتسابهم لبית النبوة الكريم، وتقديرهم العلمي والسلوكي، فخاطبهم وألحوا عليهم في النزوح عن الحجاز، والالتحاق بالمغرب لأداء الرسالة الإسلامية، فأرسل معهم أبو القاسم بن محمد بن القاسم نجله المولى الحسن، فكان هذا أول الشرفاء العلويين الذين نزحوا من الحجاز للمغرب، وقام - بعدما نزل تافيلالت - بما كان مطوقا به من دعوة للدين، وجهاد للفتح والحماية والتحسين.

1 - معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، ج 4 ص 264.

2 - معجم مفردات القرآن، ص 341.

3 - سورة يوسف، الآية 100.

4 - سورة النمل، 39.

5 - معجم مفردات القرآن، ص 341.

6 - غياث الأمم في التياث الظلم للإمام الجويني، ص 24.

7 - في مقال له بعنوان: العرش أمين على وحدة البلاد. دعوة الحق العدد 227 بتاريخ جمادى الأولى 1403 هـ الموافق لمارس 1983.

وإذا كانت رمزية العرش وقديسيته معتبرة، منذ دخول المولى إدريس الأول المغرب، فعرش الدوحة العلوية - منذ ملوكها الأوائل - يعتبر المجدد والمنقذ والموحد للمغرب، مما زاد الرمزية جلالة، وزاد المغاربة تعلقاً بعرشهم حبا وولاء. يقول الأستاذ محمد الخطيب: «إن أبرز ما في العهد العلوي - بجانب ما ذكرناه - من تحقيق الوحدة في الدين واللغة ولم الشعث القومي هو مقاومة المحاولات الأجنبية والاحتلالات الخارجية... إذ لولا صمود هذه العائلة من جهة وتأييد المغاربة لها، وما بذله ملوكها من صد التحايلات وأسباب الترددات، لكان المصير اليوم - والحال - على غير ما يوجد عليه، ولكانت البلاد قد أصابها العديد من الأضرار، أكثر من حماية لم تدم غير ستة وأربعين سنة»¹.

إنها الدعامة بحق للملحمة التحرر، ملحمة التمكين للدين، وعز الوطن وفخر المواطنين. إنها الصفحة الناصعة من تاريخ كتبه أبطال الملاحم والفداء، بحروف بارزة، عنوانها الولاء والوفاء، وسندها الشريعة الغراء. ملحمة لحفظ العرش، ومرحمة في حفظ العرش.

العنصر الثاني: حفظ الشريعة للعرش أس المرحمة وسند الملحمة.

الشريعة للعرش مظلة، والعرش للشريعة ظل، بينهما تلازم، كما بين الوسائل والغايات، ومظاهر التعظيم والتجليات. ف"الدين والسلطان في ثقافة المغاربة توأمان، لا قوام لأحدهما إلا بصاحبه"²، فإذا كان العرش قويا مهابا حُفِظَت التعاليم الشرعية، وإذا استهان الناس بالأحكام الشرعية سقط اعتبارهم للعهود والمواثيق، ومنها البيعة وما تقتضيه من أمور في السياسة الشرعية. فهناك حفظ الشريعة للعرش، وحفظ العرش للشريعة.

1 - حفظ الشريعة للعرش:

الشريعة هي النعمة الكبرى، وهي أس كل مرحمة، ولحفظها وحفظ ما يحفظها تقع كل ملحمة. ولما كان العرش قائما على الشريعة، وهي أساس بنائه، كان متينا في أساسه، لمتانة ما بني عليه، وعليه فإن العرش في بلد المغرب متين مكين مؤتمن وأمين:

أولا: لأنه يقوم على البيعة الشرعية، وهي - أي البيعة - تلزم الناس بالسمع والطاعة، والانقياد للحكم وملازمة الجماعة، لما رواه ابن عمر رضي الله عنهما، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من خلع يدا من طاعة لقي الله يوم القيامة لا حجة له، ومن مات وليس في عنقه بيعة، مات ميتة جاهلية»³

1 - مجلة دعوة الحق، عدد 227، ص 30

2 - سبيل العلماء، منشورات المجلس العلمي الأعلى لمؤلفين، هم: أحمد أيت إعزة، إدريس بن الضاوية، سعيد بيهي، سعيد شبار، محمد كنون الحسني. ص 54

3 - رواه الإمام مسلم.

ولقوله ﷺ: «أمركم بخمس، الله أمرني بهن: السمع والطاعة والجهاد والهجرة والجماعة، فإن من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا أن يرجع»¹.

ثانيا: لأن الشريعة تحفظ المقاصد والوسائل، فمن المقاصد حفظ الضرورات الخمس وهي: حفظ الدين، والنفس، والعقل، والنسب أو النسل، والمال. قال الغزالي (ت 505هـ) رحمه الله: "إن مقصود الشرع من الخلق خمسة: أن يحفظ عليهم دينهم ونفسهم وعقلهم ونسلهم ومالهم، فكل ما يتضمن حفظ هذه الأصول الخمسة فهو مصلحة، وكل ما يفوت هذه الأصول فهو مفسدة ودفعها مصلحة"². والعرش والجالس عليه وسيلة من وسائل حفظ هذه المقاصد، أو المصالح، يرعى وجودها ويضمن استمرارها، يدعو إليها ويدفع عنها ما يفسدها.

فالشريعة تحفظ العرش، لأنه وسيلة لحفظ مقاصدها. وتحقيق مراد الله سبحانه منها. ولذلك كان المغاربة - ولا يزالون - يتواصون بالدعاء للعرش والجالس عليه، بالحفظ والسداد، على المنابر وعقب الصلوات، لما يعلمون من أهميته في صلاح الأمة وجمع الكلمة. وهو المقصد الأسمى، للشرع الأعز الأسمى.

2- ومن حفظ العرش للشريعة:

ما رأيناه في الرمزية أن الهدف الأسمى الذي من أجله نزلت العائلة العلوية من الحجاز إلى المغرب هو نصرته الدين وجمع شمل المسلمين، ورأينا كذلك أن العرش بناء يتسم بالعلو والتمكين للمستظلين به، فهو كالمسجد الذي بناه الرسول الكريم ﷺ، بمجرد وصوله إلى المدينة المنورة، فيه تعظيم للشعائر، وتنظيم للعشائر. قال تعالى: (ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب)³. وقال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَكِّرُوا بِهِ فَأَسْمَهُ يَسْمَعُ لَهُ فَيَكُونُ بِالْعَدْوِّ وَالْأَحْصَالِ رِجَالًا لَا تُلْهِمُهُمْ بُحْرًا وَلَا بِعِجْرٍ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ لِيَجْزِيَ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَزِرْكَ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ)⁴.

كذلك العرش، أذن الله في رفعه في المغرب ليزود عن الدين، ويحفظ شريعة رب العالمين. وترجم ذلك صراحة بوظيفة إمارة المؤمنين التي تقضي بحماية الملة والدين. ففي الفصل الحادي والأربعين من الباب الثالث من دستور المملكة المغربية نص على أن: «الملك أمير المؤمنين هو حامي حمى الملة والدين، والضامن لحرية ممارسة الشؤون الدينية»⁵.

1 - رواه الترمذي في سننه، كتاب الأمثال، باب ما جاء في مثل الصلاة والصيام والصدقة، ح رقم 2863.

2 - المستصفي من علم الأصول لأبي حامد الغزالي، ج 1 ص 417. تعليق وتحقيق الدكتور محمد سليمان الأشقر، ط مؤسسة الرسالة. ط 1 سنة 1433هـ/ 2012م.

3 - سورة الحج، الآية 30

4 - سورة النور، الآيتان 36-37

5 - دستور 2011، ص 11.

العنصر الثالث: مرحلة من رحم الملحمة.

لما أدرك المستعمر أن ظل العرش وافر ووارف، وأنه جزء من هوية المغرب وخصائص نظمته، وثبت لديه باللموس أنه مجمع الكلمة، ومنبع الحكمة، وأن لا قرار لأي دخیل، ولا استقرار لأي علیل، ما دام العرش متجذرا في قلوب المغاربة، حاول قطع حبال الود بين مكونات هذا الشعب الأبى من جهة، وبين الشعب والعرش من جهة أخرى، فاستصدر ظهيرا، ظاهره ظهير، أي معين للشعب، في التنظيم وإحقاق الحق، كما يدل عليه اسمه، وباطنه معين على الشعب وماحق للحق. فوقعت الملحمة وحملت بالمرحلة.

1 - الملحمة:

إذا كانت الملحمة مشهدا لأعمال بطولية، تسمح باستعمال الصور البلاغية وتحييز ذكر أشياء خيالية، أو محتملة الحدوث، فإن الملحمة هنا حقيقية في جميع مشاهدها، بطلها العرش والجالس عليه مؤازرا بالخلص من المغاربة الأقحاح، ذوي الهمم العالية والمواقف الصراح.

ذلك أن المغرب ابتلي بالاستعمار - كجل الشعوب - أو على الأقل بفرض الحماية، فتوفي السلطان مولی يوسف في 17 نونبر 1927 م، وبويع خلفه السلطان المجدد، الملك المجاهد محمد الخامس يوم 18 نونبر 1927 م. فلم تمض إلا ثلاث سنوات على تربع سيدي محمد بن يوسف على العرش حتى خذلت السلطات الفرنسية بأن جعلته يوقع على ظهير 16 ماي 1930 م¹.

وهو المعروف بالظهير البربري والذي كان يرمي إلى التفرقة بين القبائل الأمازيغية والقبائل العربية، بإخراج الأمازيغ من دائرة الشرع الإسلامي وحصرهم في القوانين العرفية - عند التقاضي - في الابتداء، وإحالتهم على المحاكم الفرنسية في الاستئناف.

ولكن سرعان ما تبين أن تلك النعمة تحمل في ثناياها كل النعم، وكما يقال رب ضارة نافعة، ورب افتضاح في نجاح، فقد ظن المستعمر أنه نجح، أو ينجح في التدليس والتلبيس، واستعمال سياسة إبليس (فرق تسد)، ولكن الله تعالى جعل فشله فيما ظنه نجاحا.

فالظهير الجائر كان بمثابة الموقظ للضمير الوطني، وتوحيد الصف من جديد. فوقعت الملحمة لتحمل بالمرحلة: عمت البلاد موجة من الاحتجاج. واحتشد الناس في المساجد يقرؤون اللطيف. فهنا

1 - وهو عبارة عن وثيقة معروفة باسم الظهير البربري، واسمها الأصلي الظهير المنظم لسير العدالة في المناطق ذات الأعراف البربرية والتي لا توجد بها محاكم شرعية. (بالفرنسية: la Dahir du 17 hja 1348 (16 mai 1930) réglant le fonctionnement de la justice dans les tribus de coutume berbère non pourvues de mahakmas pour l'application du Chréa الموسوعة الحرة <https://ar.wikipedia.org/wiki>

اتخاذ الأسباب واستعانة برب العباد. ولم يكتفوا بذلك، بل نظموا لقاءات بين العلماء والزعماء من شباب الأمة والسلطان سيدي محمد، في القصر الملكي وفي أماكن الاصطياف¹. فتجددت البيعة والتحالف والوئام. ثم تقرر يوم 16 ماي من كل سنة يوم حداد واحتجاج لتوطيد الروابط بين العرش والشعب. فانقلبت المقاومة ملحمة: بالسلاح وباللسان أو القلم وبالمال².. وكان في ذلك خير كثير، بحيث لم يتكلموا، بل توكلوا واشتروا في الملحمة، كل بما يسر الله له، عملاً بقول الرسول ﷺ: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له»³. فجاءت الملحمة متعددة الوجوه لأن العدو أروع وأرهب، وحارب المغاربة بشتى الطرق: بالشبه والمؤامرات، فضلاً عن السلاح والإغراءات. لذلك تصدى لشبه المستعمر أولو العزم من الأمراء والعلماء، ووقفوا له بالمرصاد في رد الشبه وإفشال المؤامرات، وهي كثيرة منها:

أولاً: مؤامرة مسخ الهوية (بالدعوة لإزرف):

إزرف أو الألواح⁴ وهو نظام حق أريد له أن يستعمل في باطل، هو اصطلاح يطلق على الأعراف والقوانين التي تنظم المجتمع، وظن المستعمر أنها لا تستمد أصلها من الشرع. هو نظام حاولت السلطات الاستعمارية أن تمزق به وحدة الأمة المغربية، فدعت إلى العودة لإزرف في المناطق الأمازيغية (الهضبة الوسطى، الأطلس المتوسط، ملوية العليا الأطلس الكبير الشرقي..)، حاول الفرنسيون بإزرف سلخ المغاربة من هويتهم الإسلامية، لكن هيهات هيهات... وأنى لهم، والمغرب معبأ بعلمائه محصن بعقيدته، يعرف ما له وما عليه.

حسبوا المغرب لجة، فكانت الملحمة، ومقاومة العلماء حجة دامغة، يقول المنصوري: "من المكابرة أو العناد أن يقول قائل: إن البرابر كانوا يتحاكمون إلى غير الشريعة الإسلامية - يعني بعد ما أسلموا - استبدالاً لها بقوانينهم العرفية كدين يخرجون به عن سنن - سيد المرسلين الهادين - المهتدين، لكنهم غيرهم لبعض النظم قد يهرعون، وفي بعض الأحكام الموافقة لأعرافهم يتذرعون"⁵.

يريد أن العرف وما جرى به العمل، معتبر في الشريعة الإسلامية، كالعمل الفاسي والريفي والسوسي، قد لا يفهم ذلك المستعمر ومن انخرط في سلوكه، وانخدع بقوله، ولكن الواضح كالشمس،

1 - التاريخ السياسي للمغرب العربي الكبير لعبد الكريم الفلالي، ج 11 ص 32.

2 - فطوي لمن تخصص في واحدة منها، وطوي لمن جمعها كلها، فقد حاز الفضائل برمتها.

3 - أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد. باب قول الله تعالى: (ولقد يسرنا القرآن للذكر..)، حديث رقم 7551. وأخرجه مسلم تحت رقم: 2649.

4 - ففي معلمة المغرب: الألواح تسمية للأعراف القبلية عند جزولة خاصة، وقد تسمى في قبائل أخرى بالعرف أو القانون أو الديوان أو الشروط أو تعقدين أو إزرف، وهي من وضع القبائل قصد تدبير شؤونها الداخلية والحفاظ على أمنها الخارجي ص 656.

5 - كباء العنبر من عظماء زيان وأطلس البربر، ص 93.

هو أن العلماء المغاربة ما كانوا يسمحوا بشيء يخالف الشريعة، فإذا سكتوا عن شيء أو أقروه فلأن الفقه قبله. كفض النزاع بين أفراد القبيلة أو بين القبائل.

والمعلوم أن تلك الشروط والأعراف تكتب بحضور الأعيان والوجهاء، المعنية، ويحضر كتابتها إمام المسجد وفقهه المدرسة، وشاهد عدل في القرية¹ إن وجد.

فهؤلاء أمناء على الشريعة، لا يقرون ما لا يقره سالمو العقول، وتتلقاه الشريعة بالقبول، يقول العلامة محمد المختار السوسي: «إذا كانت القضايا سوسية، من جنس ما تنمى له القبيلة في عوائدها كعادتهم في قسمة الماء، وما يؤخذ من المفسدين من غرامات مالية، أباحها من قديم بعض العلماء، ففي هذه وأمثالها ما يطلقون عليه الأعراف، ومثل هذا لا يخلو منه بلد حتى فاس وهي ما هي»².
ومن ثم فلا يوجد مغربي حر، كائنا من كان، أمازيغي أو عربي، يمكن أن يساوم في دينه وشريعة ربه ونبيه.

إن المغاربة أشد الناس تمسكا بالدين الحنيف قبل الاستعمار، وأثناء محاولته التفريق والتمزيق بين مكونات الشعب، بل ما زادتهم الملحمة إلا التحاماً، لقد استفادوا من الدرس، وانتصروا على المكر والدس، فمساجدهم - كانت وظلت وما تزال - كما يقول المنصوري: "عامرة بطلبة القرآن، في الخيام والمداشر، بل في بعضها مدارس علمية، وأخرى قرآنية علمية، وتجتمع الجماعة في مساجدهم الوبرية والطينية ليلاً، على طلبتهم وإمامهم عند فراغهم من أشغالهم اليومية، ويستفتون فقهاءهم في ديانتهم وعبادتهم من وضوء وغتسال وصلاة وزكاة وصيام، وفي الأحوال الشخصية من زواج وطلاق ورضاع وتحليل، وفي الذبائح، وما يطرأ في ذكاة الأنعام، وما يعرض لها من نطح بينها وتردد..."³. يستفتونهم ويستترشدون بتوجيههم الشرعي حتى في المعاملات والأخلاق، وطرق الكسب وطلب الأرزاق.

فرب البيت حاميه بالقرآن وأهله، وبالوطنيين المخلصين، والمقاومين المجاهدين المجدين: علماء وعامة. أما المستعمرون فتلك أمانيتهم، وقد خاب سعيهم بفضل الله وفضح شبههم، إذ وفق الله سبحانه المغاربة للملحمة والتلاحم. فتجدد التراحم، وخسر هنالك المبطلون.

ثانياً: مؤامرة التفرقة الدينية

على بشاعة وشناعة ظهير 1914م الذي همّ التحفيظ العقاري، بهدف نزع ملكية الأراضي بوجه عام، ونزع أراضي القبائل الأمازيغية الخاضعة للعرف والمستغلة بشكل جماعي بوجه خاص. وبالرغم

1 - معلمة المغرب، ص 656.

2 - سوس العامة، ص 27

3 - كباء العنبر من عظماء زيان وأطلس البربر لأحمد المنصوري، تحقيق الأستاذ محمد بن لحسن، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، ص 94، مطبعة الكرامة، ط 1 سنة 2004.

من الأثر الكبير لهذا الظهير فإنه لم يخلق ضجة وحرجا، كما حدث مع ظهير 16 ماي 1930م. لأن المغاربة، علماء وعامة، أدركوا بفطنتهم الخطر في هذا الظهير أكثر من ذلك، فالأمر في ظهير 1930م يتعلق بالمبادئ وبتعاليم الدين. لذلك وقف الوطنيون الأحرار - قيادة وشعبا - في وجه هذا الغزو الفكري الإيديولوجي، فبدأوا بقراءة اللطيف في المساجد، لنشر التوعية بالخطر المحدق، ولرد ما يروونه «تفرقة» بين مكونات الشعب الواحد.

ففهم الخاص والعام أن هذا الظهير جاء ليُحوّل الأمازيغ إلى المسيحية؛ كما اعتبره العقلاء خطوة استعمارية، ومؤامرة للفصل بين العرب والأمازيغ في المغرب، وذلك لمواجهة المقاومة المتنامية، ف وقعت الملحمة وفشلت المؤامرة مرة أخرى.

ثالثا: مؤامرة التهمة بالشيوعية

هذه المؤامرة دبرتها السلطات الاستعمارية الفرنسية بقيادة المقيم العام «جوان» وخلفه «كيوم» والباشا الكلاوي وعبد الحفي الكتاني¹ لإبعاد الملك محمد بن يوسف عن عرش أسلافه وقداسته شعبه، فاعتبروه سلطان حزب الاستقلال واتهموه بالميول للشيوعية والابتعاد عن الدين. وذلك بعد ما يتسوا من طواعيته وعدم استجابته لإملاءاتهم سنة 1950م.

فنقلوه وعائلته إلى المنفى السحيق، وأعلنوا بيعة لغيره لإضفاء الصبغة الدينية والمشروعية لعملهم، ف وقعت الملحمة من جديد، ووقف الشعب وقفة رجل واحد في وجه الدوائر الحكومية الفرنسية ومن غرر بهم، وتفشى القتل والتهديد بالوعيد، واستمرت التعبئة، وارتفع مستوى التوعية بقديسية البيعة الشرعية والعلاقة التاريخية بين العرش والشعب، حتى رئي السلطان محمد الخامس في القمر، وصوروا شائته في صورة حمار. وتحولت المقاومة - أو قل الملحمة - من مقاومة سياسية إلى مقاومة هجومية فردية وجماعية، عفوية ومنظمة، وعمت المدينة والبادية.

لقد اعتبر المغاربة من ينافس السلطان محمد الخامس في الجلوس على عرشه خائنا غاصبا للشرعية ولا حظ له في البيعة، إنما هو سلطان «للفرانسيس»، لذلك قاطع المصلون المساجد يوم الجمعة حتى لا يحضروا الخطبة باسم من ليس له بيعة شرعية. وهذا وحده كاف للتعبير عن السخط وعدم الرضا الجماعي. وانخرطوا كلهم في ملحمة لا بد أن يستجيب لها القدر لتلد مرحلة. يقول الشابي (1352هـ / 1933م)²:

إذا الشعب يوماً أراد الحياةَ
فلا بد أن يستجيب القدرُ
ولا بدَّ لليل أن ينجلي
ولا بُدَّ للقيد أن ينكسر

1 - معلمة المغرب، ص 7023.

2 - انظر الموسوعة الحرة <https://ar.wikipedia.org/wiki>

2 - المرحمة:

قلنا سابقا: رب ضارة نافعة، ورب نقمة في طيها نعمة، تلکم هي الملحمة التي حملت حملا خفيفا فمرت به، فلما أثقلت استجاب الله دعاء الصالحين من أبناء هذا الوطن، وعلى رأسهم بطل التحرير سيدي محمد الخامس طيب الله ثراه، فوضعت مرحمة، توجب الشكر للرحيم الرحمن، ويشهد بها التاريخ على مجد المغرب وسداد منهجه في كل زمان.

لقد تبلورت وشائج التعلق بأهداب العرش، وتواصى الشعب والسلطان بالصبر والمرحمة، فكانت لهم الميمنة، ولعدوهم المشأمة. ففي 18 نونبر سنة 1933 م بدأ أول احتفال بالعرش - كما سبق الذكر - وكان احتفالا بالذكرى السادسة لتربع سيدي محمد على العرش. وهي رسالة عميقة في معناها ودلالاتها وأبعادها. هي إلهام رباني ليستمر ظل العرش الباني، والرحمات النوراني.

وفي 1934 م عم الاحتفال بعيد العرش المجيد المدارس والمعاهد ومراكز الأحزاب السياسية والجمعيات والأسواق والمنتزهات.. منذ يومئذ صار عيد العرش عيدا وطنيا، تعبر فيه الجماهير - كما يقول مؤرخ المملكة الأستاذ عبد الحق الميريني¹ - عن ولائها وإخلاصها لعاهلها، بإلقاء الخطب والقصائد الطافحة بتمجيد الجالس على العرش المغربي، وبمسعاه الحميد في العمل على رقي شعبه وإنقاذه من مخالب الاستعمار. ومن ذلك قول الشاعر محمد الخباز في قصيدة «جمانة الأعياد»:

ملك أضاء لنا بفضل فعاله سبل الهدى والفوز والإرشاد
ملك تفرد بالشهامة والتقى وسما على الأقران والأنداد²

ويعبر الملك في خطاب ذلك العيد عن حرصه على إنجاز ما يتطلع إليه الشعب. وهذا كله له دلالة العميقة، أقل ما يقال فيه: إنه تقليد حسن وسنة حميدة، ومرحمة مجيدة لها ما بعدها. ومما بعدها قبول سلطة الحماية - مضطرة - ترسيم عيد وطني، يكشف المخططات المناوئة، ويرصد الوسائل والحلول الممكنة للتصدي لها بما يناسبها. وبعد ذلك ألزم السلطان المقيم العام «هانري بونصو» على تصحيح ظهير 16 ماي بظهير 24 أبريل لإمادة ما كان يمس بوحدة العقيدة الإسلامية في البلاد، وبوحدة الصف الوطني. فلم يمض كثير من الوقت حتى رفض الملك محمد الخامس طيب الله ثراه - ومعه الأحزاب - البرنامج الإصلاحية المزعوم، الرامي إلى إلحاق المغرب بالاتحاد الفرنسي لردع الحركات التحررية،

1 - كان ذلك في حديث لوكالة المغرب العربي للأنباء، بمناسبة الذكرى 13 لتربع صاحب الجلالة الملك محمد السادس على عرش أسلافه الميامين.

2 - من مقال بعنوان: المضامين الوطنية والقومية في شعر محمد الخباز. للأستاذ محمد بن محمد الحجوي. مجلة دعوة الحق، عدد 389، سنة 1429 هـ/2008 م، ص 84.

حيث عبر جلالته عن موقفه في خطاب ألقاه يوم 9 أبريل 1974م، ذكر فيه أن المغرب دولة إسلامية عربية إفريقية موحدة الأطراف رغم الاستعمار، توافقة إلى استرجاع سيادتها ووحدتها الترابية، مشيراً إلى رفض الانخراط في الاتحاد الفرنسي، ومتناسياً تقديم عبارات الشكر المعهودة للدولة الحامية في الخطب الرسمية¹. وهي إشارة واضحة إلى أن الحماية لا مقام لها ولا مبرر لبقائها، ثم إن العزم ماض على متابعة النضال لتحقيق الاستقلال. فقد نظم عبد الله كنون رحمه الله بهذه المناسبة شعراً فقال:

لعرشك في الإسلام عيد مخلص لأنك للإسلام نعم المجدد
جبرت عمود الدين فور انكساره وكان عدو الدين في الكسر يجهد
بعثت لهذا الجيل بالثورة التي تغير من أوضاعه وتجدد²

وفي خطاب العرش 1951م سفه الملك المجاهد مزاعم رفضه للديموقراطية، وكذب ادعاءهم المشوش، بقوله: "إن أفضل حكم ينبغي أن تعيش في ظله بلاد تتمتع بسيادتها وتمارس شؤونها بنفسها، هو الحكم الديموقراطي الذي يوافق ديننا الحر، ويضمن للأفراد والجماعات حياة الطمأنينة والاستقرار، وإننا ما زلنا على مبدئنا ثابتين، وفي تحقيقه جادين، إيماناً منا بأن هذا النظام هو الذي يكفل لرعايانا أقصى ما يمكن من حرية وعدل وكرامة"³.

بهذا وغيره سطع نور المرحمة، وقوي الأمل في بزوغ فجر الحرية والكرامة، فقد خاطب جلالة السلطان سيدي محمد بن يوسف شعبه في عيد العرش سنة 1952م، بخطاب سام بالقصر الملكي بالرباط، أربك فيه الحماية الفرنسية ومن كان في ركبهم، فقال: "إن الحماية مثلها كمثل قميص لطفل صغير، كبر الطفل ونما وترعرع، وبقي القميص على حاله، وبذلك أصبح غير صالح أن يلبسه هذا الرجل الراشد" يعني المغرب. وهنا إشارة كذلك إلى قصور فهم المستعمر وغبائه في امتداد أطماعه، واستمرار غيه.

لقد ولدت المحنة منحة، وذهب الليل بظلامه وأقبل النهار بضياءه، وجاء البرهان القاطع والنور الساطع، في اعتراف جامع مانع، برمزية وقديسية العرش، وهزيمة شائته، وذلك بعودة الملك معززا مكرما إلى وطنه وعرشه يوم 16 نونبر 1955م، وهي ليلة الذكرى الثامنة والعشرين لتربعه على عرش أسلافه، فكان يوماً مشهودا، ونصراً منشودا، وتأيدا ربانيا، وتصديقا إلهيا لحديث النبي الكريم ﷺ: "لا يزال أهل المغرب ظاهرين، لا يضرهم من خذلهم حتى تقوم الساعة"⁴.

1 - معلمة المغرب، ص 7028.

2 - من مقال بعنوان: عيد العرش عبر وتوجيهات للأستاذ محمد كنون الحسني. مجلة دعوة الحق، عدد 368، سنة 1433هـ/2002م، ص 23.

3 - معلمة المغرب، ص 7029.

4 - رواه أبو نعيم في الحلية عن سعد بن أبي وقاص. ج 3 ص 113.

واعتبر الملك المرحمة التي خرجت من رحم الملحمة نعمة توجب الشكر، فعبّر عنها بالجهاد الأكبر في إشارة إلى أن الملحمة جهاد أصغر، وذلك لأن المرحمة تحتاج إلى رعاية وتقدير لأهميتها، وما يتطلبه ذلك التقدير من شحذ للهمم، ومزيد من الاستنفار لبناء دولة حديثة عتيدة. تقوم على نظام ملكي دستوري.

ففي 12 نونبر 1956م افتتح الملك محمد الخامس طيب الله ثراه أول مجلس استشاري، وقال: «إن تأسيس هذا المجلس لحدث عظيم بالنسبة لبلدنا، بل إنه لمن أهم الأحداث التي تمت في عهد الاستقلال، ونحن لا ندعي له أكثر من كونه خطوة أولى نحو الهدف المنشود. أما الهدف الذي لن ندخر جهدا في العمل على إبلاغ شعبنا إليه فهو حياة نيابية بالمعنى الصحيح، تمكن الشعب من تدبير شؤونه العامة، في دائرة ملكية دستورية تضمن المساواة والحرية والعدل للأمة أفرادا وجماعات، حتى يتم بذلك خلق ديمقراطية مغربية بناءة، تتفق مع ديننا الحنيف الذي جعل الناس سواسية كأسنان المشط»¹.

إن العرش والجالس عليه أكرم الله مثواه قاد يومئذ ملحمة، وأشرف عليها حتى ولدت ونمت وأثمرت على يديه المرحمة، وعلم أن من شكر الله إشراف شعبه الوفي في كل بناء ورقي، ليكون للاستقلال الذي كافح الجميع من أجله مدلوله الحق.

خاتمة:

هكذا فلتكن الملحمة مؤيدة بالشرع وخادمة للشرع، حملت من أول استصدار للظهير الجائر، فجاء بها المخاض إلى جذع نخلة، نبتت في تربة طيبة، فنمت وبسقت وأثمرت، وصارت توتي أكلها كل حين بإذن ربها، فمن الاحتفال الأول بالعرش في 18 نونبر 1933م، على عهد جلالة المغفور له محمد الخامس طيب الله ثراه، ومرورا بعهد الملك الباني، جلالة المغفور له الحسن الثاني أكرم الله مثواه، في كل ثالث من مارس، إلى العهد الزاهر، عهد جلالة الملك محمد السادس نصره الله، في ثلاثين يوليوز من كل عام، يتراحم الشعب بالمرحمة بنت الملحمة، يهز المواطنون بجذع النخلة، فتساقط الثمار، وتتلاأ الأنوار، وتبتهج النفوس بما تحقق ويتحقق من المجد والعز الخالد.

ذلكم هو الاحتفال بعيد العرش، الشجرة العريقة، جذورها عميقة في النفوس والوجدان، عميقة في الدلالة والرمز، يحتفل الشعب المغربي قاطبة من أقصاه إلى أقصاه، وفي جميع مدنه وقراه، بيوم

المرحمة المنبثق من رحم الملحمة. فتبارك الله أحسن الخالقين، وبارك الله للشعب المغربي في مرحمته وفي ثباته ووحده، وفي إيمانه بوعده ربه، واليقين بنصره وتأييده، ورحم الله أبطال ملحمة، وأدام عزه وسعادته في ظل دوحته.

عيد العرش المجيد امتداد لتاريخ رابطة البيعة التليد

● ذ. بدر الدين الحميدي

كلية الشريعة- فاس.

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على مولانا رسول الله النبي الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وعلى كل من اهتدى بهديهم واقتفى أثرهم إلى يوم البعث والدين.
أما بعد؛

فإن ذكرى عيد العرش المجيد تعتبر بحق وصدق مناسبة عظيمة يجدد فيها المغاربة التأكيد على صدق تعلقهم بأهداب العرش العلوي المجيد ويوثقون عرى التلاحم مع العرش برابطة عقد البيعة الشرعي الذي التزموا بمقتضياته منذ تأسيس دولة الأدارسة على أرض هذا الوطن الغالي، وتواصل هذا التلاحم إلى أن جاء الأشراف العلويون. وإن هذا الالتزام من جانب أشراف الدولة العلوية حقق للمغاربة جملة من المنافع العظيمة دينا ودنيا، والتي منها تحقيق الأمن الروحي لجميعهم بغض النظر عن انتمائهم الديني والعرقي والسياسي، مع الدفع بعجلة التقدم الحضاري والتنموي بمختلف أبعادها الاجتماعية والاقتصادية إلى الأمام، حيث بات المغرب اليوم في عهد مولانا أمير المؤمنين محمد السادس نصره الله يحتل المراكز المتقدمة على المستوى الإقليمي والقاري والدولي.

ثم إن هذه المقالة الموسومة بـ «عيد العرش المجيد امتداد لتاريخ رابطة البيعة التليد» لتهدف -بمناسبة الذكرى الثالثة والعشرين لتربع صاحب الجلالة الملك محمد السادس نصره الله وأيده على عرش أسلافه الميامين- إلى إبراز المعنى الشرعي لرابطة البيعة، مع إيراد ما يؤصل لها من نصوص الشرع الحكيم، مع الإشارة إلى تاريخ هذه الرابطة بين الشعب المغربي والعرش العلوي المجيد، بالإضافة إلى بيان أثر تمسك المغاربة بهذه الرابطة واحترام مقتضياتها الشرعية والسياسية على مستوى تحقيق الاستقرار الاجتماعي والاقتصادي والأمن الروحي، والتقدم الحضاري والتنموي في هذا الوطن العزيز.

جاء في لسان العرب لابن منظور أن البيعة مشتقة من البيع الذي ماضيه باع يبيع¹، ففيها معنى المعاهدة والتعاقد على نحو المعنى الموجود في العقود الأخرى كالبيع والشراء، والزواج وغيرها من العقود. والبيعة اسم مصدر بايع فلان الخليفة يبايعه مبايعة، بمعنى عاهده وتعاقد معه، فهي مشبهة بالبيع الحقيقي؛ لأن العرب جرت عادتهم أنهم إذا تبايعوا في صفقة تجارية، ضرب كل واحد من البائع والمشتري في يد صاحبه كتعبير عن انعقاد الصفقة.² فالعرب اعتادوا على أنه إذا تبايع اثنان، صفق أحدهما بيده في يد صاحبه؛ ومن ثم يقال بايعه وأعطاه صفقة يده.

فالبيعة على هذا، فيها معنى التزام المبايع (بالكسر) أمام المبايع (الفتح) بالمناصرة وعدم الخذلان في جميع الأحوال والأوضاع والأزمان. فالبيعة في معناها الشرعي تعني العهد والعقد بين ولي الأمر الذي ولاه الله تعالى بسلطانه خليفة له في أرضه، والذين بايعوه على السمع والطاعة ما أمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر، كل يلتزم لصاحبه بما عاهده عليه من النصرة وعدم الخذلان. ومن هذا المعنى قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ، يَكُ اللَّهُ بَوَاقُ أَيْدِيهِمْ، فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ، وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَنْ يَكْفُرْ أَجْرًا عَظِيمًا).³

قال الإمام الطبري في تفسير قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ): إن الله تعالى قد خاطب نبيه ﷺ خطاب تشريف وتكريم بأن الذين يبايعونك في صلح الحديبية من أصحابك على أن لا يفروا عند لقاء العدو، ولا يولونهم الادبار؛ (إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ). فمعناه أن هؤلاء الصحابة رضوان الله تعالى عليهم جميعا عند مبايعتهم لرسول الله ﷺ إنما يبايعون ببيعته هذه الله تعالى، ويدل له أمور ثلاثة تؤخذ من هذه الآية، وهي أن يد الله تعالى فوق أيديهم عند البيعة لرسوله ﷺ، والثاني أن قوته تعالى فوق قوتهم في نصرته ﷺ على عدوه، والثالث وعده تعالى لمن أوفى بمقتضيات المبايعة الجزاء الأوفى، وهو أن يضمن لهم الجنة.⁴ قال الإمام ابن كثير مؤكدا ما ذهب إليه الطبري من أن البيعة لله من خلال رسوله ﷺ: «فالله تعالى هو المبايع بواسطة رسوله ﷺ». ⁵ فالبيعة في الشريعة انطلاقا من هذه الآية الكريمة يخاطب بها وجدان وإيمان المسلم والمسلمة الذي به يثبت على الحق، كما يخاطب فيهما عقلهما الذي هو مناط التكليف بهذا الشأن العظيم ووسيلة اتخاذ القرار؛ ولذلك ربط الله تبارك وتعالى تأسيس الحكم على الأرض باسمه الأعظم ليدرك المسلم والمسلمة حجم التعاقد الذي أقدم عليه وتحمل مسؤوليته.

1. ابن منظور. لسان العرب، مادة: بيع، دار صادر - بيروت، دون تاريخ، 8 / 26.

2. إبراهيم حركات. معلمة المغرب، مادة: البيعة، طبعة 1957م، 6 / 57.

3. الفتح: 10.

4. الإمام الطبري. تفسير الطبري، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 1415هـ / 1994م، بتصرف، ج / ص: 512.

5. الإمام ابن كثير. تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد السلامة، دار طيبة، ط: 8، 1420هـ / 1999م، ج / ص: 512.

فالببيعة في اصطلاح أرباب السياسة الشرعية لا تخرج عن اختيار أهل الحلّ والعقد¹ من يتولى أمر الأمة² للعمل على ما يجلب لها المصالح الدّينية و المنافع الدّنيوية، ويدفع عنها المضار بمختلف أنواعها وأصنافها بمنطق الحكمة وعقل الرشاد يباشر عقدها العلماء والفضلاء، والوجهاء من النّاس، ويترتب عليها إلزام العامة بالطاعة لمن ولاه أهل الحلّ والعقد من الأمة أمر المسلمين وعدم جواز الخروج عليه. وهذا المنهج هو المعمول به في المغرب منذ قرون عديدة وإلى الآن³، حيث يقوم أهل الحلّ والعقد من الأمة المغربية من العلماء والفضلاء والوجهاء وأرباب السياسة على عقد الأمر لأمير المؤمنين لتولي تدبير الشأن المغربي دينا ودنيا يساعده في القيام بكل هذه الأعباء العظام والمسؤوليات الجسام الأحزاب السياسية ذات الأغلبية التمثيلية في البرلمان بغرفتيه. فيقوم بكتابة وثيقة البيعة العلماء ويوقعها أعلام الفئات المختلفة في الأمة والمجتمع، وهم الأمراء، وأمناء أصحاب الحرف. وبهذا العقد يعطي الموقعون المشروعية للحاكم الجديد بصفته أميرا للمؤمنين، ويلتزمون له بالولاء في المنشط والمكره. ويلتزم أمير المؤمنين للأمة بما يسمى عند علماء الشريعة في الإسلام بالكليّات الشرعية، وذلك بأن يحمي للأمة الأمور الخمسة الآتية: الدين، الأمن على الحياة، النظام العام على أساس قواعد يقبلها العقل، العدل، لاسيما في المعاملات المالية، العرض، أي عيش الكرامة، بحسب أخلاق الدين.⁴

ولا تخرج هذه الالتزامات الكبرى الواردة في عقد البيعة الشرعي عن القواعد الكبرى التي تضمنها الدستور في العصر الحديث، لذلك لم يجد المغرب تنافيا بين حياته السياسية بمقتضى البيعة وحياته بمقتضى الدستور. بل إن هذه الرابطة عبر تاريخ المغرب، وإلى وقتنا هذا، تتجدد لأمير المؤمنين كل أسبوع من خلال دعاء الخطباء له في المساجد يوم الجمعة بالسداد والعون على القيام بمهامه الجسام. ثم إن البيعة التي جرى المغاربة على تجديد العهد بها لأمير المؤمنين في المغرب بمناسبة ذكرى عيد العرش المجيد لتعد أم التعاقدات والتعهدات التي تتفرع عنها سائر التعاقدات في المجالات كلها، من الدينية (اختيار منهج التدين الذي يضمن التعايش السلمي بين مكونات الشعب المغربي) والسياسية،

1 . فأهل الحلّ والعقد، وهم أهل الاجتهاد والاختيار يشترط فيهم شروط ثلاثة: العدالة، والثاني: العلم الذي يتوصل به إلى معرفة من يستحق الإمامة، والثالث: أن يكونوا من أهل الرأي والتدبير المؤيدين إلى اختيار من هو للإمامة أصلح. انظر الأحكام السلطانية، تحقيق: أحمد جاد، دار الحديث - القاهرة، 1427هـ / 2006م، ص: 19. وهذه شروط كلها متوفرة فيمن يحضر مراسيم عقد البيعة لأمير المؤمنين في المغرب؛ إذ يشارك في ذلك العلماء والوجهاء والفضلاء من الأمة المغربية والعائلة الملكية الشريفة.

2 . كما اشترط العلماء فيمن يتولى أمر المسلمين شروطا، منها: أن يكون على صفة من يصلح أن يكون قاضيا من الحرية والعدالة، والعلم، ومنها أن يكون قويا بأمر الحرب والسياسة وإقامة الحدود، لا تلحقه رافة في ذلك، والذب عن الأمة، ومنها أن يكون من أفضلهم في العلم والدين. الأحكام السلطانية للهاوردي، مرجع سابق، ص: 20.

3 . انظر: نص عقد البيعة الشرعي لأمير المؤمنين الملك محمد السادس نصره الله وأيده التي تلاها وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية السابق العلامة عبد الكبير العلوي المدغري رحمه الله المنشور في موقع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية، وهو:

[/http://www.habous.gov.ma](http://www.habous.gov.ma)

[/https://www.fm6oa.org](https://www.fm6oa.org) . 4

والاقتصادية والاجتماعية، والثقافية. يتمثل ذلك في الرؤية الاستراتيجية لصاحب الجلالة الملك محمد السادس نصره الله وأيده، والنموذج التنموي الذي جاء بتصوير واضح حول السياسة في المغرب في أفق 2035 م. ولأهميتها، رفض المغاربة قاطبة المساس بهذا الرباط المقدس بالرغم من كيد الكائدين وحسد الحاسدين؛ وذلك بفضل الله تعالى على هذه الأمة، وحكمة أمير المؤمنين حفظه الله وأيده، وتبصر المغاربة وتعقلهم في الحفاظ على وحدة الأمة المغربية تحت القيادة الرشيدة، وصيانة المكتسبات، والسير قدما نحو التقدم والرفاهية. كل هذه المحاسن والمكارم يتم استحضارها وتثمينها بمناسبة عيد العرش الذي تتجدد فيه البيعة الخاصة والعامة لأمير المؤمنين على مرأى ومسمع من المغاربة كلهم.

السند الشرعي لعقد البيعة

يحتل مفهوم البيعة «القائم على الطاعة من الرعية للراعي، وإنفاذ مهمات الحاكم على أكمل وجه، وأهمها سياسية الدين والدنيا على مقتضى شرع الله» سنده الشرعي من القرآن الكريم والسنة النبوية وسيرة الرسول الأكرم العطرة، وسيرة الخلفاء الراشدين من بعده.

من القرآن الكريم

فمن القرآن الكريم قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ، يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ، فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ، وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَنَّا أَجْرًا عَظِيمًا) وقال تعالى: (لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا) فعقد البيعة لأهميته الدينية وضرورته في السياسة الشرعية، نبه القرآن الكريم على أهم خصائصه، وأحكامه، ومقتضياته من جهة الراعي والرعية، وما يرتبه في ذمة كل منهما من الحقوق والواجبات، وما يرتبط به من الولايات الدينية والشرعية.

من السنة المطهرة

ومن السنة النبوية المطهرة الحديث الذي رواه الترمذي وغيره من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي، أحدهما أعظم من الآخر: كتاب الله، حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي...»¹. ومن ذلك أيضا الحديث الذي أخرجه أصحاب السنن وغيرهم عن العرابض بن سارية رضي الله عنه قال: «وعظنا رسول الله ﷺ موعظة وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون، فقلنا يا رسول الله، كأنها موعظة مودع، فأوصنا، قال: «أوصيكم بتقوى الله، والسمع

1 . سبق تخريجها.

2 . الفتح: 18.

3 . الترمذي: سنن الترمذي، كتاب المناقب، باب مناقب أهل بيت النبي ﷺ، حديث 3788. قال فيه الترمذي: حسن غريب، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي، (3788).

والطاعة، وإن تأمر عليكم عبد، وإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافا كثيرا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة»¹.

فكل هذه النصوص تدل دلالة واضحة على أهمية البيعة في الإسلام باعتبارها مسألة شرعية رشيدة، ووسيلة سياسية حكيمة لتنظيم العلاقة بين الحاكم والمحكوم التي بناها الإسلام على الطاعة والامتثال لأوامر وقرارات ولي الأمر² ما التزم شرع الله تعالى وقدر على حفظ الدين وحمانيته، وتنفيذ الأحكام، وحماية الوطن، وتحصين بلده من طمع الطامعين إلى غير ذلك من الشروط التي اشترطها الفقهاء في المبايع له³. وأنه لا ينبغي الخروج على طاعته لما في ذلك من مفسد عظيمة ترجع على الأمة بالضرر العظيم، ولما في ذلك من نقض لمقتضيات البيعة القائمة على التعاون والتآزر والتضحية لحماية رمز السيادة، والضامن لوحدة الأمة الذي هو الحاكم؛ إذ هو ظل الله في أرضه، كما ورد في الحديث المرفوع.

تاريخ عقد البيعة في المغرب

ارتبطت البيعة للملوك المغرب بالسند الشرعي المتصل إلى رسول الله ﷺ من خلال المولى إدريس سليل البيت النبوي على صاحبه أفضل الصلاة وأزكى السلام إلى بيعة ملوك الدولة العلوية الشريفة. انطلق هذا السند من بيعة الصحابة لرسول الله ﷺ، وانتهى إلى بيعة المغاربة لأمر المؤمنين الملك محمد السادس حفظه الله.

وبالرجوع إلى كتب السيرة وكتب التاريخ المغربي، نجد أن مفهوم البيعة ظهر منذ فجر الحضارة الإسلامية؛ حيث جرت في عهد النبي ﷺ أكثر من مرة، تجلّى ذلك في بيعتي العقبة الأولى⁴ والثانية⁵، اللتين

1 . أخرجه الإمام أبو داود «4607» والترمذي «2676» وأحمد «126، 127» والدارمي «1/44» وابن ماجه «443.43» جامع العلوم والحكم لابن رجب، تحقيق: شعيب الأرنؤوط - إبراهيم باجس، مؤسسة الرسالة، ط8، 1419هـ - 1999م، ص 109.

2 . وفي هذا السياق، يذكر أهل العلم أن من حق ولي الأمر أن يطاع فيما يصدره من أحكام منبثقة عن الشريعة كافة بما يحقق مصلحة أفراد المجتمع، فيدفع عنهم المفسد ويجلب لهم المنافع، أو يحافظ لهم على الكليات الخمس من مقصد حفظ الدين، وحفظ النفس، وحفظ العرض أو النسل، وحفظ العقل، وحفظ المال، وتدير شؤون حياتهم. انظر: سلطة ولي الأمر في سن الأنظمة للعتبي، بحث منشور في مجلة الدراسات العربية، العدد: 36، (1/237).

3 . الماوردي يعطي صورة عن رأي الفقهاء في الإمامة العظمى من وجوب الإمامة شرعا وعقلا، وبيان ما يشترط في أهل الحل والعقد، وبيان ما يلزم الإمام وما يلزم الرعية. انظر: الأحكام السلطانية، للماوردي، تحقيق: أحمد جاد، دار الحديث - القاهرة، 1427هـ / 2006م، ص: 21 وما بعدها.

4 . جرى هذا الحدث العظيم في الإسلام في السنة الثانية عشرة من البعثة، الموافق يوليو سنة 621 ميلادية؛ وذلك أن اثني عشر رجلا معظمهم من الخزرج واثان من الأوس اتصلوا برسول الله ﷺ وبايعوه بيعة النساء فيما أخرجه البخاري عن عباد بن الصامت «على أن لا يشركوا بالله شيئا، ولا يسرقوا...» إلخ أخرجه البخاري، باب علامة الإيذان حب الأنصار، 1/7.

5 . جرت في موسم الحج في السنة الثالثة عشرة من النبوة الموافق يوليو 622 ميلادية. وبعد أن علم القوم بنبود البيعة التي تقوم على السمع والطاعة في المنشط والمكروه، والنفقة في العسر واليسر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونصرة رسول الله ﷺ من أن تأخذ أحدهم في الله لومة لائم، وعلى نصرة رسول الله ﷺ إذا قدم إليهم، وأن يمنعه مما يمنعون منه أنفسهم وأزواجهم وأبنائهم، ولهم بذلك الجنة، بايعه الخاصة ثم بايعه العامة. قال جابر: قمنا إليه رجلا رجلا، فأخذ علينا البيعة، يعطينا بذلك الجنة. (أخرجه الإمام أحمد في مسنده من حديث جابر). وأما بيعة المرتين اللتين شهدتا الواقعة، فكانت قولاً؛ أخرجه مسلم في باب كيفية بيعة النساء، (2/131). انظر للتوسع فيما يتعلق ببيعتي العقبة الأولى والثانية: الرحيق المختوم لصفي الرحمن المباركفوري، مكتبة المورد، الطبعة الأولى، 1427هـ / 2006م، ص: 107-115.

شكلتا فتحاً ونصراً مبيناً لرسول الله ومن معه من المؤمنين؛ وذلك أنه أصبح للدولة الإسلامية شأن عظيم بعد هاتين البيعتين المباركتين. ثم جاءت بيعة الرضوان لتشكل امتحاناً عسيراً للمؤمنين الذين بايعوا رسول الله عليه وسلم على السمع والطاعة والمناصرة للامشروطة ضد قريش الذين منعوا المسلمين من الدخول إلى مكة المكرمة لممارسة شعائهم الدينية في جو من الطمأنينة والاستقرار الروحي. كما شكلت منعطفاً حاسماً في قيام أركان الدولة لتأسيس الأمن والحرية والكرامة الإنسانية في كل ربوعها، مع تطلعها لنشر رحمة الإسلام وعدله في العالم كله، قال تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ)¹.

واقترء بهذا المنهج النبوي في إقامة الحكم على التراضي والتعاقد، استمر المسلمون في المشرق والمغرب على عقد البيعات للخلفاء والأمراء والحكام. وهكذا استمرت البيعة بسندها المتصل في المغرب، حيث عجلت القبائل الأمازيغية بعد أن شرح الله صدرها للإسلام بمبايعة المولى إدريس الأكبر بمدينة ويلي عام 172 هـ على الحكم والقيام بأمرهم وصلواتهم². ثم مع قيام الدولة المرابطية تشبث سكان القبائل الصنهاجية الصحراوية بعقد البيعة لعبد الله بن ياسين الذي «أذعنوا له بالطاعة وإقامة الكتاب والسنة»³. وهكذا استمرت سلسلة البيعة مع الموحدين، حيث بايع المغاربة نجل عبد المومن بن علي الكومي - بعد وفاة هذا الأخير عام 558 هـ - أبا يعقوب يوسف الذي استتب الأمن في زمانه واستقرت الأوضاع لحزمه وقوة سلطانه. ومصدر قوته هذه كانت من جميع أنحاء المغرب، وخاصة القبائل الصحراوية، مما ساعده على تأمين الطريق في عمق الصحراء؛ ولذلك أمن الناس على أموالهم وأنفسهم وأعراضهم وهم في طريقهم من بلاد نول لمطة⁴ حتى برقة⁵.

وهكذا اتصل سند البيعة في المغرب مع الأشراف السعديين، فبايعت القبائل السوسية محمد بن عبد الرحمن الزيداني مطلع القرن السادس عشر الميلادي على مواجهة قوى الظلم والاستكبار للإيريين. ومعلوم أن هذه المناطق الصحراوية كانت تخضع لسلطة شيوخ القبائل الذين لا يترددون في مبايعة السلطان بيعة شرعية إيماناً منهم بأن «من مات وليس في عنقه بيعة شرعية مات ميتة جاهلية»⁶. واستمر ولاء الصحراويين لأحمد يعقوب المنصور حين أعلن عن مشروعه لمد الحكم المغربي إلى السودان الغربي، وعم الأمن والاستقرار بفضل المبايعة والمناصرة للحاكم من قبل الشعب⁷.

1 . الأنبياء: 106.

2 . ابن أبي زرع الفاسي. الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، تحقيق: عبد الوهاب منصور، الرباط، 1973 م، ص: 126.

3 . ابن أبي زرع. مرجع سابق، ص: 125.

4 . انظر التعريف بهذه المدينة وموقعها في: الروض المعطار في خبر الأقطار، 1/ ص 584.

5 . ابن أبي زرع. مرجع سابق، ص: 212. (بتصرف يسير).

6 . أخرج مسلم عن نافع مولى ابن عمر، صحيح مسلم، الإمارة، رقم: 1851.

7 . الغربي محمد. بداية الحكم المغربي في السودان الغربي، طبعة الكويت، 1982 م، ص: 78.

وعقد البيعة للحكام في المغرب تواصل بالسند المتصل مع تولي الأشراف العلويين الحكم، فأعادوا بناء وحدة البلاد واستقرار الأوضاع وإخماد نار الفتن التي كانت تستعربين الفينة والأخرى. ومن اللحظات العvisية التي مرت على المغاربة؛ الفوضى التي عمت البلاد بعد وفاة المولى إسماعيل عام 1139 هـ / 1727 م، وأخذ جيش عبيد البخاري زمام إدارة البلاد الذين أسكتوا أصوات المصلحين من العلماء والوجهاء والفضلاء من الأمة المغربية، «فسم الناس المهرج والفتن، وأعياهم التفاقم والاضطراب وملوا الحرب... فاتفق أهل الحل والعقد على مبايعة السلطان سيدي محمد بن عبد الله عام 1171 هـ / 1757 م، بعد وفاة والده مولاي عبد الله.¹ فانعكست بركة هذه البيعة على البلاد قاطبة لقيام السلطان سيدي محمد بن عبد الله بإدارة البلاد بحزم وحكمة وروية واقتدار، فكان «لا يتردد في ردع المشاغبين ومثري الفتن من رجال القبائل بحيث لا تأخذه في الله لومة لائم لضرب الولاة الجائرين وعتاة القبائل»².

وهكذا تواصلت عقود البيعات للسلطين الشرفاء العلويين بإجماع المغاربة الممثلين بأهل الحل والعقد، حيث عقدت لمولاي عبد الرحمن بن هشام³، وولده سيدي محمد بن عبد الرحمن إلى أن وصل الأمر إلى جلالة الملك الحسن الثاني طيب الله ثراه الذي اجتمع لعقد بيعته أهل الحل والعقد من الأشراف والعلماء والأعيان وكبار رجال الدولة. وهذا ما صرحت به وثيقة بيعته التي جاء فيها أن «الأعيان ورجال الدولة اتفقوا على أن يبايعوا الأمير مولاي الحسن ملكا على المغرب ليواصل أعمال أسلافه الكرام ووالده المقدس»⁴.

ولكون البيعة تسلسلت بالسند المتصل إلى رسول الله في هذا البلد الآمن، فإنه من الضروري وصفها بالبيعة الشرعية التي تتجدد روحها ويتعمق مغزاها، ويتجذر معناها في قلوب المغاربة مع ذكرى عيد العرش المجيد من كل سنة، حيث دأب المغاربة على إحياها وتجديد العهد بمناسبتها لأمر المؤمنين الملك محمد السادس نصره الله وأعز أمره في كل وقت وآن. وسيرا على النهج النبوي، عقدت البيعة لأمر المؤمنين الملك محمد السادس سنة 1999 م بعد أن وافى الأجل المحتوم والده المنعم جلالة الملك المغفور له الحسن الثاني طيب الله ثراه. فعقدت له البيعة الخاصة من قبل أهل الحل والعقد⁵ بالقصر

1 . أحمد بن خالد الناصري. الاستقصا في تاريخ المغرب الأقصى، مرجع سابق، 58 / 1.

2 . أحمد بن خالد الناصري. نفس المرجع، 125 / 1.

3 . أحمد بن خالد الناصري. نفس المرجع، 9 / 4.

4 . الذاكرة الوطنية، العدد الخاص بالسلطان محمد الخامس، الصادر عن المندوبية السامية للمقاومين وجيش التحرير، الرباط، 2005 م، ص: 202.

5 . البيعة التي يعقدها أهل الحل والعقد تكون ملزمة لجميع الناس ولو كان شخصا واحدا. وفي هذا الصدد، قرر علماء الشريعة أن البيعة راجعة إلى اختيار أهل الحل والعقد، فعليهم يتعين نصب الإمام ويتعين على الناس جميعا طاعته، فليس لأحد أن يقول أنا لم أبايعه ولم أحضر بيعته، فإن المعتبر إنها هو مبايعة أهل الحل والعقد ولو انحصروا في شخص واحد. انظر: الجيش العرمم الخامس، لأبي عبد الله محمد أكنسوس. تحقيق: أحمد بن يوسف الكنسوسي، الطبعة الأولى - د. ت، المطبعة والوراقة الوطنية - مراكش.

الملكي العامر بالرباط، كما عقدت له البيعة العامة حين بايعه المغاربة قاطبة في جولته التفقدية الشهيرة¹ لأوضاع المغرب والمغاربة من أجل رسم خطة بناءة للنهوض بأوضاعهم وتحسين مستوى العيش لدى المواطن المغربي. وهذا يندرج ضمن الطموحات التي أعلنها جلالة الملك فور توليه الحكم واعتلائه عرش أسلافه الميامين، والتي يصبو من خلالها إلى تحقيق آماني الشعب المغربي التواق إلى نهضة واسعة وتنمية شاملة وحياة رغيدة.²

وبناء عليه، فإن مبايعة أمير المؤمنين الملك محمد السادس نصره الله تعالى ببيعة شرعية دينية ترجع أصولها وأسسها إلى الكتاب والسنة والسيرة النبوية العطرة وسيرة الخلفاء الراشدين، وتستمد قوتها وعراقتها من تاريخها الممتد في المغرب على مدى 12 قرنا من الزمن، حيث تولى السلاطين العلويون حكم المغرب منذ 1050هـ / 1640م. فهذه البيعة هي قيام بالواجب الديني المجمع عليه بين أئمة الدين من مختلف المذاهب والمشارب، قال الإمام ابن حزم: «اتفق جميع أهل السنة وجميع المرجئة وجميع الشيعة وجميع الخوارج على وجوب الإمامة، وأن الأمة واجب عليها الانقياد لإمام عادل، يقيم فيهم أحكام الله، ويسوسهم بأحكام الشريعة».³ ويؤكد هذا المعنى ابن تيمية رحمه الله تعالى، فيقول: «يجب أن يعرف أن ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين؛ بل لا قيام للدين إلا بها».⁴ ويقول العلامة ابن خلدون: «إن نصب الإمام واجب، قد عرف وجوبه في الشرع بإجماع الصحابة والتابعين، لأن أصحاب رسول الله ﷺ عند وفاته بادروا إلى بيعة أبي بكر، وتسليم النظر إليه في أمورهم، وهكذا في كل عصر من بعد ذلك»⁵.

وفي نص العلامة ابن خلدون إشارة إلى وجوبية استمرار عقد البيعة في المسلمين؛ ولذا، فإن بيعته هذه لتمثل بالإضافة إلى استحضار التاريخ التليد التي دأب عليه الأسلاف في عقد البيعات لحكامهم اقتداء برسول الله ﷺ وخلفائه الراشدين المهديين من بعده، فإنها تعتبر تعاقدًا شرعيًا واجتماعيًا وسياسيًا ودستوريًا على مواصلة سياسة البناء والنهوض بأوضاع المواطنين. وفي هذا السياق، نص جلالة الملك صراحة على هذا الالتزام في خطابه السامي، فقال: «وإذا كان جلالة الملك الحسن الثاني تغمه الله بواسع

1. هذه عادة محمودة جرى عليها أسلافه المنعمون. وفي هذا الصدد، تذكر المصادر التاريخية في هذا الشأن أن سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله تعالى لم ينشغل عن شؤون الأمة بملذات الإمارة والسلطان؛ بل قام بجولة بمختلف جهات البلاد للوقوف بنفسه على ما تتطلبه الإمارة وضبط أحوال المغرب. انظر: الإعلام بمن حل مراكش وأغامت من الأعلام لعباس بن إبراهيم، تحقيق: عبد الوهاب بن منصور، الرباط، 1977م، 6/ 109.

2. حسن عزوزي. عيد العرش المجيد رمز التجديد والعتاء، دعوة الحق، العدد: 353، ص: 67.

3. ابن حزم. الفصل في الملل والنحل، مكتبة الخانجي - القاهرة، 4/ 72.

4. ابن تيمية. السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، تحقيق: علي بن محمد العمران، مطبوعات المجمع الفقهي الإسلامي بجدة، دار عالم الفوائد، د. ت. ص: 9.

5. ابن خلدون، عبد الرحمن (732-808): المقدمة، حققه عبد الله محمد الدرويش، دار يعرب دمشق الطبعة الأولى 2004م، ص: 131.

رحمته قد رحل إلى جوار ربه، فإننا نحن محمد السادس قد خلفناه في خدمتك- شعبي العزيز- وخدمة المغرب، وسنبقى على النهج سائرين»¹.

ارتباط تجدد عقد البيعة بعيد العرش المجيد

ولا تفوتنا هنا الإشارة إلى أن البيعة في المغرب كما ارتبطت بسندها الشرعي، ارتبطت بمناسبة عظيمة القدر جليلة الشأن، تحتل مكانة سامقة في قلوب المغاربة، ألا وهي عيد العرش المجيد، حيث جرت العادة بتلقي البيعة العامة مباشرة من الوفود الممثلة للمغاربة من جميع الجهات في القصر الملكي². فالمغاربة درجوا على استغلال هذه المناسبة العظيمة للتعبير لجلالته عن تجندهم وراء جلالة الملك في السراء والضراء والمنشط والمكره، كما يعتبرونها مناسبة للإعراب عن امتنانهم وصدق مشاعرهم الدينية، وعميق أحاسيسهم الاجتماعية. بالإضافة إلى أنها تعد فرصة لتجديد العهد بأمر المؤمنين، وترسيخ مبادئ سار عليها الأجداد منذ زمن بعيد، حيث أصبحت ظاهرة مغربية فريدة في العالم، تعد من أبرز خصوصيات المملكة، وجزء لا يتجزأ من الهوية المغربية والتراث اللامادي للمغاربة. بالإضافة إلى كل ما تقدم، فإن الاحتفال إنما هو احتفال بالمشروعية التي يقوم عليها السلطان أمير المؤمنين في المغرب؛ وذلك يرمز فيما يرمز له إلى أن التقليد والتنصيب تم على أساس التراضي، والتصرف على الرعية بما يحقق مصلحتها في الدنيا والآخرة، ورخاءها ورغد عيشها.

البعد الحضاري لعقد البيعة في المغرب

يتجلى البعد الحضاري لعقد البيعة في كونه يعتبر بحق وصدق مما يميز بلدنا عن باقي بلدان العالم شرقا وغربا. فنظام المغرب في عقد الإمامة العظمى لأمر المؤمنين الضارب بجذوره في تاريخ الدولة الإسلامية التي قامت على أرض المغرب الطاهرة منذ أواخر القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي، والمستمد ثوابته من الكتاب والسنة ليعد شامة في الحكم في العالم الإسلامي³. وإن الناظر في تاريخ المغرب يجد أن تأسيس الحكم على نظام البيعة الشرعية؛ ومن ثم يدرك العلاقة المتينة بين الملك والشعب، ويقف على مدى التلاحم الحضاري التلقائي بين القمة والقاعدة، والذي يعبر عن وعي المغاربة ومستوى نضجهم السياسي ومدى تحضرهم في علاقتهم بملكهم المفدى، نظرا لما انطبع في أذهانهم وارتسم في

1. مقتطف من الخطاب السامي الموجه للأمة المغربية بمناسبة ثورة الملك والشعب بتاريخ 08 / 20 / 1999م. <https://www.collectivites-territoriales.gov.ma>.

2. ولعل تلقي البيعة العامة من ممثلي الأمة المغربية تقليد ورثه الملك عن أسلافه. وفي هذا الصدد، نستحضر ما ذكرته بعض المصادر التاريخية مولاي عبد الرحمن بن هشام الذي خلف السلطان مولاي سليمان تلقى «بيعات أهل الأمصار وهداياهم ولم يتوقف عن هذه البيعة الشرعية أحد منهم». انظر: أحمد بن خالد الناصري. الاستقصا في تاريخ المغرب الأقصى، مرجع سابق، 4 / 9.

3. إبراهيم بن أحمد الوافي. من وحي الذكرى ومقاصد الاحتفال بعيد العرش، دعوة الحق، العدد: 360.

ذاكرتهم الحضارية والتاريخية والسياسية من قيام الملوك بواجبهم الديني في تنفيذ ما التزموا به تجاه شعوبهم. فالملك يعد موئلا لاستتباب الأمن، ورفع الحيف والمظالم عنهم؛ بل إن السلطان في الثقافة السياسية المغربية هو ظل الله في أرضه الذي به تستظل الرعية، وتحت حمايته يحتمون، وحوله في السراء والضراء يلتفون.¹

كما يمثل الجانب الحضاري المشرق لنظام البيعة لأمر المؤمنين في كون البيعة الشرعية تعتبر تعاقدًا اجتماعيًا واقعيًا قائمًا على التراضي بين أهل الحل والعقد من جهة والحاكم من جهة، ثانية في البيعة الخاصة. ثم إن هذا التعاقد الذي قوامه البيعة الشرعية ليؤكد على حضور الإسلام في هذه الديار منذ أزيد من 12 قرنا من الزمن. فأسلافنا لما اختاروا الانصواء تحت ظل الإسلام ما أخطأوا التقدير أبدا؛ وإنما اقتنعوا تمام الاقتناع بوفرة مزايا هذا الدين الذي بسببه تجتمع كلمة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، كما أيقنوا بأنه الدين الخالد الصالح لكل زمان ومكان، والقادر على هداية الإنسان، وصار هذا المنهج ديدن ملوك المغرب، في ضوئه يسوسون البلاد، ويدافعون ويننون، ويمتزجون مع الرعية في مسراتها وأحزانها، لا يغمض لهم جفن في سبيل إحقاق الحق وإسعاد الجميع.²

ومن الأبعاد الحضارية - في تقديري - لعقد البيعة ارتباطه إلى جانب عوامل أخرى بالاستقرار والأمن؛ لأنه يصاغ وفق الأحكام الشرعية والشروط التي حددها علماء الشريعة باعتبارهم جزءا لا يتجزأ من أهل الحل والعقد في كتبهم الموسومة بالأحكام السلطانية التي تضمنت قواعد هائلة في القانون الدستوري الإسلامي. بل إن نظام الحكم واعتماده على البيعة في المغرب كان له دور كبير في الاستقرار السياسي والأمن الروحي، وخاصة في مرحلة انتقال السلطة من سلف الحكام إلى خلفهم، حيث تنتقل بسلاسة، فلا يترك المجال لأي تشويش أو خذلان.

ومن هذه الأبعاد أن مفهوم البيعة يتجلى فيه مبدأ المساواة بين الرجل والمرأة، حيث تذكر لنا كتب السيرة النبوية العطرة مشاركة النساء في بيعة الرسول ﷺ على نصرته والدفاع عنه وعدم خذلانه مهما كانت الظروف التي تمر بها الجماعة المسلمة. وفي هذا تشريف وتكريم للمرأة لم يكن معهودا من ذي قبل؛ وذلك أنها تشارك في أهم حدث سياسي شرعي، ألا وهو وضع الحجر الأساس للحكم في الدولة الإسلامية. ومما يشهد لهذه المشاركة السياسية الشرعية للمرأة الأحداث الثابتة الصحيحة من السيرة العطرة على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم. فالبيعة في الإسلام لم تميز بين الرجل والمرأة، ولا بين الكبير والصغير، ولا بين الغني والفقير، ولا بين أسود وأبيض، الشيء الذي يعطي حسا تربويا

1 . إبراهيم بن أحمد الوافي. من وحي الذكرى ومقاصد الاحتفال بعيد العرش، دعوة الحق، م. س.

2 . إبراهيم بن أحمد الوافي. نفس المرجع.

رائعا للرعية، بكون الإسلام يعلمهم ضرورة تحمل المسؤولية الجماعية، والمشاركة والتعاون فيما بينهم، للارتقاء بمجتمعاتهم وأمتهم، وتوفير الحماية اللازمة¹. فقد أورد الإمام ابن الجوزي أن عدد من بايع النبي ﷺ من النساء، بلغ 457 امرأة "لم يصافح على البيعة امرأة وإنما بايعهن بالكلام"، بل وجدنا رسول الله ﷺ يبايع الأطفال، حيث بايع عبد الله بن الزبير رضي الله عنه وهو ابن سبع سنين².

معالم تجسيد رابطة البيعة للاستقرار الديني وترسيخ الأمن الروحي

البيعة الشرعية التي دأب المغاربة على عقدها للأشراف العلويين وغيرهم ممن كان قبلهم كان لها الأثر البارز على مر التاريخ في تحقيق الاستقرار النفسي والأمن الروحي، الذي ينتظم في جملة من المؤسسات الدينية والشرعية التي يرجع الاختصاص فيها إلى أمير المؤمنين، باعتبارها تابعة بشكل مباشر لسلطته الدينية من حيث إنه أمير للمؤمنين وحامي حمى الملة والدين في هذا البلد العزيز، فهي أشد المؤسسات ارتباطا بنظام البيعة التليد. ولقد بات دور هذه المؤسسات الدينية بازا في عهد مولانا أمير المؤمنين جلالة الملك محمد السادس نصره الله وأيده بعد أن أصدر ظهائر شريفة تنظمها وتحدد مهامها الرئيسية ووظائفها الأساسية، ومجال عملها، ونوعية نشاطاتها، والفئة المستهدفة بها.

خاتمة واستنتاجات:

لقد تبين من خلال هذا العرض المفعم بالحقائق الشرعية والدينية الصحيحة والمعطيات التاريخية الدقيقة أن الاحتفال بعيد العرش المجيد هو تعبير عن الفرح بالقيام بالواجب الديني الذي هو تجديد البيعة لأمر المؤمنين القائم في الأمة المغربية بأمر الله تعالى. وإن عقد البيعة لينعكس دوما على الاستقرار الروحي والتماسك الاجتماعي للمغاربة بصورة إيجابية، مما شكل الاستثناء المغربي الإيجابي القائم على الثوابت الدينية المشتركة من العقيدة الأشعرية، والمذهب المالكي، والتصوف السني للإمام الجنيد، وإمارة المؤمنين الضامن الأساس والحاضن القوي الذي يعد شرطا ضروريا في ضمان التعامل مع القضايا الوطنية والدولية بحكمة وتبصر وذكاء.

1. نصوص البيعات تلزم الحكام المبايعين في المغرب بضرورة حماية الوطن من كل الأخطار المحدقة به؛ بل يضمن ذلك على أنه شرط في التزام الرعية ببيعته؛ وإلا كانت في حل من أمرها إن فرط في جزء من بلده ووطنه. وفي هذا السياق، نستحضر ما أشار له العلماء من أن خلع السلطان جائز إذا أخل بمقتضيات عقد البيعة، والتي من أهمها عدم التفريط في بلاد الإسلام. ومن أجل ذلك، أفتى العلماء بجواز خلع السلطان مولاي عبد العزيز وبيعة مولاي عبد الحفيظ، مؤكدين في شروط عقد بيعته على ضرورة التزام السلطان بالدفاع عن البلاد أمام التدخل الأجنبي، الشيء الذي لم يستطع القيام به السلطان المخلوع. العلامة ابن عبد الله السليمان في كتابه اللسان العرب عن تهافت الأجنبي حول المغرب، ص: 150.

2. محمد عبد الحكي الكتاني. التراتيب الإدارية، تحقيق: عبد الله الخالدي، دار الأرقم، الطبعة الثانية، 1/ 222. نقلا عن ابن الجوزي.

بالإضافة إلى أن المغرب يتوفر بفضل حنكة أمير المؤمنين وما حباه الله من حكمة وعبقورية على جملة من المؤسسات التي تعتبر مجالا خصبا، وفضاء رحبا للعلماء المغاربة المشهود لهم بالكفاءة العلمية والمناقب الحسنة، وتوفر شرط العدالة والأمانة والصدق في تحمل الدين وتبليغه للناس نيابة عن أمير المؤمنين، وتوحيد مصدر الفتوى في الشأن العام، جعل المغاربة يعيشون في اطمئنان، مما جعلهم يلتفتون حول القضايا الدينية والوطنية المركزية لصدورها تحت رعاية جلالة الملك باعتباره أميرا للمؤمنين، الشيء الذي قطع دابر الخلاف في كثير من الأحيان، وقطع الطريق على أولئك الذين ليسوا أهلا لتصدر مجالس الإفتاء لكونها مهمة دينية عظيمة لا يتولاها إلا الأثبات من العلماء.

ولذلك، فإن الاحتفال بعيد العرش المجيد؛ إنما هو احتفاء بالجهود المتواصلة والإصلاحات المرتبطة بالشأن الديني في المغرب في عهد جلالة الملك محمد السادس، والتي أعطت بُعدا عمليا وعالميا لهذا الشأن بالمغرب. لقد أسست هذه الإصلاحات على هدى من الله ورضوان، حيث روعي فيها مبادئ وخصوصيات الإسلام الوسطي المعتدل، الذي أصبح نموذجا يُحتذى به خارج المغرب، نظرا لما اجتمع فيه من عناصر التدين، والانفتاح على مظاهر التحضر.

ولهذا، بات من الواضح أن المغرب قد نجح في اختياره باعتباره مكسبا حضاريا، في محيط إقليمي ودولي تمزقه الصراعات السياسية والدينية والتجاذبات الاقتصادية، والحروب الثقافية والحضارية والقيمية؛ وذلك من خلال المقاربات المعتمدة في التعاطي المغربي مع قضايا الدين الإسلامي الحنيف، يُشكل في حد ذاته مدرسة للاعتدال والانفتاح، وأنموذجا للاستيعاب الإيجابي والنموذج الحضاري.

عيد العرش المجيد عيد الأمل والتجديد

● ذ. سيدي محمد محي الدين

رئيس المجلس العلمي المحلي لطانطان.

يعتبر عيد العرش بالمغرب مناسبة وطنية يحتفل بها المغاربة ابتداء من 30 يوليوز من كل سنة. يتخلل هذه المناسبة عدة احتفالات رسمية وشعبية، وهي ذكرى تربيع أمير المؤمنين جلالة الملك محمد السادس على العرش وبيعته الرسمية. ولهذه المناسبة الوطنية الكبيرة عدة مظاهر، كأنشطة رسمية وتقاليد عريقة منبثقة من الذاكرة الوطنية للمملكة المغربية الشريفة، وأول إحياء لهذه المناسبة كان في سنة 1934 م يوم تخليد الذكرى السابعة لجلوس الملك الراحل محمد بن يوسف على العرش.

من ذاك الوقت أصبح الاحتفال بعيد العرش يكتسي صبغة رسمية، إذ صدر قرار وزاري بتاريخ 16 رجب 1353 هـ الموافق لـ 26 أكتوبر 1934 م بعد أن أشر عليه المقيم الفرنسي آنذاك هنري بونسوت، ونشر ذلك القرار في الجريدة الرسمية يوم 2 فبراير 1934 م، وكان القرار موجها من عدة بنود، أهمها أن يقدم باشا كل مدينة من المدن المغربية بتنظيم الأفراح والحفلات، وتزيين المدن، وتوزيع الألبسة والأطعمة على نزلاء الجمعيات الخيرية...¹

في عيد العرش يوم 18 نونبر 1952 م ألقى المغفور له محمد الخامس خطابا ساميا بالقصر الملكي بالرباط اعتبره المواطنون شرارة اندلاع ثورة الملك والشعب.

ولما عاد السلطان محمد الخامس هو وأسرته من منفاه عام 1955 م، أصبح يوم عيد العرش واحدا من الأعياد الثلاثة: عيد العودة يوم 16 نونبر، وعيد الانبعاث وهو يوم 17 نونبر، وعيد العرش وهو يوم 18 نونبر.²

1 - عيد العرش عيد الأمل...، لعبد الحق المريني.

2 - عيد العرش عيد الأمل...، لعبد الحق المريني.

مظاهر ذكرى العرش المجيد

أولاً: الخطاب السامي، ويسمى خطاب العرش.

يكون يوم 30 يوليوز، حيث يقوم أمير المؤمنين جلالة الملك محمد السادس بتلاوة خطاب ملكي يوجه إلى الأمة عبر الإذاعة والتلفزيون، ويقدم من خلاله جرداً للأحوال الوطنية والإنجازات والمشاريع المحدثة، ويتخلل الخطاب عدة أوامر ملكية ورؤية للمستقبل.. والسياسة الخارجية للمملكة حسب ما يشير إليه الدستور الذي صادق عليه المغاربة سنة 2011م في الفصل 52 منه، وفيه؛ "للملك أن يخاطب الأمة والبرلمان"، وبهذا يكون خطاب العرش ملزماً للأمة والسلطات.¹

ثانياً: حفل استقبال، وهو مظهر من مظاهر المناسبة الوطنية.

وهو حفل يقوم فيه الملك بتقليد الشخصيات الوطنية والأجنبية بأوسمة ملكية رفيعة عربوناً على مجهوداتهم وخدمتهم للمغرب، ويمكن أن نقسم هذه الأوسمة إلى:

1. وسام العرش من الدرجة الممتازة، وسام الحصانة الكبرى، ويكون فقط لرؤساء الدول.
2. وسام العرش من الدرجة الثانية قائد.
3. وسام العرش من الدرجة الثالثة ضابط.
4. وسام العرش من الدرجة الرابعة فارس.²

ثالثاً: حفل استقبال، وهو كذلك مظهر من مظاهر الذكرى.

هذا الحفل أو الإفطار إن تزامنت المناسبة مع شهر رمضان، يدعى له كبار رجالات الدولة والسفراء الأجانب المعتمدون بالمغرب وبعض الشخصيات الأجنبية والثقافية والاقتصادية...

رابعاً: حفل أداء القسم.

هذه الفقرة من فقرات الاحتفال تكون للضباط المتخرجين من المدارس العليا العسكرية وشبه العسكرية يوم 31 يوليوز، ويخاطب الملك الأفواج المتخرجة، وبعد الخطاب يؤدي الضباط القسم أمام جلالة الملك نصره الله بصفته القائد الأعلى ورئيس أركان الحرب العامة للقوات المسلحة الملكية... بعدها يستشرف الملك التحية العسكرية وشارات المدارس الوطنية والعسكرية وشبه العسكرية. ويختتم هذا الحفل بترقية الضباط الساميين، وفي الغالب يترأس الأمير مولاي رشيد مأدبة العشاء في نادي الضباط احتفاءً بهذا الحفل، والذي هو جزء من احتفالات عيد العرش المجيد.

1 - نفس المرجع.

2 - نظام الأوسمة المنصوص عليه في الفصل 15 من ظهير رقم 1.002.18 لسنة 2000م.

خامسا: حفل الولاء والبيعة¹.

هذا الحفل يتم يوم 31 يوليوز غالبا، حيث يترأس جلالة الملك أعزه الله، وهو في زي تقليدي ممتطيا جوادا عربيا أصيلا، من خلفه وعلى جنباته الحشم والحراس.

هذا الحفل تقليد متوارث من لدن السلطان أحمد المنصور الذهبي.

فمع مجموعة من الفرسان وعربة العرش.. يخرج الملك المفدى من القصر العامر... وتكون الوفود المشاركة في الوفاء والبيعة مصطفة حسب ترتيب محدد لتأدية تحية الولاء وليس الركوع الذي يتوهم البعض. هذه الوفود المشاركة في حفل الولاء، لتقديم واجب البيعة حسب الجهات والولايات للمملكة.

إن ذكرى ثلاثين يوليوز من كل سنة تأتي لتسلط الضوء على أواصر المحبة القوية، وتعلق الشعب المغربي الراسخ والمتين بجلالة الملك محمد السادس، رمز الأمة وموحدتها، وباعث نهضة المغرب الحديث الذي تمكن بفضل حنكة وتبصر وسداد رؤية جلالته، وتجنّد أبناء هذا الوطن الأبي من شق طريق التقدم والازدهار بكل عزم وثبات.

إن المغاربة وهم يخلدون هذه الذكرى المجيدة والحافلة بالدلالات الوطنية، والحمولات التاريخية والحضارية الوازنة، ليجددون تأكيدهم على متانة البيعة الشرعية من خلال استحضار بعدها الديني القائم على التعاليم السديدة للدين الإسلامي الحنيف. والمغاربة وهم يحافظون على هذه الرابطة الدينية والحضارية بين الراعي والرعية يحيون ما كان عليه سلفهم من صحابة رسول الله ﷺ في تفانيهم لحبهم وتعلقهم به، من خلال نظام البيعة الخالدة، يقول الله عز وجل: (لقد رضي الله عن المؤمنين إذا يبايعونك تحت الشجرة)²، ويقول سبحانه - حاملا إياهم على المحافظة على هذه الأمانة، أمانة البيعة -: (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله، يد الله فوق أيديهم، فمن نكث فإنما ينكث على نفسه، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسنؤتيه أجرا عظيما)³، ويقول ﷺ محذرا من الاستخفاف بأمر البيعة: (من خلع يدا من طاعة لقي الله يوم القيامة ولا حجة له، ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية)⁴.

إن المغاربة بتخليد هذا العيد الوطني المجيد جريا على العادات والتقاليد العريقة للمملكة في غمرة الاحتفالات بهذه الذكرى الوطنية العظيمة التي تؤرخ اعتلاء أمير المؤمنين الملك محمد السادس أعزه الله عرش أسلافه المنعمين يوم 30 يوليوز 1999م، يسترجعون من خلال هذا كله أهم النضالات والملاحم الجهادية الخالدة التي خاضها كل من جده وأبيه عليهما رحمة الله ورضوانه، جنبا إلى جنب

1 - نظام البيعة نظام يشهد شرعية من نصوص الإسلام.

2 - سورة الفتح، الآية 18.

3 - سورة الفتح، الآية 10.

4 - رواه الإمام مسلم، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

مع الشعب المغربي، تمهيدا لقيام صرح مغرب الحرية والانفتاح والتقدم على جميع الأصعدة، وعلى كل المستويات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

لقد حاول الاستعمار الذي جثم على المغرب لأزيد من أربعة عقود، تسخير كافة الوسائل، وتوظيف جميع الأساليب المتاحة للمساس بالوحدة الوطنية، والنيل من الرباط المتين الذي يوحد المغرب قمة وقاعدة، مستهدفا من خلال ذلك طمس معالم أصرة قوية، جسدت رابطة البيعة، وتشبث الشعب المغربي بعرش سلاطينه. وضدا على هذه المساعي، ما كان من الشعب المغربي إلا أن يبرهن للعالم بأسره على تعلقه الدائم، وحبه الشامل لوطنه وملكه، مبديا استعداداته القوي واللامشروط لخوض أشد المعارك، وتحطّي أعنى الصعاب، ذودا عن ثوابته ومقدساته، وصونا لكرامته النابعة عن إباءه وأصالته...

وهذا ما أشار إليه المغفور له الملك الراحل الحسن الثاني في خطابه بمناسبة الذكرى 19 لثورة الملك والشعب سنة 1963م، واصفا هذه العلاقة المتينة بالرابطة التي نسجت للتاريخ خيوطها بعواطف المحبة المشتركة والأهداف الموحدة التي قامت دائما على تقوى من الله ورضوان.

أما البيعة، فلقد جسدت على تاريخ المملكة المغربية الرابطة المتينة والصلة الراسخة، التي ما فتئت تجمع الملك بوصفه أميرا للمؤمنين بشعبه الذي يعتبر بمثابة قائد الأمة، ورمز الوحدة والسيادة الوطنية بجميع تجلياتها... وتجسد هذه الأصرة دلالات ومعاني شتى، تحيل في المقام الأول على كونه ضامنا لاستقرار وأمن المملكة الشريفة، من خلال تجسيد الوحدة الوطنية، وسلطة القانون، واستتباب الأمن بما يتيح جعل البلاد واحة آمنة وسط منطقة محفوفة بمختلف مظاهر النزاع والاضطراب وعدم الاستقرار، قال الله تعالى: (أولم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخضب الناس من حولهم)¹.

من جهة أخرى يعبر ولاء الشعب لملكه عن إجماع واضح حول تشبث المغاربة بالوحدة الترابية للمملكة، ورغبتهم في صون حرمتها والدفاع عن حماها، اعتبارا لكون الملك رمزا للوحدة، والتكامل والاستقرار، والتماسك الاجتماعي والترابط بين مختلف مناطق البلاد.

إن حرص شيوخ القبائل ومثلي مختلف المناطق بالمملكة على تجديد بيعتهم لجلالة الملك مع حلول ذكرى عيد العرش المجيد من كل سنة، ليعد دليلا واضحا على تشبثهم بجلالته، واستعدادهم للتجند وراءه خوضا لمختلف التحديات التي تواجهها المملكة. وهذا ما يشكله حفل الولاء الذي أشرت إليه سابقا، والذي يتوج الاحتفالات المخلدة لذكرى تربع صاحب الجلالة أعزه الله على عرش أسلافه الميامين. حيث يحضر ممثلو الجهات الاثني عشر للمملكة، أصالة عن أنفسهم ونيابة عن مواطني جهاتهم

1 - سورة العنكبوت، الآية 67.

لتجديد تعلقهم بشخص جلالة الملك وبأهداب العرش العلوي المجيد، وللتأكيد على تجديد الصلة التي تجمع العرش بالشعب، والتي ستظل متجذرة في عمق تاريخ البلاد، وأنها شكلت على الدوام الأساس المتين للأمة المغربية، والتعبير الأسمى على مدى تلاحمها واستمراريتها.

وهذا الذي بين العرش والشعب في بلاد المغرب الأقصى يعتبر ميثاقا قائما على ركائز دينية متينة تستمد ثوابتها من الدين الإسلامي الحنيف، وهو يجسد الاستمرارية بكل ما تحمله الكلمة من معنى، إذ إن تواصل الحكم الرشيد والثبات على النهج القويم يعد مفتاح الاستقرار والرفق والازدهار.

من ثم وفي ضوء هذه المعطيات والحقائق، يحق للمغاربة الاعتزاز بهذه الرابطة المتينة التي ما فتئت شعلتها تنقد وتكبر في العهد الزاهر لإمامنا المعظم وسلطاننا الإمام، أمير المؤمنين صاحب الجلالة الملك محمد السادس أيده الله ونصره، الذي تمكن بفضل الله ثم بفضل رؤيته المثمرة وقيادته الرشيدة من جعل المغرب منارة ساطعة مضيئة بإشعاعها وتألقها في مختلف أرجاء المعمور. ومع حلول كل ذكرى عيد العرش، يقف الشعب المغربي وقفة إجلال وإكبار لصاحب الجلالة الملك محمد السادس حفظه الله، مستحضرا التحولات الإيجابية المشهودة، والإنجازات الجبارة الناجحة التي حققتها المملكة في فترة حكمه أعزه الله. ولم يكن لذلك أن يتحقق من دون أصرة قوية بين العرش والشعب تجسدها رابطة البيعة. هذه البيعة التي تعتبر تقليدا ثابتا وراسخا وأساسيا، لا يمكن الاستغناء عنه في تثبيت الحقوق والواجبات بين الحاكم والمحكوم، من أجل تحقيق العدل والإنصاف والأمن والأمان.

إن نظام الحكم بالمغرب القائم على البيعة الشرعية والذي يستمد مشروعيته من نصوص القرآن الكريم، ومن نصوص السنة الشريفة، ومن سيرة رسول الله ﷺ وسيرة أصحابه، يجعل المغرب قوة صامدة في وجه كل التحديات وكل المؤامرات، قوة صامدة يحسب لها ألف حساب.

وبما أن البيعة ميثاق ديني وسياسي بين الإمام والأمة، فهي بمثابة أداة لتعميق الشعور الوطني في نفوس المواطنين بضرورة التلاحم بين العرش والشعب.

ولا عجب أن نجد ونلاحظ دائما وأبدا التفاف الشعب المغربي الوفي على عرش سلطانه في كل الأوقات، دفاعا عن الكرامة الوطنية، وصيانة للوحدة الترابية، وحماية للمقدسات والثوابت. وبفضل هذا التعلق المتين وهذا الترابط المكين الذي أنتجته البيعة الشرعية المؤسسة لإمارة المؤمنين، ظل العرش العلوي رمزا لوحدة البلاد وضامنا للأمن والأمان والاستقرار. وهذا التلاحم بين العرش والشعب يعتبر ظاهرة دينية وحضارية وتاريخية، تجسد أسمى معاني التكامل والتلاحم والتناصر والحب والوفاء والإخلاص بين السلطان والأمة.

وفي عهد أمير المؤمنين الملك محمد السادس أعزه الله تضاعف هذا التلاحم وهذا التناصر، وهذا التكامل وهذا الحب، وهذا الوفاء وهذا الإخلاص بينه وبين شعبه. فالمغرب في عهده الزاهر يشهد تحولا إيجابيا على كل المستويات، ونجاحات متتالية على كل الأصعدة.

إن مما لا شك فيه أن حلول ذكرى عيد العرش المجيد التي تتجدد كل سنة، يعتبر فرصة غالية لكل مواطن من أبناء الشعب المغربي الوفي، تنتقل به الذاكرة إلى تاريخ العرش العلوي العتيق، إلى أصالته وقيمه وعراقته الممتدة على أزيد من اثني عشر قرنا، حتى عد أقدم عرش في التاريخ الإسلامي.

ومن يتأمل مليا في مغزى هذه الذكرى يجد أنها مليئة بالمعاني والدلالات التي تهدف إلى ترسيخ المفاهيم ومقومات التجديد والاستمرارية، وفتح أبواب الأمل من أجل تحقيق الطموحات والغايات. ولما كانت ذكرى الاحتفال بعيد العرش المجيد تكتسي دائما طابعا متميزا، ومظهرا من مظاهر المسرة والابتهاج، فإن المغاربة توارثوا معها التفاؤل والإخلاص والوفاء.

إن العرش العلوي الشريف بالنسبة للشعب المغربي يعتبر صمام أمن وأمان، ولذلك فإن الاحتفال بهذه الذكرى يعتبر فرصة للتعبير القوي عن العواطف الجياشة التي يكتنزها صدر كل مغربي حر وفخور بوطنه، اعتزازا بملكه ومجد نهضته ومحقق آماله. ومن دلائل اليمن وحسن الطالع أن عهد أمير المؤمنين جلالة الملك محمد السادس حفظه الله حافل بالمنجزات وأعمال النماء والعطاء والتجديد.

وقد برهن أبناء الشعب المغربي الوفي في كل المناسبات الوطنية على التفافهم حول عرش ملكهم، وعلى تعلقهم بأهدابه، وتضامنهم مع عاهلهم في كل الأوقات... وعقد الأمل والرجاء فيما ينشده من إصلاحات كبرى وتنمية تهم الوطن والمواطن.

قال حفظه الله وأرضاه في إحدى خطابه السامية: «إننا نطمح إلى أن يسير المغرب في عهدنا قدما على طريق التطور والحدثة في خضم الألفية الثالثة، مسلحا بنظرة تتطلع لآفاق المستقبل، في تعايش مع الغير، وتفاهم مع الآخر، محافظا على خصوصيته وهويته دون انكماش على الذات، في إطار أصالة متجددة، وفي ظل معاصرة ملتزمة بقيمنا المقدسة»¹.

إنها بحق رؤية توفيقية بين المهمتين اللتين تضطلع بهما إمارة المؤمنين الدينية والدنيوية، وهي رؤية تتوخى من بداياتها الحفاظ على الثوابت والمقومات الأصيلة للهوية الوطنية والدينية، كما ترمي إلى تكريس الانفتاح على الآفاق الخارجية، والتطلع إلى التواصل والتعاون مع الآخر.²

حفظ الله مولانا الإمام، وأبقاه ذخرا دائما للوطن وللمواطنين، وكل مناسبة دينية ووطنية، والمغرب قيادة وشعبا ووطنا بألف خير.

1 - مقتطف من أول خطاب العرش لجلالة الملك محمد السادس حفظه الله.

2 - مجلة دعوة الحق، عدد 353.

شعر المديح في الاحتفاء بالعرش العلوي المجيد الشاعر أبو بكر المريني أنموذجا

● ذ. عزيز بويغف

الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين - ورززات.

اتسم المديح السلطاني في الشعر المغربي الحديث بعدة ميزات وخصائص جعلت منه سجلا لمفاخر الدولة المغربية، وقد عكس هذا الشعر، فضلا عن الجانب الفني والجمالي، جوانب في الاحتفاء بالعرش العلوي المجيد، وما ارتبط به من ملاحم الوحدة والاستقلال، والانفتاح على قضايا الأمة المصيرية، لذلك تجاوز المديح هنا مساحة رصد شمائل المدوحين، إلى شحذ الغرائم والإشادة بتضحيات ملوك الدولة العلوية، وشرفاء الوطن، في سبيل العزة والتمكين والكرامة والعدالة الاجتماعية.

لقد ظل شعر المديح وفيها لهذه القيم والمبادئ النبيلة، وتميز في مجمله بميزات الصدق الفني والعاطفة الجياشة التي كانت تتقد في وجدان الشعراء الوطنيين، الذين لم يكن شعرهم شعر إعجاب ببطولات السلاطين العلويين وكفى، وإنما اتخذوه وسيلة لنصرة الحق والدفاع عن العرش والوطن، لذلك لم تنفصل قصائدهم المديحية عن موضوعات النضال والمقاومة في الشعر العربي الحديث.

وتحضرنا في هذا الصدد تجربة الشاعر المغربي أبو بكر المريني (1939م / 1980م)، الشاعر الغزير العطاء في الكثير من الموضوعات والأغراض المطروقة، المجسّد لقضايا المرحلة التي عاصرها وكان لسان حالها، ونسجل أن جلّ الدراسات التي حاولت مقارنة الشعر المغربي الحديث لم تلتفت إلى تجربة هذا الشاعر الوطني، ولم تتعمق في استكشاف خصائصها على ثرائها. لقد جعل الشاعر أبو بكر المريني من المديح السلطاني ومن مفاخره محطة للنضال الوطني وللإشادة بملاحم الجهاد الأكبر الذي شهده الوطن على يد المغفور له الملك محمد الخامس، وبعده وارث سره آنذاك المرحوم الحسن الثاني طيب الله ثراهما، فكان همّ القصيدة عنده الاحتفاء بمظاهر التشييد والبناء والتنمية، والإشادة بتحرير بقية الأجزاء المغتصبة وضمها إلى حضن الوطن، وترسيخ قواعد التوافق والعدالة الاجتماعية بالبلاد، ونبذ

الانغلاق والتطرف والاستئثار بالقرار، وهي قيم حافظ عليها الملك محمد السادس نصره الله، فخر الملوك العلويين والمقتدي بمنهجهم.

لقد آمن أبو بكر المريني بالذات والحدث والوطن، فجاءت تجربته جماعاً لهذه الموضوعات الخصبية التي وسمت المنجز الشعري المغربي الحديث بسمات الأصالة والجدة، وكان يجعل من المناسبات الدينية والأعياد الوطنية في شعره نافذة لمدائحه التي رام عبرها التعبير عن تجربته الإبداعية التي امتزجت فيها الذات بإحساسات مفعمة بالوطنية والنضال، والإخلاص لقضايا الأمة وانشغالها.

وسنحاول من خلال هذا البحث تسليط الضوء على نماذج تمثيلية من منجز الشاعر عبر فيها عن مفهومه للمديح، وهي نماذج نظمها الشاعر في إطار الاحتفال بمناسبات دينية ووطنية، ونخص بالذكر منها عيد العرش المجيد.

2- المديح عند أبي بكر المريني

أ- من الاحتفاء بالذات والحدث إلى الاحتفاء بالوطن

إن المقصود بالمديح السلطاني عند المغاربة، هو ذكر مفاخر قائد البلاد، وضامن وحدتها، والساھر على أمنها وسيادتها، وهذا النمط من الشعر غالباً ما يرتبط بمناسبة من المناسبات، أو بعيد من الأعياد الدينية كعيد الفطر وعيد الأضحى وذكرى المولد النبوي، أو الوطنية كعيد العرش، وذكرى المسيرة الخضراء، وعيد الاستقلال، وثورة الملك والشعب وغيرها من الملاحم. ولقد كان الشعراء يتخذون هذه الأعياد مناسبات لنظم الشعر والاحتفاء بالوطن، وكان عيد العرش على سبيل المثال "في الأول تظاهرة وطنية، ثم صار بعد ذلك موسماً أدبياً تنجز فيه أعمال أدبية رائعة. فمن مقالات في تاريخ الدولة المغربية، وعظمة العرش المغربي، إلى خطب في تمجيد الوطنية، وجمع المواطنين على خدمة الأهداف المقدسة التي ترمي إليها، إلى قصائد في مدح الجالس على العرش والتنويه بمشاريعه الإصلاحية، لاسيما في التعليم والنهوض بالفتاة المغربية وإنعاش الاقتصاد المغربي"¹. إن هؤلاء الشعراء هم صوت الأمة المغربية ولسان حالها، لذلك لطالما عبّروا في قصائدهم عن مدى تمسكهم بمقدساتهم الدينية والوطنية، وكانوا فعلاً صلة الوصل بين العرش والشعب، إذ كان شعرهم تجديداً للوفاء والإخلاص للعرش العلوي المجيد.

هذا وتعد تجربة الشاعر أبي بكر المريني واحدة من التجارب التي انفتحت على قضايا الأمة وهمومها وانشغالاتها، فأتى فيها المديح ثرا غزيراً، موسوماً بقيم ومبادئ نبيلة، عمل العرش العلوي على صيانتها والدود عنها، كما عملت الحركة الوطنية أيضاً على إذكائها في نفوس المغاربة الذين قدّموا تضحيات عظيمة، خطّوا بها صفحات مشرقة من تاريخ النضال الوطني والكفاح في سبيل العزة والسؤدد والمجد.

1 - عبد الله كنون، أحاديث عن الأدب المغربي الحديث، القاهرة مصر، ط. 1، 1964م، ص. 80.

لقد خلق الشاعر عالمه الخاص، وكان يحاول في قصائده المزج بين المدح والانتصار لتواشج العرش والشعب.

يقول في قصيدة "قل مغربي أنا تعلو بك الرتب" مادحا المغفور له الحسن الثاني:

والقائدُ الحسنُ المغوار مُعتَصِم	بالله والعروة الوثقى كما يجبُ
يمشي ونورُ الهدى نبراسُ خطوته	والله ينصره لا المال والحطْبُ
وعرشه الحب منسوجٌ بأفئدة	وتأجبه العدل لا الياقوتُ والذهبُ
يبني لأُمته الأجمـادَ في ثقة	فليس يلحقها شعب ولو يثبُ
خاض المعامعَ في عزِّ الشبابِ فيها	بته الطواغيتُ والأهوال والنُّوبُ
ولم يكن بطلا يدنو إلى لقب	وإنما حارَ في أوصافه اللقبُ ¹

إن الشاعر في هذا المقطع من القصيدة يرصع الثناء بالمدح، ويشيد بخصال الملك الحسن الثاني رحمه الله وبشأئله، فيصف تمسكه بالعروة الوثقى، واهتدائه بنور الله، فالله ينصره ويؤازره ويسدد خطاه، لأنه رمز الوفاء والمجد، ولأن أمته تؤمن أنه قائدها ورمز وحدتها في زمن الرخاء، وأيضا في زمن الشدة. إن الشاعر يكشف في الوقت نفسه عن ذاك التلاحم القوي بين الأمة المغربية المجاهدة المقاومة والعرش العلوي المجيد الخالد، ذلك أن هذا العرش هو رمز تقدم الأمة وازدهارها.

وفي قصيدة "الله ولّاك" من نفس الديوان يقول الشاعر:

يا خالدا في قلوب الشعب قاطبةً	بادِ عَـلّاك وهَـاج بك الأثرُ
أرسيّت في كل قلب صرح مملكةٍ	من المحبّة تعيا دُونها الصورُ
وكيف لا وبيوت الله ترفـعُها	في كل أرض وللخيرات تبتدرُ
والأرض فجّرتها فانساب كوثرها	يُغني وفوّاح بها الزهرُ
هذي سجايك في الدنيا تعطرّها	وكل نادٍ بها زاهٍ ومفتخرُ
وليس في الأرض إلا مدح منهجكم	وقد تغنى به الرواة والوثرُ
قالوا من الرائدُ المقدامُ قلت لهم	هذا المفدى به الإسلام يفتخرُ

1 - أبو بكر المريني، ديوان "شعب الخلود أنا"، مخطوط بخزانة الأستاذ الدكتور مصطفى الشليخ، الرباط، ص. 22.

هذا حفيدُ رسول الله نَعْرِفُهُ وإنه لِبِأمرِ الله يَأْتِمُرُ
 هذا الذي حرر الصحرا بمعجزة سل عنه يَأْتِيكَ من أعدائه الحَبْرُ
 العزم ديدنه، والحزم صهـوته واللّين شيمته، والعفو والحذرُ
 والدينُ حجته، والقسطُ ضالته والصدق منطقة، والخير منهمرُ
 آراؤه حكم، أفكاره غُررُ أفعاله عبر، أقواله دُررُ¹

إن هذه الأبيات ترسم ملحمة تاريخية وحضارية لأمة امتدت جذورها في عمق التاريخ، ملحمة أساسها تعلق الشاعر بعاهله تعلقا متينا راسخا، جعله يحبه حبا عظيما لا يساوره شك، ولعل مرد ذلك إلى أخلاق الممدوح التي تقوم على الوفاء والإخلاص والعزم والصدق، وهي أخلاق تزدد سموا ورسوخا في كل مناسبة يظهر فيها الملك.

إن الملك هو مجسد قيم الأمة ومبادئها السامية، وهذه القيم والأخلاق النبيلة هي التي جعلت سلطان الدولة العلوية سلطانا خالدا، إنه خلود تاريخي حضاري يتجدد في كل لحظة، ويتم تشييد معالمه باستمرار عبر التلاحم الحاصل منذ الأزل بين العرش والشعب، العرش بعبقريته وحسن تدبيره، والشعب بوفائه وكفاحه من أجل صون الوطن ومقدساته. إن من "حسن حظ الشعر - في هذه المرحلة - أنه وجد في حركة التحرير الوطني الآفاق الرحبة التي كان ينشدها، والمتنفس الذي أمدّه بالحياة، وساعده على أن يجدد نفسه، ويتغلب على عوامل الفناء التي كانت تهدده، وهكذا أتيح له أن ينفض عنه غبار الخمول، ويلعب دوره في المعركة التي خاضها الشعب والعرش، ويواكب مسيرة النضال التي التزم أن يعبئ نفسه من أجل إنجاحها، بعد أن ظل ردحا من الزمن في حالة استرخاء تشبه اليأس في ظل المناخ السياسي الذي كان يخنق الأنفاس. وانتفض رافضا أن يختار موقف المتفرج على ما يدور حوله في الساحة من أحداث، وأن يظل متفوقا حابسا نفسه في برجه الوهمي كأن شيئا مما يقيم هذا الوطن ويقعده لا يعنيه، ورأى الدرب أمامه طويلا فبدأ نشيدا وأهازيج تغذي روح الشعب وتلهب حماسه يتغنى بها في أعياده ويسمر بها في أفراحه ولياليه، ويسمع بها المحتلون فيدركون أن رحيلهم قريب، وأن الغضب آت وغير بعيد"².

لقد جعل الشاعر من كل المناسبات الوطنية والدينية محطة فارقة يعبر فيها عن مدى تشبته العميق بأهداب العرش العلوي الشريف، ومدى تقديره وتبجيله لقائد الأمة باني المغرب الحديث، المغفور له الحسن الثاني طيب الله ثراه، وفي هذا الصدد يقول بمناسبة ذكرى المسيرة الخضراء المظفرة:

1 المصدر نفسه، ص 12.

2 - محمد الحلوي، الشعر في مواكبة العرش، مجلة دعوة الحق، مارس 1983 م، ص 89.

وقائدي الحسنُ الثاني الأمينُ على أمني وديني، شريفُ النفس والنسبِ
أعظمُهم به قائدًا، أكرمُهم به نسبًا أكبرُهم بطلاً يسمو على الرُتبِ¹

لقد تكشفت عبقرية الممدوح في هذه الأبيات من خلال رصد الشاعر لمعالم المسيرة الخضراء المظفرة التي وحدث البلاد، وربطت شمال الوطن بجنوبه. إنها إحدى الملاحم الوطنية التي بينت حكمة السلطان وسداد بصيرته، وهو القائد الهام الضامن للأمن الروحي للمغاربة قاطبة، لأنه سليل آل البيت الشرفاء الكرام.

إن التعبير بضمير المتكلم هنا، يعد من الصيغ العميقة في التعبير والتي تمكن الشاعر من إيصال الأفكار إلى المتلقي، وبالتالي تبليغ الرسالة الشعرية التي تقوم على الإمتاع أولاً ثم الإقناع ثانياً، فهذه الصيغة تجعل الشاعر بطبيعة الحال يمارس لعبته الإيحائية بحقيقته هو، وحقيقة خطابه الشعري الذي هو كلام الذات، فتكون الغاية من ضمير المتكلم تقريب التعبير من النطق، والإيحاء إلى مباشرته لأجل الوصول إلى وجدان المتلقي.

ولم يفت الشاعر أيضاً استحضار تضحيات أب الأمة المغفور له الملك محمد الخامس طيب الله ثراه في سبيل الاستقلال والعزة والكرامة، ولذلك مدحه في قصيدة "الثورة الكبرى" بمناسبة ذكرى ثورة الملك والشعب، يقول:

وقاد ثورتنا عرشُ تربعه محمدٌ أحمديُّ النور والخللِ
لم يرتض العيش في ذلٍّ وفي رغد ضدان لا يرتضيها سوى الخملِ
وآثر النفي على أن يخونَ همى الأحرارِ فانفجر البركان بالبدلِ

...

والشعب للحسن الثاني يفوض أمـره ويسمو بفضلـه عن الزللِ
ويمسك الأرض نبله وحكمته وعـدله وجهاده مع الرسلِ
ويجعل المغرب الحديث ملحمةً فردوسها أغنياتُ المجد والجدلِ²

إن الشاعر وهو يجمع في هذه الأبيات بين مدح الملك محمد الخامس طيب الله ثراه، والمغفور له الملك الحسن الثاني رحمه الله، يحاول أن يربط الماضي بالحاضر ويؤكد استمرارية العرش العلوي في البناء

1 - ديوان شعب الخلود أنا، مصدر سابق، ص 25.

2 - المصدر نفسه، ص 27.

والتشديد، وسير ملوكه على نهج أسلافهم الميامين، وهو نهج قوامه النبل والحكمة والعدل والجهاد، وإذكاء روح الوطنية الصادقة بين الجماهير في شتى ربوع الوطن.

لقد كان مرام الشاعر في هذه المقاطع، إبراز مدى جسامة التضحيات التي قدمها العرش في سبيل الانعتاق من نير الظلم والقهر، فالمرحوم الملك محمد الخامس أثر النفي على أن يقبل حياة الذل والمهانة، فهو إذن مثال حي للإيثار والتضحية ونكران الذات في سبيل بناء وطن حر أبي، لقد حرر الوطن وترك استكمال مسيرة البناء والتشديد خلفه آنذاك المغفور له الحسن الثاني. إن المقطع الثاني في القصيدة يشير من جديد إلى التحام العرش بالشعب، ذلك أن الشعب فوّض أمره لله أولاً، ثم لقائده الهمام رمز الحكمة والثورة المجيدة، وباني المغرب الحديث، ومؤسس ملاحمه الخالدة، حتى يأخذ بيده ويصل به إلى شط الأمان.

وفي قصيدة أخرى بعنوان "صورتان للثورة" من ديوان "ألا فاشهدي يا فاس"، يقول الشاعر:

ثورة العلم والنماء يقود الـ	حسن الثاني جيلها اليوم نائراً
ثورة البعث والجهاد لها قمـ	نا وجرح الحنيفة اليوم غائراً
فلتبارك يا رب كل خطي مو	لاي سبط الرسول أول نائراً ¹

إن الشاعر في هذا المقطع يربط معالم البناء والتشديد بشخصية الممدوح/ السلطان، وهو السلطان الذي اتخذ العدل والحلم والصفح أساساً للملكة ودعامة لحكمه، إنه ملجأ السائل، ومنبع الخير والعتاء، كيف لا وقد اجتمعت فيه كل الخصال الحميدة، والمثل العليا. لقد وعى الممدوح أن مسيرة البناء لا يمكن أن تتوقف فقط بدحر الاستعمار، ولكن الثورة يجب أن تستمر من خلال بناء الوطن، وضخ دماء جديدة في أوصاله، كل ذلك في تآزر تام بين قيادة حكيمة، وشعب وفي أبي مناضل. لقد استطاع الشاعر المغربي المادح أن يجعل من شعره "شعراً اجتماعياً يعبر عن عاطفة شعبية وفكرة قومية، ويمارس تجربة الأدباء أصحاب المبادئ والأفكار أكثر مما يمارسها الشعراء المداحون وطلاب المنافع والجوائز. وكان مما يتضمنه هذا الشعر الإشادة بمواقف الملك من النهضة وتشجيع الحركة الوطنية، وما قطعه المغرب في أيامه من مراحل نحو التقدم والازدهار في جميع الميادين، وبذلك يكون سجلاً من سجلات التاريخ القومي والنهضة الحديثة، لاسيما وقد كان طابع هذا الشعر الصدق الذي تتفاعل معه العواطف مع الواقع، فيجسم التأثير الذي تحدثه مبادرات الملك وأعماله في نفوس الأفراد والجماعات من مختلف طبقات

1 - أبو بكر المريني، ديوان "ألا فاشهدي يا فاس"، مخطوط بخزانة الأستاذ الدكتور مصطفى الشليح، الرباط، ص. 3.

الشعب بدون أن يكون مغاليا في ذلك، ولا مجاملا كما هو المعهود في أمداح الملوك وشعر المناسبات¹.
لقد كانت الاحتفالات بأعياد الكفاح والنضال تعم شتى ربوع الوطن، وكانت الجماهير تحتشد لتعبر عن وفائها وإخلاصها للقيم النبيلة التي وجدت عليها الأجداد، كانت تؤمن بأن سبيل النهضة والبناء والتشييد لا يكون إلا بالتشبث بمبادئ الثورة والانبعاث والتجدد، ولذلك كانت تخرج عن بكرة أبيها لاستقبال ملهمها وقائدها الذي كان يجوب ربوع الوطن ليجدد اللقاء بشعبه، وليرسم صفحات مشرقة من تاريخ الأمة الحديث، وهذا ما حاول الشاعر التعبير عنه من خلال قصيدة عنوانها «مولاي أعلنت الجهاد»، يقول:

تيهي أيا فاس على الزمان بالـ	حسن الثاني ابن الرسول أحمد
بالثائر المـجاهد المتفاني	بالرائد المظـفر المؤيد
عناية الرحمن تمشي حوله	ترعاه من كيد العدا والحسد
العرش عنده حماية الحمى	والتاج عنده أن يبلغ الشعب السهاد ²

لقد كان الممدوح/ الملك يتفقد حال الشعب، ويقف على همومه وانشغالاته، ويحاول أن يتقرب منه ليطلع على أحواله عن قرب، فكانت زيارته لشتى ربوع الوطن كثيرة، خاصة مدينة فاس التي كانت وما تزال منبع الحضارة المغربية، ورمز العلم والعرفان، ومهد الثقافة والفكر، لقد كانت المدينة تتزين وتلبس أحلى حلة لاستقبال أب الأمة السلطان المجاهد المؤيد بنصر الله، المشمول بعنايته، المتفاني في الذود عن حماه، وخدمة شعبه بكل تفان وإخلاص.

وفي قصيدة أخرى بعنوان «لك المجد يسعى طائعا»، يواصل الشاعر الإشادة بخصال الممدوح وشيئله، فهو رمز اليُمن والسعد والبركات، يسعى إليه المجد والسؤدد من كل جانب، ثم يشير إلى التلاحم الوثيق بين العرش والشعب، إذ كلما حل السلطان بمدينة من المدن إلا واستقبلته الجموع بالفرح والتفاؤل، فقدومه مقدم الخير والعطاء والنوال. إن الشاعر يوجز خصال الممدوح/ الملك في الحزم والإخلاص والجود والعدل والإنصاف، يقول:

فيا ابن الهدى وابن النهى وابن طيب	لك المجد يسعى طائعا وهو كامل
وأهل المدينتين قد جئت فأسهم	فكل بكم مستبشر متفائل

1 - عبد الله كنون، أحاديث عن الأدب المغربي الحديث، مرجع سابق، ص: 152/153.
2 - من قصيدة «مولاي أعلنت الجهاد»، ديوان «ألا فاشهدي يا فاس»، مصدر سابق، ص: 6.

وشعري يقدم التهانني لآلنا
فإن تسألوني عن فضائله أقل:
وفي الحق لا يخشى ملامة لائم
هو العدل والإنصاف إن جار باطل

...

فمرحى لفاس الفضائل كلها
ويا خير حاكم يقيم عدالة
هنئاً لكم بالمجد والعيد والعلأ
ومرعى لأهلها بمن هو فاضل
لأنت الذي تهفو إليك الشائل
هنئاً لبحر الجود ما له ساحل¹

إن الإشارة إلى أهل فاس في القصيدة، هو إشارة إلى كل الشعب المغربي المتعلق بملكه الهام. إن الشاعر وهو ينظم القصائد يؤكد على عمق التجربة الشعرية، وعمق الإحساس. إن الشاعر لسان حال الجماعة، يصوغ أحاسيسها في قالب جمالي، إنه صلة الوصل بين الأمة المغربية وملكها المتفاني في خدمة الشعب وتحقيق أمانيه. لقد تلاحم البعد الجمالي في القصيدة مع تجربة الشاعر حيث إن المتلقي يحس أمامها «بسحر التوحد وروعة الالتحام، فكل عنصر في العمل يؤدي دوره بنسبة لا تعلق ولا تنخفض بجانب العناصر الأخرى، فالمرء يؤخذ في القصيدة مثلاً بسحر الحرف والصوت، وبسحر الكلمة وروعة الإيقاع وسحر شفافية الرمز.. هكذا في نفس اللحظة، من غير أن يشعر بنشاز لدور عنصر من العناصر»².

وفي سياق الاستمرار في تمجيد فضائل الممدوح وذكر خصاله وشيئله، يقول الشاعر في قصيدة «سبحان من ولاك فينا خليفة»:

على يدك الفتح المين تحقّق
حملت لواء النصر في ساحة الوغى
أحييت للإسلام عزّ شبابيه
وأيدك الرحمن جلّ جلاله
ومن يدك الخير العميم تدفّق
فجاءك نصر الله فتحاً محققاً
وقد فُتح الباب الذي كان مغلقاً
فوحّدت صفّاً كان قبل مُفرقاً
وَاللّٰهُمَّ لِلّٰهِ رَامَ الْعُـلَا وَتَعَشَّقَا

1 - المصدر نفسه، من قصيدة "لك المجد يسعى طائعا"، ص 8-9.

2 - أحمد الطريسي أعراب، الرؤية والفن في الشعر العربي الحديث، المؤسسة الحديثة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، 1987م، ص 42.

وأجرى على لسانك الحكمة التي
ألبسك الطهر الذي فيك ثورة
وأكسبك الجود الحميد فضيلة
فأنت أمير المؤمنين وفرع دو
وأنت حكيم الحاكمين وخيرهم
فسبحان من ولاك فينا خليفة
هنيئاً بعيد التاج يا خير رائد
ودم سيدي للشعب للدين للحمى

تسوس بها شعباً عريقاً تفوقاً
فزدت تألقاً وزدنا تشوقاً
فأنفقت مال الله الله بالتقوى
حمة المصطفى أكرم بجدك مرتقى
مقاماً وأنت من إذا قال طبّقاً
فكنت لنا أباً أبر وأرفقاً
تربع عرشاً في القلوب تألقاً
عزيزاً مفدى فالنماء تحقّقاً¹

إن الممدوح في رؤية الشاعر هو إنسان لا يختلف عن باقي البشر، فهو من لحم ودم كما كل الناس، إلا أنه في الآن نفسه يتميز عن باقي الناس، بكونه إنساناً مثالياً يمتلك مقومات تجعله يقود الأمة ويرشدها ويأخذ بيدها، إنه يستمد شرعية سلطانه أولاً من نسبه الشريف، فهو سليل آل البيت، ثم من دهائه وعبقريته التي تشكلت بما اكتسبه من معارف وعلوم، كل هذا أهله ليقود مسيرة الوحدة والبناء والتشيد، لينطلق من الجهاد الأصغر المتمثل في مقاومة الاستعمار وتحقيق الاستقلال، إلى الجهاد الأكبر الذي كان البناء ومحاربة الجهل والأمية، وتحقيق العيش الكريم للناس أحد غاياته وأهدافه المنشودة.

وفي قصيدة «أنعم به عيداً» ينهي الشاعر القصيدة بمدح المغفور له الحسن الثاني يقول:

وعيدُ أمير المؤمنين مخلصاً
يدوي صدها من أعالي المناير²

تربعه عرشاً عظيم المآثر

إن الإشارة إلى الخلود في البيت هو إشارة إلى استمرارية البناء والنماء، فالخلود هنا رمز للشرعية، شرعية الحكم المستمدة من النسب الشريف أولاً، ثم من حب الشعب والتحامه بأهداب العرش العلوي المجيد ثانياً. إن ارتباط العلويين بدينهم الحنيف ونسبهم لآل البيت جعلهم يؤسسون حضارة انتشر صدها في كل الأرجاء عبر التاريخ.

1 - من قصيدة «سبحان من ولاك فينا خليفة»، ديوان «ألا فاشهدي يا فاس، مصدر سابق، ص: 11 / 12.

2 - المصدر نفسه، ص 13.

يقول الشاعر في قصيدة «سلام على جند الله»:

علينا أمير المؤمنين مؤيد	من الله والتأييد كان له نصرا
يسير بنور الله في كل خطوة	مباركة إننا نطيع له الأمر
به كم يفيض الخير في ربعنا وكم	نفيض له جبا ونحن به أدرى
وما حسن إلا محاسن فعله	تجول كسحب في السما تمطر الخيرا
وما حسن إلا مواقف عزة	وبذل وذكر في الدنيا ينشر العظرا
ومن كان من آل الرسول محمد	يكن قمرا يهدي الوري أو يكن بدرا
فيا حسن الخير احتمى بك شعبنا	فكنت الحمى نعم الحمى وكفى فخرا ¹

لقد توسل الشاعر بعناصر الطبيعة ليصف الممدوح/ السلطان وليشيد بأياده البيضاء على الناس (السحب، السماء، العطر، قمرا..)، كما توسل أيضا بعناصر المبالغة ليعلي من شأنه، ثم ليرز مدى تشبث الشعب به، فهو القدوة في الجد والحزم والصدق، وهو منبع الخير والعطاء. إن الشاعر حين يشبه فعال الممدوح بالسحب التي تمطر الخير، يحاول أن يوازي بين صورتين، صورة ممدوح يهب بلا حدود، وصورة سماء ملبدة بالغيوم تجود بالغيث النافع. أكثر من ذلك إن الشاعر يتجاوز صورة السحب ليصل إلى تشبيه الممدوح بالقمر الذي يهدي الناس ويخرجهم من غياهب الظلمات إلى النور، كل هذه الخصال يستمدّها الممدوح من نسبه الشريف وحرصه على خدمة الناس والأخذ بيد المحتاجين.

والملاحظ أن الشاعر استثمر أيضا مستوى التكرار في القصيدة، وهو يشير إلى الممدوح باسمه في أكثر من مناسبة (وما حسن، فيا حسن)، وهو بذلك يؤكد على تميزه وفرادته، ذلك أنه النموذج والمثال والقدوة بالنسبة لشعبه، إنه حسن الخير الذي احتمى به الشعب، فهو الملاذ والحمى والفخر.

لم يقتصر المديح السلطاني عند الشاعر أبي بكر المريني فقط على مدح المغفور له الحسن الثاني طيب الله ثراه، ولكنه كان يتفاعل أيضا مع أعياد الأسرة العلوية المجيدة، ومع مناسبات النجاح والزفاف، ففي قصيدة «هنيئا بالنجاح» يمدح الشاعر ولي العهد آنذاك الأمير الجليل سيدي محمد بمناسبة نجاحه، كما يمدح أيضا الأميرة الجليلة لالة حسناء، قبل أن يختم القصيدة بمدح المغفور له الحسن الثاني، يقول:

يا أخي في درب النجاح هنيئا	وهنيئا بفرحة الآباء
وهنيئا لسيدي بنجاح	ولولاتي مريم الحسناء

1 - المصدر نفسه، ص: 15.

سَعِدَ الشعب بالنجاح فمرحى لولي العهد والأصدقاء
كيف لا وهو ابن خير مليك وإمام، وسيّد العظماء
وأبٍ بَارٍّ، فاضلٍ وحنونٍ وكريمٍ يسمو على الكرماء
يا أمير البلاد فاهناً بفوزٍ إنما الفوز مطمح الأذكياء¹

إن الشاعر يؤكد من جديد على التلاحم بين العرش والشعب، فنجاح ولي العهد ونجاح الأميرة لالة حسناء هو من نجاح الشعب قاطبة، ثم ينتقل الشاعر ليؤكد على أن هذا النجاح هو بفضل أب حنون، بار بأبنائه وشعبه، أب فاضل كريم جمع كل الخصال الحميدة.

لقد عرفت «قصائد العرشيات في عهد الاستقلال قفزة مهمة وفائقة، فقد اتسع أفق القول عند الشعراء، وأصبحت دواعي التسابق إلى المشاركة في هذه المحافل الأدبية - محافل تخليد ذكرى عيد العرش المجيد - كثيرة ومتنوعة ومشجعة على تفجير قرائح الشعر بسيول من القصائد الرنانة، خاصة وأن مجالات إلقاء وإسماع هذه القصائد أصبحت متنوعة ومتعددة، إذ لم تعد مقتصرة على التجمعات الشعبية المحدودة التي كانت تقام في أماكن ضيقة، خاضعة للحصول على ترخيص خاص من سلطات الحماية، بل صارت هذه الاحتفالات تقام في كل حي، وصارت التظاهرات الثقافية، المواكبة والموازية لهذه الاحتفالات الشعبية تقام في مختلف الأندية، وفي المؤسسات التعليمية، وصارت وسائل الإعلام المختلفة - من إذاعة وتلفزة وصحف ومجلات - تتنافس وتتسابق في جلب الشعراء وتقديم قصائدهم على قنواتها وأمواجها وصفحاتها»².

وفي إشارة أخرى عميقة إلى تماهي الشعب مع العرش في أفراحه، يصدق الشاعر بقصيدة جميلة بمناسبة زفاف إحدى الأميرات، يقول:

زغردي يا نساء فاليوم عيد عرس مولاتي والعريس سعيد
أشرق النور في البلاط بهياً وتلأل فيه الصبّاح الجديد
وشذا العندليب أحلى الأغاني أطرب الكون والصدى التغريد
وتغنّت بلابل بقصيدي ساحر اللحن كله تمجيد
عبقت أبهاء البلاط بمسكٍ وبُخورٍ وعنبرٍ لا يبيد

1 - المصدر نفسه، ص 18 / 19.

2 - محمد خليل، عيد العرش العلوي المجيد في الشعر المغربي الحديث، دعوة الحق، عدد 368، جمادى 1، 1423هـ / يوليو 2002م، ص: 25.

وارتدت حُلَّةً ابتهجاجٍ وعيدٍ كيفَ لا والعُرسُ المُقامُ مجيدٌ
كُلُّ ما في الطبيعة اليومَ زاهٍ والعذارى في رقصهنَّ تَمِيدُ¹

لقد توسل الشاعر من جديد بالطبيعة وعوالمها اللامتناهية ليصور لنا الفرح الذي يعيشه الشعب بهذه المناسبة الغالية، فالبلابل تشدو أحلى الألحان، وأرجاء البلاط تفوح برائحة المسك والعنبر. إن القصيدة هنا تأخذ منحى رومانسيا من خلال استئثار الشاعر لعناصر الطبيعة ليعبر عما يحالجه من أحاسيس، فالطبيعة هي ملجأ الشاعر هنا، ومنها يستمد عناصر الصورة الشعرية، ليتعمق في المعنى وليجعله قريبا من المتلقي.

هذا ولم يقتصر الشاعر في مديحه السلطاني على السلاطين المغاربة، بل إنه مدح أيضا بعض ملوك وأمراء الخليج وعلى رأسهم الشيخ زايد بن سلطان أمير الإمارات، يقول:

أهلاً بزَائد بن سُلطان أخِ العَرَبِ أهلاً وسهلاً بَكُم في مغرب العَرَبِ
أهلاً أميرَ الإماراتِ التي اتَّحدتْ في عهدكم يا عزيزَ الاسمِ والنسبِ
أهلاً بشيخِ أبي ظبي وسيدِها من ذِكره كالشذى في الناس والكتُبِ
طُوبَى لأرضٍ بها حَلَّتْ بشائركم فاليُمنُ في أهلها يَبْقَى مَدَى الحَقَبِ
المجدُ يسعى إليكم في مواكبهِ يُعلي سموكم في أرفعِ الرُتَبِ²

وظف الشاعر إذن منجزه لإمالة اللثام عن خصال وشمائل ممدوحه من الأمراء والسلاطين، فترك لنا سيلا من القصائد وقفنا عندها وحاولنا استنباط أبرز مضامينها.

إن الشاعر كان لا يفرغ إلى مدح السلطان إلا بعد أن يكون في الغالب قد مدح الرسول ﷺ، إنه وهو يصحح بخصال النبي وشمائله يبتغي الربط بين هذا الأخير باعتباره القدوة والمثال، وبين الممدوح/ السلطان باعتباره الفرع الطيب لذاك الأصل، يجمعهم النسب الشريف والتقوى والورع، فالثاني خليفة الأول في الأرض والسائر على خطاه، والتمسك بسنته. لقد انتصبت "المناسبات الدينية والمهرجانات الوطنية في هذه الفترة منابر للشعر الوطني الذي كان يستغل هذه المناسبات لتغذية المشاعر والدعوة إلى الالتحام حول رمز وحدة البلاد وسيادتها. وعندما يلتقي الشعور الديني بالروح الوطنية يتولد منهما مزيج ليعلن انبعاث أمة كانت في رحم التاريخ أمة وأراد لها المحتل أن تبقى له ذيلا وتبيعا"³.

1 - من قصيدة "عرس مولاتي"، المصدر نفسه، ص: 20.

2 - المصدر نفسه، ص: 23.

3 - الشعر في مواكبة العرش، محمد الحلوي، مجلة دعوة الحق، مرجع سابق، ص: 90.

وعموما يمكن أن نقول إن القصائد التي اشتغلنا عليها، لا تخرج عن خصال اتصف بها الممدوح/ السلطان وتفرّد بها وهي:

أ- حسن التدبر في الأمور ورجاحة الرأي والعقل، فالسلطان الحسن الثاني طيب الله ثراه، حباه الله عز وجل بالعلم الغزير النافع، فكان يجلب العلماء ويعتني بهم ويقربهم إلى مجالسه، وكان يسوس شؤون البلاد والعباد بحكمة وتبصر، لقد كان كل همه التشييد والبناء والرفع من شأن الوطن.

ب- الشهامة وعزة النفس التي كانت ميزة يتصف بها الممدوح/ السلطان دون غيره، فكان يتفقد أحوال الرعية، مستفسرا ناصحا، وفي تفقده لأحوال العباد حزم وعزم وإقدام.

ج- تحليه بقيم العدل والإنصاف، وصيانة حقوق المظلومين، والحكم بالقسط، ثم اتصافه أيضا بالجوّد والكرم ودمائة الأخلاق وحسن الطوية والعفة، جريا على عادة أسلافه الميامين.

إن هذه المحاور الثلاثة، التي جعلها الشاعر أبو بكر المريني مرتكزا لمدح المغفور له الملك محمد الخامس، ثم ولي العهد آنذاك جلالة الملك الحسن، وباقي أفراد الدولة العلوية الشريفة، تعبر بصدق على مدى ارتباط الشعب المغربي بالعرش العلوي المجيد.

لقد أماطت قصائد المديح عند أبي بكر المريني اللثام عن رؤية الشاعر لقضايا عصره من خلال رؤية عميقة تجاوزت مسألة النقل السطحي لهذه القضايا، فصاغتها صياغة شعرية سجلت محطات زاهية ومعبرة عن إصرار الأمة المغربية على النهوض بقيادة ملوك الدولة العلوية الشريفة.



البيعة في الإسلام نظام أمن وأمان

• ذ. إبراهيم بن أحمد الوافي.

رئيس المجلس العلمي المحلي لإزكان أيت ملول.

لما كانت الشريعة الإسلامية قد اعتنت بتنظيم كافة مجالات الحياة، ومن بينها اجتماع السلطتين الدينية والدنيوية بمقتضى عقد البيعة وإمارة المؤمنين، في شخص الخليفة أو الإمام، واتخاذه رمزا لطاعة الأنام، امتثالاً لما جاء في القرآن الكريم وفي السنة النبوية المطهرة؛ فقد قال سبحانه: (أيعسب الإنسان أن يترك سدى)¹ وقال جل ذكره: (أفحسبتم أنما خلغناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون)²؛

وإذا كانت الإرادة الإلهية قد حكمت بتمتع الإنسان بالاستقرار على الأرض إلى حين، لقوله تعالى: (فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه، وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين)³، وأن يقوم بعمارتها بما يتطلبه ذلك من السعي والتعامل والتواصل وإسعاد نفسه وغيره، لقوله سبحانه: (والى ثموم أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من الله غير له هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروا له ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب)⁴، وقوله: (هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور)⁵؛ فإن هذه الأهداف والغايات لا تتحقق إلا بأن تناط قلادة الخلافة بالإنسان، وهو ما ورد في كتاب الله: (وإذ قال ربنا للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة، قالوا أتجعل فيها من يعبد فيها ويسجد للكماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك، قال إني أعلم ما لا تعلمون)⁶؛

فهذه المقاصد وغيرها روعيت من قبل الشرع الحكيم في جعل البيعة واجبا شرعيا؛ لأن الإنسان لم يخلق عبثاً، ولم يترك في حياته سدى وهملاً، لا يؤمر ولا ينهى، ولا يجزى على ما ارتكب واكتسب؛ فخلقه وإيجاده وإمداده واستخلافه في الأرض، له أهداف وغايات، من أجلها عبادة الله تعالى وحده وعدم

1 - سورة القيامة، الآية: 35.

2 - سورة المومنون، الآية: 116.

3 - البقرة، الآية: 35.

4 - هود، الآية: 60.

5 - الملك، الآية: 16.

6 - البقرة، الآية: 29.

الإشراك به، وإعمار الأرض والانتفاع بخيراتها بكافة الأوجه الشرعية المهيئة للانتفاع وعدم الضياع، والسهر على تطبيق شرع الله في كل شيء، وفق منهجه الحكيم المسطر للإنسان، الذي لا ظلم فيه ولا جور، ولا منكر ولا غش ولا خذلان؛ وإنما الخضوع لوازع الإيمان والاثمان على ما كلف الله تعالى به رسوله، حينما أسند إليه مهمة تدبير الشأن العام بأخلاق القرآن، وعلى رأسها العدل، والرفقة، والرحمة، والحرص على المصلحة، واللين، والعفو، والتشاور في الأمر؛ وغير ذلك مما نص عليه الذكر الحكيم، ومنه قوله تعالى: (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم، حريص عليكم، بالمؤمنين رؤوف رحيم)¹، وقوله جل في علاه: (بما رحمة من الله لنت لهم، ولو كنت فضا غليظ القلب لا نبضوا من حولي، فاعب عنهم واستغبر لهم وشاورهم في الأمر، فإذا عزمت فتوكل على الله، إن الله يحب المتوكلين)²، وقوله سبحانه: (يا أيها الذين آمنوا كونوا فوامين لله شهداء بالفسح، ولا يجرمنكم شأن قوم على ألا تعملوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى، واتقوا الله إن الله خير بما تعملون)³.

وقد استوجب تكليفه ﷺ بالإمامة العظمى، تكليف رعيته بالطاعة والنصح والإخلاص، فاقضى ذلك أن يتلقى البيعة المؤكدة لذلك التكليف وذلك التعاقد، فكانت بيعة العقبة الأولى، وبيعة العقبة الثانية من الأنصار، وبيعة الرضوان من أصحابه الكرام مهاجرين وأنصار، وبيعات القبائل في عام الوفود، وبيعة النساء والولدان، وكل من وجبت له عليه البيعة، بحكم الاستخلاف الديني والديني، المنصوص عليه في قوله تعالى: (إن الذين يبايعوننا إنما يبايعون الله، يد الله فوق أيديهم، فمن نكث فإنما ينكث على نفسه، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسنؤتيه أجرا عظيما)⁴ وقوله جل وعلا: (لا تحسبن الذين كفروا معجزين في الأرض وما أولاهم النار وليس المصير)⁵.

وقد دلت تصرفات الصحابة رضي الله عنهم بعد موته ﷺ على استيعابهم أمر بيعة الإمام الأعظم، الوارث لسر الرسول ﷺ، بغض النظر عن كافة الحثيات التي يحلو للبعض أن يخوض فيها، وأنهم متفقون على صحة عقد البيعة، وعلى علم ودراية بشروطه ومشروعيته؛ ومجمعون على حجيته، وأن الإمام المجمع على بيعته وولايته، يقوم مقام رسول الله ﷺ في أمته؛ كيف وقد قال الإمام علي رضي الله عنه: «لما قبض النبي ﷺ نظرنا في أمرنا، فوجدنا النبي ﷺ قد قدم أبا بكر في الصلاة، فرضينا لدنيا منا من رضي رسول الله ﷺ لديننا، فقدّمنا أبا بكر»⁶.

1 - سورة التوبة، الآية: 129.

2 - سورة آل عمران، الآية: 159.

3 - سورة المائدة، الآية: 9.

4 - الفتح، الآية: 10.

5 - سورة النور، الآية: 55.

6 - الطبقات الكبرى لابن سعد، ط. دار صادر (3: 183).

الخليفة والإمام في القرآن:

الخلافة والإمامة كلاهما لفظ قرآني، وكلاهما يطلق على من يقتدى به، وكلاهما يكون بجعل الله؛ أي أن الله تعالى هو الذي يجعل مهمة الخلافة والإمامة حيث يشاء؛ انطلاقاً من قوله تعالى: (وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ مَا أَوتَيْتَ مِنْ قَبْلِهِ، وَلَوْ أَنَّا كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ الْغَايَةِ) (سورة القصص: 26-28). وقوله في الخلافة: (وَإِذَا قَالَ رَجُلٌ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً، قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)؟² وقوله: (يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْخَاسِرِينَ) (سورة البقرة: 35). وقوله سبحانه: (هُوَ الَّذِي يُبْرِئُ الْوَدَانَ مِنَ الْعَنَقِ وَصَدَادًا يُغِيثُ الْبَنَاتِ وَأَنْتَ الْخَالِقُ الْخَلْقِ كُلِّ شَيْءٍ أَمَّا عَيْنُكَ فَبِطِينٍ) (سورة النمل: 26). وقوله سبحانه: (وَالَّذِينَ يَبْتِغُونَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ يُضِلُّهُمَا سَبِيلَ اللَّهِ فَهُمْ فِي شَرِّ الْأَصْنَافِ) (سورة النمل: 20). وقوله سبحانه: (وَالَّذِينَ يَبْتِغُونَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ يُضِلُّهُمَا سَبِيلَ اللَّهِ فَهُمْ فِي شَرِّ الْأَصْنَافِ) (سورة النمل: 20). وقوله سبحانه: (وَالَّذِينَ يَبْتِغُونَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ يُضِلُّهُمَا سَبِيلَ اللَّهِ فَهُمْ فِي شَرِّ الْأَصْنَافِ) (سورة النمل: 20).

فإذا أخذنا دلالة لفظ الإمام في قوله تعالى: (وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ، قَالَ إِنَّ جَاعِلُنَا لِلنَّاسِ إِمَامًا)؛ نجد أن كلمة إمام في الآية تعني الرسول؛ والرسالة هي أكمل أنواع الإمامة، «والرسول أكمل أفراد هذا النوع؛ وإنما عدل عن التعبير بـ«رسولا» إلى «إماما»؛ ليكون ذلك دالا على أن رسالته تنفع الأمة المرسل إليها بطريق التبليغ، وتنفع غيرهم من الأمم بطريق الاقتداء...»⁹.

والملاحظ أن نظام البيعة بشقيه الديني والدنيوي هو أكثر ارتباطاً بقسم الضروري الذي من أهمه حفظ الدين والأرواح والأموال والأعراض.

1 - سورة الأنعام، الآية: 125.

2 - سورة البقرة، الآية: 29.

3 - سورة ص، الآية: 25.

4 - سورة فاطر، الآية: 39.

5 - سورة البقرة، الآية: 123.

6 - سورة الفرقان، الآية: 74.

7 - سورة الأنساء، الآية: 73.

8 - سورة القصص، الآية: 4.

9 - التحجير والتنوير (1: 704).

مفهوم البيعة:

البيعة من المصطلحات التي تتفق دلالتها اللغوية والشرعية، فهي في اللغة تلك الصفقة التي تحصل بضرب البائع يد المشتري، إعلانا على عقد البيع بينهما¹، وهو المعنى نفسه الذي تنصرف إليه دلالتها الشرعية من الناحية الحسية العملية، طبقا لما فعله الرسول صلى الله عليه وسلم حينما بسط يده الشريفة ليُبايعه صحابته الأجلاء فيما عرف ببيعة الرضوان على إثر صلح الحديبية عام ست من الهجرة، وهي البيعة التي كانت فاتحة خير على الإسلام والمسلمين، وبشارة بالفتح القريب الذي كان ﷺ ينتظره بفارغ الصبر؛ لأنه يعتبره هو الانتصار الحقيقي للإسلام، وهو المؤشر على قرب استكمال مهمته، وذلك بتحرير معقل التوحيد من الشرك، وإرجاع التوحيد إلى مآرزه الأصلي الذي انطلق منه لأول مرة على يد سيدنا إبراهيم الخليل، وهو بيت الله الحرام مكة المكرمة، وقد حصل ذلك بعد سنتين من بيعة الرضوان و صلح الحديبية؛ أي في السنة الثامنة للهجرة.

وفي طريق عودته ﷺ من حدث صلح الحديبية، الممهد لما بعده من الفتح الأعظم، أكرم الله تعالى رسوله وأمته بإنزال سورة الفتح عليه، وهي السورة التي كانت بردا وسلاما على قلبه الشريف ﷺ؛ لأنها نزلت في ظرف حرج، سرعان ما أدرك منه ﷺ أنه إشارة وبشارة بالنصر والفتح القريب الذي كان يؤمله، لاستكمال نجاح أمر الدعوة؛ ولذلك بادر إلى مناداة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليزف إليه هذا الخبر السار، قائلا: «لقد أنزلت علي سورة هي أحب إلي مما طلعت عليه الشمس، فقرأ: (إنا فتحنا لـم فتحنا مينا)²».

فكانت هذه السورة المباركة، مؤصلة لأمر جليل في حياة الإسلام والمسلمين، وهو الاحتكام لأوامر الله تعالى الصادرة عن أمير المؤمنين، طبقا للتعاقد بين الراعي والرعية، الذي تكفله البيعة الشرعية، وطبقا لأحكامها وشرائطها المتمثلة في قوله تعالى: (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله، يد الله فوق أيديهم... الآية)³، وفوله سبحانه: (لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة، فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا)⁴.

وبهذه الآيات الكريمات أتم الله النعمة على عبده ورسوله ﷺ، فجمع له بين السلطة الدينية والدنيوية، بعد أن كانت له الدينية وحدها، ومكنه مزيدا من العزة والمنعة، ونفاذ الكلمة ورهبة الجانب، وكانت نتائج ذلك فضلا كبيرا وخيرا عميما بالرخاء والأمن والأمان، وحصول الاستقرار والعمران،

1 - تهذيب اللغة لأبي منصور الأزهري، مادة: بيع.

2 - سورة الفتح، الآية: 1.

3 - الفتح، الآية: 10.

4 - نفسها، الآية: 18.

وسببا في ظهور أعدل وأنصف حضارة جمعت وقربت بين كافة بني الإنسان، تحت ظل الوحدة الشاملة، والمساواة الكاملة، التي لا فرق فيها بين الناس عربيههم وعجميههم إلا بالتقوى؛ لقوله تعالى: (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، إن الله عليم خبير)¹؛ وبذلك كانت الاستمرارية والخلود لدين الإسلام.

وإذا سلمنا بأن الشريعة الإسلامية السمحة، ما جاءت إلا على وفق أغراض العباد ومصالحهم²؛ فإن أمر البيعة الشرعية يعتبر من صميم هذا المقصد، وأنها ما شرعت إلا لحكمة ومصلحة راجعة إلى العباد، بإثبات حقوقهم وواجباتهم تفضلاً من الله تعالى؛ ولذلك قال تعالى مشيراً إلى بيعة الرضوان: (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، يقاتلون في سبيل الله، فيقتلون ويقتلون، وعداً عليه حفا في التوراة والإنجيل والفرآن، ومن أوفى عهداً من الله، فاستبشروا ببيعكم عند الله بايعتم به، وعلماً هو الفوز العظيم)³.

تطبيقات الصحابة للبيعة الشرعية:

وعلى هدي الرسول ﷺ سار الخلفاء الراشدون في شأن تطبيق روح عقد البيعة ومقصده، فقد أورد الحافظ ابن عبد البر رحمه الله في التمهيد عن أبي العقب قال: شهدت أبا بكر رضي الله عنه يبايع الناس بعد النبي ﷺ، فتجتمع عنده العصابة فيقول لهم: أتبايعون على السمع والطاعة لله ولكتابه ثم للأمر؟ فيقولون: نعم، قال: فتعلمت شرطه هذا، وأنا كالمحتلم أو فوقه، فلما خلا من عنده أتيته فابتدأته فقلت: أبايعك على السمع والطاعة لله ولكتابه ثم للأمر؟، فصعد في البصر وصوب ورأيته أعجبه⁴.

ولا يخفى على أهل العدل والإنصاف من أهل العلم ما كان لأبي بكر الصديق من أثر بالغ وحميد في تسطير خطة الخلافة والبيعة، وتحديد الحقوق والواجبات المترتبة على الراعي والرعية في عقد البيعة، وذلك من خلال خطبته الشهيرة التي حدد فيها المهام بكل دقة وإحكام، وهي صالحة اليوم لتكون عهداً يرفع كل الملام، ويحول دون الجور والشطط الحاصل بين الشعوب والحكام.

ولا سيما حين قال رضي الله عنه: ”أيها الناس إني قد وليت عليكم، ولست بخيركم، فإن ضعفت فقوموني، وإن أحسنت فأعينوني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، الضعيف فيكم القوي عندي حتى أزيح عليه حقه إن شاء الله، والقوي فيكم الضعيف عندي حتى آخذ منه الحق إن شاء الله، لا يدع قوم

1 - سورة الحجرات، الآية: 13.

2 - الموافقات (2 : 294).

3 - التوبة، الآية: 112. / معجم مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني مادة: باع.

4 - التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد: (16 : 353)، ط. 1 وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - المغرب، 1387هـ / 1967م.

الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالفقر، ولا ظهرت، أو قال: شاعت، الفاحشة في قوم إلا عممهم البلاء، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله¹.

البيعة في مصادر السنة:

وأما في مصادر السنة النبوية الشريفة المعتمدة؛ فإننا نجد الإمام مالكا رحمه الله يتطرق للبيعة في جامع موطنه، ويترجم لها بقوله: "ما جاء في البيعة"، ويسوق نص بيعة عبد الله بن عمر لعبد الملك بن مروان ونصها: "بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد، لعبد الله عبد الملك أمير المؤمنين سلام عليك؛ فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، وأقر لك بالسمع والطاعة، على سنة الله وسنة رسوله، فيما استطعت"²؛ قال ابن عبد البر: "في هذا الحديث دليل على أخذ البيعة للخلفاء على الرعية"³.

وابن عمر، ما فعل الذي فعل؛ إلا لأن أمر البيعة قد ارتبط في الشريعة بالاعتقاد، لقوله ﷺ فيما أخرجه مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ خَرَجَ مِنَ الطَّاعَةِ وَفَارَقَ الْجُمَاعَةَ فَمَاتَ، مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً، وَمَنْ قَاتَلَ تَحْتَ رَايَةٍ عُمِّيَّةٍ، يَغْضِبُ لِعَصْبَةٍ، أَوْ يَدْعُو إِلَى عَصْبَةٍ، أَوْ يَنْصُرُ عَصْبَةً فَقُتِلَ، فَقَتْلُهُ جَاهِلِيٌّ، وَمَنْ خَرَجَ عَلَى أُمَّتِي يَضْرِبُ بَرَّهَا وَفَاجِرَهَا وَلَا يَتَحَاشَى مِنْ مُؤْمِنِهَا، وَلَا يَفِي لِذِي عَهْدٍ عَهْدُهُ، فَلَيْسَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُ»⁴.

ونجد الإمام البخاري رحمه الله يعرض للتأصيل للبيعة في الكتاب الثالث والتسعين من جامعه الصحيح الذي سماه بكتاب الأحكام ونص ترجمة الباب الأول منه: باب قول الله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم، فإن تنازعتم في شئ، فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، فاعلموا خير وأحسن تأويلاً)⁵، وساق بسنده حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن أطاع أميري فقد أطاعني، ومن عصى أميري فقد عصاني»⁶.

وأعقبه بحديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «ألا كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، فالإمام الأعظم الذي على الناس راع، وهو مسؤول عن رعيته، والرجل راع على أهل بيته،

1 - المصنف للصنعاني (24: 148).

2 - الموطأ؛ كتاب الجامع، 70 - ما جاء في البيعة. ح. 2813.

3 - التمهيد: (16: 347).

4 - صحيح مسلم، ح. 4892.

5 - سورة النساء، الآية: 58.

6 - صحيح البخاري: كتاب الأحكام، الباب الأول، ح. 7137.

وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية على أهل بيت زوجها وولده، وهي مسؤولة عنهم، وعبد الرجل راع على مال سيده وهو مسؤول عنه، ألا فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»¹.

وعلق ابن حجر على تبويب البخاري قائلا: في هذا إشارة من المصنف إلى ترجيح القول الصائر إلى أن الآية نزلت في طاعة الأمراء، خلافا لمن قال نزلت في العلماء، وقد رجح ذلك أيضا الطبري.

قلت: وهو رأي شيخ مالك زيد بن أسلم الذي قال فيه ابن عيينة قرين مالك في الأخذ عنه: سألت زيد بن أسلم عنها ولم يكن بالمدينة أحد يفسر القرآن بعد محمد بن كعب مثله، فقال: اقرأ ما قبلها تعرف، فقرأت: (إن الله يامركم أن تؤمنوا بالآمانات إلى أهلها، وإنما حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل...) ² الآية: فقال هذه في الولاية³.

وفي الكتاب الرابع عشر من صحيح مسلم نقف على كتاب الإمارة والبيعة، وأول باب فيه بعنوان: اشتراط نسب قريش في الخلافة، وساق الإمام مسلم أول حديث فيه بسنده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الناس تبع لقريش في هذا الشأن، مسلمهم لمسلمهم، وكافرهم لكافرهم».

زاد الإمام مسلم في الرواية الأخرى: «تبع لقريش في الخير والشر»⁴، وقوله: «لا يزال هذا الأمر في قريش ما بغى من الناس أثنا»، وفي البخاري: «ما بغى منهم أثنا»؛ قال القاضي عياض: هذه الأحاديث وما في معناها في هذا الباب حجة أن الخلافة في قريش، وهو مذهب كافة المسلمين وجماعتهم، وبهذا احتج أبو بكر وعمر رضي الله عنهما على الأنصار يوم السقيفة، فلم يدفعه أحد عنه، وقد عدها الناس في مسائل الإجماع؛ إذ لم يؤثر عن أحد من السلف فيها خلاف قول ولا عملا قرنا بعد قرن إلا ذلك، وإنكار ما عدها، ولا اعتبار بقول النظام ومن وافقه من الخوارج وأهل البدع: إنها تصح في غير قريش، ولا بسخافة ضرار بن عمرو في قوله: إن غير القرشي من النبط وغيرهم يقدم على القرشي؛ لأنه إذا وجب خلعه يسهل ذلك؛ لأنه ليست له عشيرة تمنعه؛ قال عياض رحمه الله: «وهذا كله هزؤ من القول، ومخالفة لما عليه السلف وجماعة المسلمين»⁵.

وأما معنى قوله ﷺ: «الناس تبع لقريش، مسلمهم لمسلمهم، وكافرهم لكافرهم»، إشارة لقوله ﷺ في الرواية الأخرى: «في الخير والشر»؛ لأنهم كانوا في الجاهلية رؤساء العرب وأصحاب حرم الله وحج البيت، وكانت الجاهلية تنتظر إسلامهم واتباعهم النبي ﷺ.

1 - صحيح البخاري، ح. 7138.

2 - سورة النساء، الآية: 57.

3 - فتح الباري لابن حجر (13: 111).

4 - يقصد الحديث الذي يليه في مسلم عن جابر بن عبد الله: «الناس تبع لقريش في الخير والشر». ح. 1396.

5 - إكمال المعلم بفوائد مسلم للقاضي عياض السبتي (6: 214).

فلما أسلموا وفتحت مكة اتبعهم الناس، وجاءت وفود العرب من كل جهة، كذلك حكمهم في الإسلام في تقديمهم للخلافة، فنبه النبي ﷺ أنه كما كان كفار الناس تبعاً لقريش في الجاهلية في الخير والشر، كذلك يجب أن يتبع مسلمهم لمسلمهم، فيكون المقدم عليهم، وقد أشعر ﷺ أن هذا هو الحكم والحال ما بقيت الدنيا، وبقي من الناس أو من قريش اثنان، وقد ظهر ما قاله ﷺ.¹

وفيه جواز انعقاد الخلافة بالوجهين بالتقديم والعقد من المتولى، كفعل أبي بكر لعمر رضي الله عنهما، أو بعقد أهل الحل والعقد والاختيار كفعل الصحابة بعد النبي ﷺ، وهذا مما أجمع المسلمون عليه. وفيه أنه لا بد من إقامة خليفة، وهذا أيضاً مما أجمع المسلمون عليه بعد النبي ﷺ وفي سائر الأعصار، خلافاً للأمم، حتى ذهب بعض الناس إلى أن ذلك واجب عقلاً؛ إذ صلاح الناس في رجوع أمرهم إلى واحد يقيم أمورهم، وأن في تركهم فوضى مختلفي الآراء فساد دينهم ودنياهم، لا اختلاف الآراء وتضاد المقاصد، وهذا خطأ؛ إذ لا يوجب العقل شيئاً ولا يحسنه ولا يقبحه إلا بحكم العادة لا بالأمر القطعي.²

أثر البيعة الشرعية في وحدة الأمة:

قد رأينا بما لا يدع مجالاً للشك أن البيعة الشرعية تعتبر ركيزة من الركائز الأساسية التي جاءت بها الشريعة الإسلامية الغراء، لإقامة حياة عزيزة الجانب، موفورة الخير والبركات، ضامنة لحياة طيبة وعيش كريم، في ظل تطبيق بنود الدستور الإلهي في جميع مناحي الحياة، وإبراز واجب كل مسلم نحو نفسه وملته وأمته، ونحو وطنه ومجتمعه وأسرته، فهي مزية عظيمة من المزايا المتعددة التي يعتمد عليها ديننا الحنيف لجمع الشمل، وضمان الوحدة، والدفاع عن الحوزة والكيان، وقد تفتن أولوا الألباب من حكماء الإسلام وعلمائه وزعمائه منذ عهد مبكر إلى هذا الشأن، فاتجهوا صوب توفير ما يلزم له من الشروط الضرورية للمحافظة على القيام بما تستلزمه البيعة الشرعية، وخصوصاً بالدراسة والتفكير والضبط، ودونوا فيها كتباً عديدة، فكان لها أثرها على حفظ الأمن المادي والروحي، في ضوء التعاقد الشرعي الملزم للطرفين، وبموجبه يتم ضمان حقوق الراعي والرعية وفق قواعد الشرع المرعية.

والمغرب الأقصى، أفاض الله عليه النعم بلا عد ولا إحصاء، ظل من بين الدول الإسلامية والعربية القلائل، الأوفياء لمقدسات الإسلام ومبادئه السماوية السمحة الطاهرة، في كل جانب من حياته الدينية والسياسية والاجتماعية وغيرها، فحرص على تطوير مؤسساته الدستورية، وأولى عناية خاصة لمؤسسة إمارة المؤمنين، مسائرة لما تعرفه أوجه الحياة من تغيير على كافة الأصعدة.

ولا شك أن ما بُذل في هذا الجانب، وما عرفته البلاد من إصلاحات حقيقية في الآونة الأخيرة،

1 - الإكمال (6: 215).

2 - نفسه.

قد كان له كبير الوقع وبالف الأثر في تحصين البلاد والعباد، مما ظل محدقا بها من كيد الحساد، وأهل الزيف والأهواء والفساد، مما هو جدير بأن تعيه الأجيال الناهضة؛ وتذكر الأهداف الحقيقية لإمارة المؤمنين، وما تمثله من ضمان وحدة الدنيا والدين؛ وما تسعى إليه في ظل ما توفره من أمن وأمان من تحصين البلاد، واستكمال وحدتها الترابية باسترجاع ثغورها المستلبة من الاستعمار البغيض، بما يعود أثره على نصرة الإسلام والمسلمين، ووحدة الصف وجمع الكلمة، ولَمَّ الشمل، وحراسة الأمن الروحي والمادي للبلاد والعباد؛ وذلك مقصد هام من مقاصد الشريعة في إيجاب البيعة، وجعل طاعة أمير المؤمنين من فرائض الدين؛ أخرج الإمام مسلم في كتاب الإمارة من صحيحه عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن أطاع أميرى فقد أطاعني، ومن عصى أميرى فقد عصاني»¹.

ويكفي الحال أن يكون آخر ما خطب به رسول الله ﷺ ما أخرجه مسلم عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبيع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخوانا، المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يخذله، ولا يحقره، التقوى هاهنا»، (ويشير إلى صدره ثلاث مرات) وبحسب امرئٍ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام، دمه، وماله، وعرضه»².

وهكذا يتجلى لنا بأن البيعة الشرعية التي حافظ عليها المغاربة منذ عهد المولى إدريس رضي الله عنه، تعتبر نظاما دينيا ودنيويا، يرتبط بعقيدة المسلم ودينه من جهة، وبتوفير الأمن والأمان والطمأنينة وجمع كلمة الأمة، ولَمَّ شملها من جهة أخرى، وكفى بها من مزايا تتفرد الشريعة الإسلامية السمحة بتوفيرها لأتباعها، وبالله التوفيق.

1 - صحيح مسلم: 33 - كتاب الإمارة. 8 - باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية، وتحريمها في المعصية. ح. 33 - (1835).
2 - صحيح مسلم: 45 - كتاب البر والصلة والآداب، 10 - باب تحريم ظلم المسلم، وخذله، واحتقاره ودمه، وعرضه، وماله. ح. 32 (2564).

الوفاء بالبيعة وأثره في أمن الأمة واستقرارها

● ذ. حسن أكشاش

رئيس المجلس العلمي المحلي لإقليم الخميسات.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، وعلى آله وصحابه أجمعين، أما بعد فإن موضوع هذه المقالة هو: "الوفاء بالبيعة وأثره في أمن الأمة واستقرارها".

وقد قسمته إلى محاور أربعة وهي:

المحور الأول: مفهوم الوفاء بالبيعة.

المحور الثاني: وجوب بيعة الإمام.

المحور الثالث: وجوب الوفاء بالبيعة.

المحور الرابع: أثر الوفاء بالبيعة في أمن الأمة واستقرارها.

المحور الأول: مفهوم الوفاء بالبيعة.

الوفاء: إتمام العهد وإكمال الشرط. قال ابن فارس: «(وفى) الواو والفاء والحرف المعتل: كلمة تدل على إكمال وإتمام، ومنه الوفاء: إتمام العهد وإكمال الشرط»¹.

البيعة لغة: الصفقة على إيجاب البيع، والمعاقدة والمعاهدة. قال ابن منظور: «والبيعة: الصفقة على إيجاب البيع، وعلى المبايعة والطاعة. والبيعة: المبايعة والطاعة، وقد تبايعوا على الأمر: كقولك: أصفقوا عليه. وبايعه عليه مبايعة: عاهده، وبايعته من البيع والبيعة جميعا، والتبايع مثله. وفي الحديث أنه قال عليه الصلاة والسلام: (ألا تبايعوني على الإسلام؟)؛ هو عبارة عن المعاقدة والمعاهدة، كأن كل واحد منهما باع ما عنده من صاحبه، وأعطاه خالصته نفسه وطاعته ودخيلة أمره»².

وبهذا يكون الوفاء بالبيعة: إتمام العهد على الطاعة، أو إكمال الشرط على السمع والطاعة.

1 - مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، مادة (وفى).

2 - لسان العرب، ابن منظور، مادة (بيع).

المحور الثاني: وجوب بيعة الإمام.

الإنسان مدني بطبعه، فهو يعيش في جماعات، وحاجاته إنما تتحقق بمقتضى عيشه الجماعي، وخشية أن ينزع إلى تحصيل حاجاته وتحقيق رغباته بالظلم والبغي، وجب الاحتكام إلى شريعة منظمة، تعرف بها الحقوق الواجبات، والخير والشر، والعدل والظلم... وهو أمر لازم عن تنصيب سلطة يتحاكمون إليها عند الخلاف والمنازعة، وهو أمر حاصل ولا بد بحكم طبيعة النفوس البشرية وما يعرض عليها عند الاختلاط والاجتماع.

ولذلك يرى أهل السنة والجماعة أن نصب الإمام واجب شرعي، وبه ينتظم معاش الناس، ويحافظ على الكليات أو الضروريات الخمس، الدين والنفس والعقل والنسل والعرض والمال. وإذا كان الأمر كذلك، لزم أن يعاهد الناس إمامهم على السمع والطاعة، وهو ما يضمن الامتثال لحكمه وأمره الذي يقصد به تنزيل أحكام الشرع في حياة الناس طلبا لجلب مصالحهم ودفع المفساد عنهم، ومن ثم كانت بيعة الإمام واجبة، وهو ما تضافرت عليه الأدلة:

- قال تعالى: (وإذ قال ربنا للملائكة إنه جاعل في الأرض خليفة)¹. قال القرطبي رحمه الله في شرحه لهذه الآية: «... فيه سبع عشرة مسألة... الرابعة: هذه الآية أصل في نصب إمام وخليفة يسمع له ويطيع، لتجتمع عليه الكلمة، وتنفذ به أحكام الخليفة، ولا خلاف في وجوب ذلك بين الأمة ولا بين الأئمة إلا ما روي عن الأصم حيث كان عن الشريعة أصم، وكذلك كل من قال بقوله واتبعه على رأيه ومذهبه، قال: إنها غير واجبة في الدين بل يسوغ ذلك، وأن الأمة متى أقاموا صلحهم وجهادهم، وتناصفوا فيما بينهم، وبذلوا الحق من أنفسهم، وقسموا الغنائم والفيء والصدقات على أهلها، وأقاموا الحدود على من وجبت عليه، أجزأهم ذلك، ولا يجب عليهم أن ينصبوا إماما يتولى ذلك. ودليلنا قول الله تعالى: (إنه جاعل في الأرض خليفة)، وقوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستغلبنهم في الأرض كما استغلب الذين من قبلهم، وليمكن لهم لئلا يرتضوهم الكفار، وليكذبوا عنهم أمناء، يعبدون لا يشركون به شيئا)³؛ أي جاعلا منهم خلفاء، إلى غير ذلك من الآي»⁴.

- وعن معاوية رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية)⁵.

1 - سورة البقرة، من الآية 29.

2 - سورة ص، من الآية 25.

3 - سورة النور، الآية 53.

4 - الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي، المجلد الأول، (دار الحديث القاهرة)، ص 250 - 251.

5 - المعجم الكبير، للطبراني، ج 19، ص 334.

- وعن معاوية رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (من مات بغير إمام مات ميتة جاهلية)¹.
 - وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (من مات بغير إمام مات ميتة جاهلية، ومن نزع يدا من طاعة جاء يوم القيامة لا حجة له)².
 إن هذه النصوص دالة دلالة صريحة على وجوب بيعة المسلمين لإمام، طلبا لانتظام أمورهم، وإلا اضطرب عيشهم، وكانت أمورهم فوضى.
 وفي قوله ﷺ: (مات ميتة جاهلية)، وعيد شديد لمن امتنع عن البيعة أو شق عصا الطاعة، وهو يزيد تأكيدا في وجوب بيعة المسلمين لإمامهم.

المحور الثالث: وجوب الوفاء بالبيعة.

تقرر سابقا أن الوفاء بالبيعة هو إتمام العهد على الطاعة، وإتمام العهد وإكماله أو جبهته آيات في القرآن الكريم، قال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود)³، وقال سبحانه: (وأوفوا بعهد الله إننا عاهدكم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا، إن الله يعلم ما تفعلون)⁴، وقال عز وجل: (وأوفوا بالعقد إن العقد كان مسؤولا)⁵.

وأكدته أحاديث النبي ﷺ، مع الوعيد الشديد المترتب على عدم الوفاء بالبيعة، منها قوله ﷺ: (من خلع يدا من طاعة، لقي الله يوم القيامة لا حجة له)⁶.

إن الوفاء بالبيعة أمر واجب، والمسلم إذ يفي بالبيعة إنما يقصد بذلك التقرب إلى الله عز وجل، وذلك من جهتين:

الأولى: امتثاله لأمر الشرع، القاضي بوجوب بيعة الإمام.
 والثاني: وفاؤه بما عاهد عليه إمامه من السمع والطاعة في المنشط والمكره.

المحور الرابع: أثر الوفاء بالبيعة في أمن الأمة واستقرارها.

إن الوفاء بالبيعة بما هو إكمال للعهد بين الرعية والإمام، مفض إلى المحافظة على الضروريات الخمس: الدين والنفس والعقل والنسل (أو العرض) والمال. ومعلوم أنه متى تحققت المحافظة على هذه

1 - مسند الإمام أحمد بن حنبل، ج 28، ص 88.

2 - مسند أبي داود الطيالسي، ج 3، ص 425.

3 - سورة المائدة، الآية 1.

4 - سورة النحل، الآية 91.

5 - سورة الإسراء، الآية 34.

6 - صحيح مسلم، باب الأمر بلزوم الجماعة، حديث رقم: (1851).

الكليات، بصيانة عقائد المسلمين، وأمنهم الروحي، ودفع كل ما قد يشوش عليها، وحفظ أنفسهم بتوفير الأكل والشرب والملبس والسكن... عاش الناس الأمن والأمان، واستقرت أوضاعهم، وطاب معاشهم بما يضمن لهم الفوز في معادهم.

إن الناظر إلى حال الأمة المغربية ماضيها وحاضرها يجدها تنعم بالأمن والأمان والاستقرار، لحرصها الشديد على الوفاء بالبيعة لملوكها الشرفاء الحريصين على تحقيق مصالح الرعية.

والأمة المغربية بهذا الوعي المتين تواصل الوفاء بعهد البيعة لمولانا أمير المؤمنين جلالة الملك محمد السادس نصره الله تعالى، وهو ما يجعلها تنعم بالعيش الكريم، والاستقرار العظيم، ووفرة النعم والرخاء والحمد لله.

لقد أكرم الله المغاربة بالأسرة العلوية الشريفة التي تعتبر من سلالة العترة النبوية الشريفة لتسلم مقاليد الأمور بهذا البلد، وبايعها الشعب المغربي على الطاعة والولاء والنصرة والوفاء، فتبادل الشعب والعرش الحب بالحب، والوفاء بالوفاء، والولاء بالولاء، والإخلاص بالإخلاص، على غرار بيعة المهاجرين والأنصار لخاتم الرسل الكرام، سيدنا محمد ﷺ. والبيعة على هذا النمط عريقة في الأمة المغربية منذ دخول الأدارسة إلى المغرب، حيث استقل عن الخلافة العباسية.

وتجلت هذه المحبة المتبادلة في الوقوف صفا واحدا خلف الملوك العلويين عبر التاريخ، وخاصة أثناء فترة الحماية في فترات العديدة، من سنة 1912م إلى 1956م، نذكر منها ثورة الملك والشعب التي زلزلت الأرض تحت أقدام المستعمر، عندما قام بنفي رمز الأمة المغربية وقائد تحرير الوطن السلطان سيدي محمد الخامس بن يوسف طيب الله ثراه، رفقة أسرته الشريفة، وعلى رأسهم وارث سره ورفيقه في الكفاح والنضال، جلالة الملك المغفور له الحسن الثاني رحمه الله عليه.

إن المقام لا يتسع لذكر أمثلة أخرى لهذا التلاحم بين العرش والشعب بمقتضى عقد البيعة، حيث تتوالى نعم الله على هذا الشعب بفضل ملك يفكر ليل نهار في تحسين وضعية شعبه ماديا ومعنويا...

فاللهم انصر مولانا أمير المؤمنين جلالة الملك محمد السادس، واحفظه بما حفظت به السبع المثاني والقرآن العظيم. اللهم أطل عمره، وأكرمه بالصحة والعافية، وخذل الملك في عقبه إلى يوم الدين، واحفظه في ولي عهده المحبوب الأمير الجليل مولاي الحسن، وصنوه الأمير الجليل مولاي رشيد، وباقي أفراد الأسرة الملكية من الأمراء والأميرات. وارحم اللهم الملكين الراحلين، جلالة الملك محمد الخامس وجلالة الملك الحسن الثاني، اللهم طيب ثراهما، واجعلهما مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين. وارحم اللهم شهداء الوحدة الترابية، الذين ضحوا في سبيل استقلال الوطن وحرية. وصل اللهم وسلم وبارك على خاتم الأنبياء والمرسلين، آمين والحمد لله رب العالمين.

إمارة المؤمنين بالمغرب: المفهوم، التاريخ، الوظائف.

● د. الجيلالي كريم

عضو المجلس العلمي المحلي لمدينة سطات.

تشكل مؤسسة إمارة المؤمنين في المملكة المغربية الشريفة مصدر قوة وإجماع ووحدة للمغاربة على مر العصور بجميع أطرافهم واتجاهاتهم، وهي نموذج مغربي فريد تحلى به تاريخ هذا البلد الأمين. وقد عرف المغاربة هذا النظام وطبقوه منذ القرن الثاني الهجري إلى يومنا هذا، وهو ما جعل الكثيرين يعتبرون الإمامة العظمى (أي إمارة المؤمنين) من أولى الثوابت التي انبنى عليها الحكم والتدبير في هذا البلد، وهي بالفعل كذلك، إذ لا يمكن فصل نظام الإمارة عن التاريخ المغربي الإسلامي، لأن المغرب والمغاربة عرفوهما متلازمين، ولذلك حرصوا على استمرار هذا التلازم بينهما إلى الوقت الراهن، وجعلوا نظام الإمامة العظمى أبرز ثوابت الأمة إلى جانب العقيدة الأشعرية، والفقه المالكي، والتصوف الجنيدي السني السلوكي، وسأتناول موضوع إمارة المؤمنين في محورين هما: المفهوم والتأصيل الشرعي، ثم تاريخها، ووظائفها، ومركزيتها، ضمن الثوابت الدينية للمملكة المغربية الشريفة.

أولاً: إمارة المؤمنين: المفهوم والتأصيل الشرعي

الإمامة لغة مصدر من فعل أَمَّ يَأْمُم، يقال: «أَمَّهُمْ وَأَمَّ بِهِمْ: تقدمهم، وهي الإمامة»¹. والإمام هو كل من يأتمر الناس بأمره ويتبعونه ويقتدون به، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ جَاعِلًا لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾²، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا﴾³. وقوله عز وجل: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً وَجَعَلْنَاهُمْ الْوَارِثِينَ﴾⁴. قال ابن سيدة: «الإمام كل ما اتَّخَذَ به من رئيس أو غيره، والجمع أئمة»⁵.

1 - جمال الدين محمد بن منظور، لسان العرب، تحقيق: عبد الله علي الكبير - محمد أحمد حسب الله - هاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، القاهرة، (مادة أَمَّ)، ج 2، ص 133.

2 - سورة البقرة، الآية 123.

3 - سورة الأنبياء الآية 72.

4 - سورة القصص الآية 4.

5 - جمال الدين محمد بن منظور، لسان العرب، م س، ج 2، ص 133.

واصطلاحا اشتهرت الإمامة بكونها خلافة لرسالة النبوة التي تجمع بين رياسة الدين والدنيا، وعلى هذا الأساس انبنت تعريفاتها، وهكذا اعتبر الإمام علي الماوردي (ت 450هـ / 1058م) الإمامة بأنها: «موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا»¹، وعرفها إمام الحرمين أبو المعالي عبد الملك الجويني (ت 478هـ / 1085م) بأنها: «رياسة تامة، وزعامة تتعلق بالخاصة والعامة في مهمات الدين والدنيا»². وهو ما ذهب إليه كل من عضد الدين الإيجي (ت 756هـ / 1355م)، وسعد الدين التفتازاني (ت 791هـ / 1389م)، حيث اعتبر الأول أن الإمامة هي: «خلافة الرسول ﷺ في إقامة الدين بحيث يجب اتباعه على كافة الأمة»³. أما الثاني فعرفها بكونها: «نيابة عن الرسول في إقامة الدين بحيث يجب على كافة الأمم الاتباع»⁴.

وقد جمع العلامة عبد الرحمن ابن خلدون (ت 808هـ / 1405م) هذه التعاريف، وجاء بتعريف شامل للإمامة التي يطلق عليها أيضا الخلافة⁵، فقال: «الخلافة هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة، فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به»⁶.

والملاحظ من خلال هذه التعاريف أن الإمامة يطلق عليها أيضا الخلافة، وهي مفهوم جامع ضامن لإقامة الدين وسياسة الدنيا، وبناء عليه فإن القائم بشئونها يسمى «الخليفة» على اعتبار أنه خليفة رسول الله ﷺ، ويسمى «الإمام» بسبب ما أنيط به من أمور الدين، كما يطلق عليه أيضا أمير المؤمنين، فهذه الألفاظ الثلاث اعتبرها العلماء مرادفات لبعضها، وكلها إذا أطلقت على شخص قصد بها خليفة المسلمين وحاكمهم، قال الإمام النووي: «يجوز أن يقال للإمام: الخليفة، والإمام، وأمير المؤمنين»⁷.

1 - علي بن محمد الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، تحقيق: أحمد مبارك البغدادي، مكتبة دار ابن قتيبة، الكويت، 1409هـ / 1989م، ص 3.

2 - أبو المعالي عبد الملك الجويني، غياث الأمم في التياث الظلم، تحقيق ودراسة: مصطفى حلمي وفؤاد عبد المنعم، دار الدعوة الإسكندرية، 1400هـ / 1979م، ص 15.

3 - عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد الإيجي، المواقف في علم الكلام، عالم الكتب، بيروت، دون تاريخ، ص 395.

4 - سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني، شرح العقائد النسفية، تحقيق: أحمد حجازي السقا، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، 1408هـ / 1988م، ص 95.

5 - لا يفرق ابن خلدون بين الإمامة والخلافة، وإنما يعتبرهما شيئا واحدا، ومعناها معا: هو النيابة عن صاحب الشريعة في حفظ الدين، وسياسة الدنيا به، والقائم بالإمامة الكبرى يسمى إماما كما يسمى خليفة. راجع: عبد الرحمن بن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر، ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر (المقدمة)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1424هـ / 2003م، ص 189.

6 - المصدر والصفحة نفسها.

7 - يحيى بن شرف الدين النووي، روضة الطالبين وعمدة المفتين، إشراف زهير الشاويش، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، بيروت، 1412هـ / 1991م، ج 10، ص 49.

وعليه، فإن المقصود بإمارة المؤمنين (الخلافة) في شريعة الإسلام، هي الإمامة والرياسة العظمى والولاية العامة الجامعة القائمة بحراسة الدين وسياسة الدنيا¹، وهو مصطلح ينتمي إلى القاموس السياسي الإسلامي، وله حمولة ثنائية المفهوم ترتبط أساساً بالإسلام من كونه ديناً ودولة، فمن حيث الدين يرتبط الحاكم بالمحكوم في إطار نظام إمارة المؤمنين بما يسمى بالبيعة²، ومن حيث الدنيا يفرض هذا النظام وجود نظام إسلامي، أي أنه عندما يسمى النظام بهذا اللقب (إمارة المؤمنين)، فهو يشير إلى الجانب السياسي الذي هو الإمارة، والجانب الديني الممثل في البيعة، والقائم بها يسمى الخليفة، لأنه خليفة عن رسول الله ﷺ، ويسمى إماماً لأن الإمامة والخطبة في عهد رسول الله ﷺ وفي زمن الخلفاء الراشدين، كانت لازمة له، لا يقوم بها غيره، إلا بطريق النيابة عنه. ويسمى كذلك «أمير المؤمنين».

وهذا النظام ليس مبتدعاً ولا جديداً عن المسلمين، بل هو من أجل الثواب وأعظمها منزلة، لأنها تؤطر الأمرين معاً: الإيمان والعمل، وهو نظام قديم قدم الإسلام، فقد ظهرت بواكيره الأولى مع فجر الإسلام، فبموته ﷺ كان لابد لهذا الأمر من قائم يقوم به، ولذلك بادر الصحابة فور وفاته ﷺ - وقبل تجهيزه وتشيعه - إلى عقد اجتماع السقيفة، الذي أسفر عن مبايعة أبي بكر الصديق، وأقر المسلمون هذه البيعة في المسجد في اليوم الموالي، الأمر الذي يؤكد إجماعهم على ضرورة تعيين إمام أو خليفة للمسلمين، فكان أبو بكر أول من تسمى بخليفة رسول الله³.

1 - توصف الإمامة التي تناط بأمير المؤمنين وخليفة المسلمين بالإمامة العظمى أو الكبرى تمييزاً لها عن الإمامة الصغرى التي يزاوها من يؤم الناس في الصلاة نيابة عن الإمام الأعظم.

2 - البيعة بفتح الباء هي الآلية الشرعية التي يتم بها اختيار الإمام (الحاكم)، وهي مصدر من بايع يبايع مبايعة، «والتبايع عبارة عن المعاقدة والمعاودة، كأن كل واحد منهما باع ما عنده من صاحبه، وأعطاه خالصة نفسه وطاعته ودخيلة أمره». راجع: محمد مرتضى الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق مجموعة من المحققين، دار الهداية، ج 20، ص 370. وقد كان من عادة العرب أنه إذا تبايع اثنان صافح أحدهما الآخر، تأكيداً على أن الصفقة قد تمت بينهما. قال ابن خلدون: «البيعة هي العهد على الطاعة، كأن المبايع يعاهد أميره على أنه يسلم له النظر في أمر نفسه وأمور المسلمين، ولا ينازعه في شيء من ذلك، ويطيعه فيما يكلفه به من الأمر على المنشط والمكروه. وكانوا إذا بايعوا الأمير وعقدوا عهده جعلوا أيديهم في يده تأكيداً للعهد، فأشبه ذلك فعل البائع والمشتري، فسمي بيعة». انظر: عبد الرحمن بن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر...، دار الفكر، م س، ج 1، ص 261. قال تعالى: ﴿إِن الْكَايِنَ يَمَاجِعُونَ إِنَّمَا يَمَاجِعُونَ اللَّهَ. يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ، فَمَنْ نَكَثَ إِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ، وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَنْ يَكْفُلُ الْخِطَابَ﴾. (سورة الفتح، الآية 10). فالبيعة إذن هي إعطاء العهد والولاء والطاعة لمن تتم مبايعته، وهي الأسلوب الشرعي في تنصيب أمير المؤمنين، والأساس الشرعي الذي تقوم عليه السلطة العليا لتسيير شؤون المسلمين.

3 - تعتبر خلافة أبي بكر الصديق أول خلافة انعقدت في الإسلام على حقيقتها، إذ كان أفضل الصحابة على الإطلاق، لما اختص به من مناقب ومزايا لم يشاركه فيها أحد من الصحب الكرام. ذكر السيوطي وغيره أن البيهقي أخرج عن ابن الزعفراني قال: سمعت الشافعي يقول: «أجمع الناس على خلافة أبي بكر الصديق، وذلك أنه اضطر الناس بعد وفاة رسول الله ﷺ، فلم يجدوا تحت أديم السماء خيراً من أبي بكر فولوه رقابهم». انظر: جلال الدين السيوطي، تاريخ الخلفاء، تحقيق حمدي الدمرداش، مكتبة نزار مصطفى الباز، 1425هـ / 2004م، ص 55. وسئل بعض علماء القيروان: «من كان مستحقاً للخلافة بعد رسول الله ﷺ فقال: سبحانه الله إنا بالقيروان نعلم من هو أصلح منا للقضاء، ومن هو أصلح للفتيا، ومن هو أصلح منا للإمامة، أخفى ذلك عن أصحاب رسول الله، إنما يسأل عن هذه المسائل أهل العراق». راجع: شهاب الدين القرافي، أنوار البروق في أنواء الفروق، عالم الكتب، دون تاريخ، ج 2، ص 161.

وكان عمر بن الخطاب أول من تلقب بأمير المؤمنين بعد وفاة أبي بكر الصديق، ولم يُدعَ أحد من الأمراء الحاكمين قبله بهذا اللقب¹. قيل سماه به عدي بن حاتم، ولبيد بن ربيعة، حين وفدا عليه من العراق، وقيل سماه به المغيرة بن شعبة، وهو ما نستشفه من حوار بين هذا الصحابي وعمر بن الخطاب، قال عمر في آخره: أنتم المؤمنون وأنا أميركم، فقال المغيرة: يا أمير المؤمنين. فاستحسن الخليفة هذا اللقب وقبل به فاتخذه، وقيل غير ذلك².

وهكذا ظهر نظام إمارة المؤمنين كنظام يجمع بين شؤون الدين والدنيا، وتوطد قيام هذا النظام على البيعة في العهد الراشدي، ثم توارثها من أتى بعد ذلك من ملوك المسلمين وحكامهم، لاسيما خلفاء بني أمية وخلفاء بني العباس.

وهذا لا يعني أن لقب الأمير لم يكن معروفا قبل عمر بن الخطاب، فقد أطلق رسول الله ﷺ اسم الأمير على عبد الله بن جحش حين بعثه في سرية³، كما أطلق الصحابة لقب أمير المؤمنين على أسامة بن زيد بن حارثة رضي الله عنهما. وقد روى الحافظ السيوطي أن أبا بكر رضي الله عنه، بعد موت رسول الله ﷺ، بعث أسامة بن زيد على جيش الشام، فكان الصحابة في ذلك السفر يدعونه أمير المؤمنين⁴، وروي كذلك أن عمر بن الخطاب كان إذا رأى أسامة، قال له: السلام عليك يا أمير المؤمنين، فيقول له أسامة: غفر الله لك يا أمير المؤمنين، تقول لي هذا؟! فيقول له سيدنا عمر رضي الله عنه: لا أزال أدعوك الأمير ما عشت، مات رسول الله ﷺ وأنت علي أمير⁵.

- 1 - ذكر ابن سعد في طبقاته أنه لما مات أبو بكر رضي الله تعالى عنه وكان يُدعى خليفة رسول الله ﷺ قيل لعمر: خليفة خليفة رسول الله ﷺ، فقال المسلمون: من جاء بعد عمر قيل له: خليفة خليفة خليفة رسول الله ﷺ، فيطول هذا، ولكن اجتمعوا على اسم تدعون به الخليفة، يدعى به من بعده من الخلفاء، قال بعض أصحاب رسول الله ﷺ: نحن المؤمنون وعمر أميرنا، فدعى عمر (أمير المؤمنين)، فهو أول من سمي بذلك. راجع: ابن سعد، الطبقات الكبرى، تحقيق إحسان عباس، دار صادر بيروت، 1388هـ / 1968، ج 3، ص 281.
- 2 - ذكرت المصادر روايات مختلفة عن أول من أطلق لقب «أمير المؤمنين» على عمر بن الخطاب. انظر مثلاً: أحمد البلاذري، جمل من أنساب الأشراف، تحقيق سهيل زكار ورياض الزركلي، دار الفكر بيروت، 1417هـ / 1996م، ج 10، ص 321. أبو الحسن علي المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، ج 2، ص 313. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، تحقيق مجموعة من المحققين، دار الرسالة العالمية، دمشق، 1434هـ / 2013م، ج 5، ص 103. ابن حجر الهيتمي، الصواعق المحرقة على أهل الرفض والضلال والزندقة، تحقيق عبد الرحمن التركي وكامل محمد الخراط، مؤسسة الرسالة، لبنان، 1417هـ / 1997م، ج 1، ص 258.
- 3 - راجع: أبو عبد الله الواقدي، المغازي، تحقيق مارسدن جونس، دار الأعلمي، بيروت، الطبعة: الثالثة، 1409هـ / 1989م، ج 1، ص 19. ابن سعد، الطبقات الكبرى، م س، ج 3، ص 90. أبو الحسن علي المسعودي، التنبيه والإشراف، تصحيح عبد الله إسماعيل الصاوي، دار الصاوي، القاهرة، دون تاريخ، ج 1، ص 203.
- 4 - جلال الدين السيوطي، الخاوي للفتاوي، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1424هـ / 2004م، ج 2، ص 351.
- 5 - المصدر والصفحة نفسها. وللمزيد من التوسع في أول من لقب بأمير المؤمنين من الحكام وغيرهم راجع: ابن عساكر، تاريخ دمشق، تحقيق عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1415هـ / 1995م، ج 8، ص 70. شمس الدين الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق عمر عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، 1413هـ / 1993م، ج 4، ص 177. أحمد بن حجر الهيتمي، الفتاوى الفقهية الكبرى، جمعها تلميذه عبد القادر الفاكهي، المكتبة الإسلامية، ج 4، ص 222. محمد بن علان، الفتوحات الربانية، جمعية النشر والتأليف الأزهرية، ج 7، ص 84-85. عبد الحى الكتاني، التراتيب الإدارية والعمالات والصناعات والمتاجر والحالة العلمية التي كانت على عهد تأسيس المدينة الإسلامية في المدينة المنورة العلمية، تحقيق عبد الله الخالدي، دار الأرقم، بيروت، الطبعة: الثانية، ج 1، ص 82-83.

ونتيجة للتطور الذي عرفته الأمة والمجتمع الإسلامي في العقود الأولى بعد وفاة رسول الله ﷺ، والتوسع المجالي والديني نتيجة الفتوحات، ودخول أمم مختلفة تحت راية الإسلام، أخذ سؤال المشروعية السياسية يطرح نفسه بحدة، ونظرا لاختلاف الرؤى والمنطلقات ستظهر أولى التصدعات والتمزقات في لبنة الأمة، فظهرت الفرق العقدية واختلفت باختلافها الرؤى السياسية، وزاد من هوة الانشقاق تحلق الأتباع حول زعماء الفرق، وأصبح "كل حزب بما لديهم فرحون"، هنا كان لابد من تصحيح المسار، فقرر أهل السنة والجماعة -سعيًا منهم إلى لم شمل الأمة وحماية بيضة الدين- وجوب إمارة المؤمنين، وحددوا وظائفها، واشترطوا لها شروطًا، وتم اعتماد هذا النظام منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب، ولا يزال هو المعبر في الأمة إلى يومنا هذا.

وقد اتبع المسلمون عبر التاريخ طريقين لانعقاد الإمامة:

أولهما: باختيار أهل الحل والعقد (أهل البيعة) وهم أشرف ووجهاء وعلماء وأعيان الوقت، ومن لهم الخطوة والقبول لدى الناس، والعلم الذي يتوصل به إلى معرفة من يستحق الإمامة على الشروط المعتمدة في هذا الباب. شريطة الاتصاف بالحكمة وسداد الرأي، والعدالة بشروطها، والصدق والكياسة، وبعد النظر، والمعرفة بأحوال الناس، والقدرة على اختيار الأفضل والأحق للإمامة. وهؤلاء هم الذين يمثلون الأمة في تنصيب أمير المؤمنين في تقديم البيعة له نيابة عن الأمة، ويبايعونه على السمع والطاعة، في المنشط والمكره، وفي جميع أحوالهم، إلا فيما يتعارض مع طاعة الله ورسوله، إذ (لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق)، وبالمقابل يعاهدهم الإمام المبايع على الحكم وفق مقتضى كتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ.

ثانيهما: بتعيين من الإمام، وذلك باختياره الأحق بها والأقوم بشروطها. وهذا هو الذي اختاره ابن حزم وفضله على غيره من الوجوه الأخرى، قال: «وجدنا عقد الإمامة يصح بوجوه: أولها وأفضلها وأصحها، أن يعهد الإمام الميت إلى إنسان يختاره إمامًا بعد موته. وسواء فعل ذلك في صحته أو في مرضه وعند موته. وهذا هو الوجه الذي نختاره ونكره غيره، لما فيه من اتصال الإمامة، وانتظام أمر الإسلام وأهله»¹، وهذا الأمر هو ما جرى به العمل والعرف عندنا في المغرب، حيث ينتقل الملك من الأب إلى الابن بمقتضى ولاية العهد المعروفة.

والأصل في اعتبار هذا النظام هو حفظ الشريعة الإسلامية وجعلها صالحة للخلافة في الأرض عبر الأزمنة، مع حفظ مصالح الناس، وبما أن هذا الحفظ لا يتأتى إلا إذا كان للمجتمع المسلم رأس يجتمعون عليه ليسوسهم على ملة الإسلام، كان لزامًا أن يكون للمسلمين إمام لرعاية هذه الأمانة

1 - علي ابن حزم الأندلسي القرطبي، الفصل في الملل والأهواء والنحل، مكتبة الخانجي، القاهرة، ج 4، ص 130-131.

الكبرى التي تُسمّى في الشريعة بالإمامة العُظمى، حيث يجتمعون بالبيعة الشرعية على إمامته وولاية أمرهم، مع السمع والطاعة، وعدم محاربته أو الخروج عنه، والدعاء له، وهو أمر أجمع عليه العلماء باستثناء بعض الخوارج والمعتزلة¹، كما أجمعوا على أن ذلك من الواجبات الكفائية التي إذا قام به أهلها سقط طلبها عن الباقيين، قال الماوردي في الأحكام السلطانية: «فإذا ثبت وجوب الإمامة، ففرضها على الكفاية كالجهاد وطلب العلم، فإذا قام بها من هو من أهلها سقط فرضها عن الكافة»²، ووجوبها عند الأشاعرة والمعتزلة هو وجوب شرعي، لأن الإمام يقوم بأمر شرعية. ولا خلاف أن الإجماع حجة قطعية يقينية على وجوب الإمامة بعد رسول الله ﷺ وفي كل عصر.

والمصلحة في تنصيب الإمام واضحة جلية، لا تحتاج إلى كبير تأمل وإعمال فكر؛ فأمور الناس لا يمكن أن تستقيم، وأحوالهم لا يمكن أن تصلح إلا بهذا الأمر، بل إنه مطلب شرعي ديني قبل أن يكون مطلباً دنيوياً يملية المنطق؛ فهي تستمد مشروعيتها من إجماع علماء الإسلام من عصر الصحابة والتابعين وأهل السنة والرجئة والشيعة والمعتزلة والخوارج، باستثناء نفر منهم يسير على أن الإمامة أمر واجب وفرض محتّم، لأن قيام إمارة المؤمنين (الإمامة العظمى) وقيام الطاعة لها من طاعة الله ورسوله؛ لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَطِيعُوا أَوْلِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ، فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَإِنَّكُمْ تَوْحَدُونَ فَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَأَطِيعُوا أَوْلِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾³، ولقول النبي ﷺ: (من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصا الله، ومن يطع الأمير فقد أطاعني، ومن يعص الأمير فقد عصاني...)⁴. وقال الماوردي: «جاء الشرع بتفويض الأمور إلى وليه في الدين»⁵.

وعليه؛ فإن إمارة المؤمنين أصل أصيل في الدين، وليست مذهبا دخيلا عليه، وهي تستمد مشروعيتها من إجماع علماء الإسلام من عصر الصحابة والتابعين، قال ابن حزم في كتاب الفصل: «اتفق جميع أهل السنة وجميع المرجئة، وجميع الشيعة، وجميع الخوارج، على وجوب الإمامة، وأن الأمة واجب عليها الانقياد لإمام عادل، يقيم فيهم أحكام الله، ويسوسهم بأحكام الشريعة التي أتى بها رسول الله ﷺ»⁶.

1 - حكى الماوردي وغيره الإجماع على وجوب نصب الإمام، وذكر شدوذ أبي بكر عبد الرحمن بن كيسان الأصم الذي اشترط لوجوب ذلك افتقار العدل، راجع: **الأحكام السلطانية والولايات الدينية**، تحقيق: أحمد مبارك البغدادي، م س، ص 3. وقد رد عدد من الأئمة على شدوذ رأي الأصم في عدم وجوب نصب الإمام واستنكره، ومنهم الإمام الجويني في كتابه «غياث الأمم والتياث الظلم» (ص 419-478)، والإمام الأشعري في كتابه «مقالات الإسلاميين» (ص 460)، والغزالي في «الاقتصاد في الاعتقاد» (ص 148).

2 - أبو الحسن علي الماوردي، **الأحكام السلطانية**، دار الحديث، القاهرة، ص 17.

3 - سورة النساء، الآية 58.

4 - رواه البخاري ومسلم.

5 - أبو الحسن علي الماوردي، **الأحكام السلطانية**، دار الحديث، القاهرة، ص 16.

6 - علي ابن حزم الأندلسي القرطبي، **الفصل في الملل والأهواء والنحل**، م س، ج 4، ص 72.

ثانيا: إمارة المؤمنين في المغرب: تاريخها ووظائفها ومركزيتها ضمن الثوابت الدينية

انفتح المغرب على الإسلام في العقود الثلاثة الأخيرة من القرن الهجري الأول، وتولّى تدبير شؤونه عدد من عمال الأمويين ثم العباسيين. وفي المشرق، استحكمت الأزمة في الأمة بظهور الفرق العقدية والكلامية، وتصاعدت معها نسبة المعارضة للأمويين ثم للعباسيين، لاسيما من آل البيت وأنصارهم الذين نزل عليهم سوط اضطهاد الدولتين المذكورتين، اضطهاد سيرتفع منسوبه مع انتهاء العهد الراشدي وتولي معاوية، ويصل أوجه في وقعة فخ (169 هـ - 786 م) قرب مكة التي قتل فيها الحسين بن علي بن الحسن المثلث وجملة من أنصاره¹، مما دفع الكثيرين من آل البيت إلى مغادرة مكة وشبه الجزيرة العربية، وعلى رأسهم إدريس بن عبد الله (ت 177 هـ - 793 م) الذي لجأ إلى المغرب سنة 172 هـ / 788 م بعد نجاته من القتل في موقعة فخ، حيث استقبله المغاربة استقبالا يليق بمقامه في إشارة إلى حب المغاربة وتعلقهم بآل البيت، وناصروه وزوجوه وبايعوه بيعة شرعية، وأمّروه عليهم، وعظموه وقدموه على أنفسهم، فكان أول أمير للمسلمين تتم مبايعته في الغرب خارج دائرة الصراع في المشرق بعد الخلفاء الراشدين.

وعليه، فإن نظام الخلافة المبني على البيعة الشرعية استقر في هذه البلاد منذ قدوم المولى إدريس بن عبد الله، الذي كان يرى أنه أحق من خلفاء بني العباس بالخلافة، وذلك بإيضاء أخيه محمد بن عبد الله الملقب بالنفس الزكية، الذي كان قد بوع في المدينة وانعقدت له الإمامة قبل بيعة أبي جعفر المنصور العباسي²، فلما تغلبوا على الأمر فر إلى المغرب، وأسس دولته وساس الناس بالشرعية، ولهذا «كان الإمامان مالك وأبو حنيفة يحنحان إليه ويرجحان إمامته على بني العباس، ويريان أن إمامته أصح من إمامة أبي جعفر المنصور»³.

واستنادا إلى هذه الشرعية استقل المغرب عن الخلافة العباسية، وأسس دولته على نمط الخلافة الإسلامية القائمة على البيعة والشورى، فبايع المغاربة المولى إدريس الأكبر الذي آلت إليه الخلافة شرعا، بعد مقتل أخيه محمد بن عبد الله النفس الزكية. وذكر الشيخ الكتاني وغيره أن سبب اشتهاار مذهب الإمام مالك بالمغرب، واقتصارهم عليه، رواية مالك في الموطأ عن جده عبد الله الكامل، وفتياه

1 - أرخ العديدون لهذه المعركة وذكروا أسبابها وتناجها وتفصيل أحداثها، راجع مثلا: أحمد بن سهل الرازي، أخبار فخ وخبر يحيى بن عبد الله وأخيه إدريس ابن عبد الله، تحقيق ماهر جرار، عن دار الغرب الإسلامي - بيروت، 1995.

2 - راجع مناقشة وتأكيّد لمسألة أحقية المولى إدريس بالخلافة عند الشيخ عبد الحي الكتاني (التراتب الإدارية...، م س، ج 1، ص 82)، وهو ما ذهب إليه أيضا ابن زكري في شرح همزته، وأحمد بن عبد الحي في الدر النفيس والنور الأنيس في مناقب الإمام إدريس بن إدريس، والحافظ التنسي في الدر والعقيان، والمقري في كنز الأسرار. وغيرهم.

3 - راجع: أحمد بن عبد الحي، الدر النفيس والنور الأنيس في مناقب الإمام إدريس بن إدريس، تقديم وتحقيق محمد بوخنيفي، دار الكتب العلمية، 2015 م، ص 454.

بخلع جعفر المنصور العباسي، وبيعته لمحمد النفس الزكية. وعهده لأخيه إدريس الأكبر بالخلافة بعده، وبسببها قال إدريس: «نحن أحق باتباع مذهب مالك، وقراءة كتابه الموطأ، وأمر بذلك في جميع عمالاته»¹.

وأول ظهور للقب أمير المؤمنين في الغرب الإسلامي كان بالأندلس، وأول من دعي أمير المؤمنين كان هو عبد الرحمن الناصر الأموي (ت 350هـ / 961م) حسب ما ذكره ابن جزى في القوانين الفقهية²، وقال السيوطي متحدثاً عن الناصر: «وهو أول من تسمى بالأندلس بالخلافة، وبأمر المؤمنين، وذلك لما وهنت الدولة العباسية في أيام المقتدر، وكان الذين قبله إنما يتسمون بالأمير فقط»³. وهو ما ذهب إليه المقرئ في نفح الطيب، حيث أكد أن الناصر هو أول من تسمى بأمر المؤمنين من بني أمية بالأندلس لأن الدولة عظمت في أيامه، ولما رأى من ضعف أمر الخلفاء العباسيين ونظامهم وملكهم بالمشرق⁴، وقد أصدر بذلك منشوراً لعماله سنة 316هـ / 928م، وأمر بإنفاذه، ومما جاء فيه: «وقد رأينا أن تكون الدعوة بأمر المؤمنين، وخروج الكتب عنا وورودها علينا بذلك، إذ كل مدعو بهذا الاسم دخيل، ومتسم بما لا يستحق، وعلمنا أن التهادي على ترك الراعي لنا من ذلك حق أضعناه واسم ثابت أسقطناه، فامر الخطيب لموضعك أن يقول به، وأجر مخاطبتك لنا عليه»⁵.

أما التلقب بأمر المؤمنين في المغرب، فيرجع أول الأمر إلى الدولة الموحدية، وإن كانت إرهاباته الأولى تعود إلى الدولة المرابطية، حيث كان يطلق على سلطانها الأكبر يوسف بن تاشفين لقب «أمير المغرب»، ثم لقب نفسه «أمير المسلمين وناصر الدين» بعدما استقل بحكم المغرب عن المشرق⁶. أما أول من تسمى في المغرب بـ «أمير المؤمنين» دون أن يكون له انتساب إلى بيت النبوة، فهو الزعيم الموحي عبد المومن بن علي الكومي، وفي هذا الصدد يذكر أحمد بن خالد الناصري أنه باستثناء عبيد الله المهدي (ت 322هـ / 934م) في القاهرة، وعبد الرحمن الناصر الأموي في الأندلس (ت 350هـ / 961م):

- 1 - عبد الحي الكتاني، التراتيب الإدارية...، م س، ج 1، ص 82.
- 2 - ابن جزى الكلبي الغرناطي، القوانين الفقهية في تلخيص مذهب المالكية والتنبيه على مذهب الشافعية والحنفية والحنبلية، تحقيق وتعليق ماجد الحموي، دار ابن حزم - بيروت، 1434هـ / 2013م، ص 690.
- 3 - جلال الدين السيوطي، تاريخ الخلفاء، تحقيق حمدي الدمرداش، مكتبة نزار مصطفى الباز، الطبعة الأولى: 1425هـ - 2004م، ص 366.
- 4 - أبو العباس المقرئ التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر - بيروت، لبنان، ص 330، 353.
- 5 - انظر: عبد الحي الكتاني، التراتيب الإدارية...، م س، ج 1، ص 83-82.
- 6 - مجلة ألوان، العدد 3، ص 19. وبعد أن بسط يوسف بن تاشفين يده على كل الأراضي المغربية، اجتمع الأعيان والعلماء وشيوخ القبائل، ثم عرضوا عليه لقب «أمير المؤمنين» إلا أنه رفض مبمراً أنه أمازيغي وابن الصحراء، أي أنه لا يتوفر على شرط النسب إلى بيت النبوة. وهكذا اتخذ لنفسه لقب «أمير المسلمين وناصر الدين». وهو لقب أقره له العباسيون في بغداد، لكنهم طالبوه بإعلان الولاء له. انظر: عبد العالي حامي الدين، الدستور المغربي ورهان موازين القوى، دفا تر وجهه نظر، الطبعة الأولى 2005م، ص 57.

«...لم يتجاسر أحد لا من ملوك العجم بالشرق، ولا من ملوك البربر من المغرب على اللقب بأمر المؤمنين، لأنه لقب الخليفة الأعظم القرشي كما علمت، إلى أن جاءت دولة المرابطين، وكان منهم يوسف بن تاشفين، واستولى على المغربين والأندلس، وعظم سلطانه واتسعت مملكته. وخاطب الخليفة العباسي بالشرق فولاه على ما بيده، وتسمى بأمر المسلمين أدبا... ولما جاء عبد المومن هذا، لم يبال بذلك كله، وتسمى بالخليفة، وتلقب بأمر المؤمنين وتبعه على ذلك بنوه من بعده»¹.

ومنذ ذلك الحين، حافظ المغرب على نظام الخلافة والبيعة الشرعية بما يفرضه من تحديد واجبات الراعي والرعية وحقوقهما، وبقي السلاطين المغاربة يتلقبون بهذا اللقب إلى يومنا هذا، وهي خصوصية انفرد بها المغرب عن باقي الأقطار الإسلامية، وقد رأى السلاطين المغاربة استحقاقهم هذا اللقب الذي يضفي الشرعية الدينية على حكمهم، لاسيما بعد سقوط وانحيار الخلافة العباسية واستقلال المغرب عنها منذ زمن هارون الرشيد، فاختاروا أولا لقب «أمر المسلمين» على عهد المرابطين، ثم لقب «أمر المؤمنين» بدءا من الموحدين، وهي ألقاب تجمع بين السلطتين الدينية والسياسية، وتلزم حاملها بالتقيد بأهم مقومات الخلافة في الإسلام من الناحية العملية، وهي: أولا، تولي الحكم بالبيعة، وثانيا، العمل بالشورى، ويتولى البيعة أهل الحل والعقد، وهم شيوخ القبائل الذين يمنحون الشرعية السياسية، والعلماء الذين يمنحون الشرعية الدينية².

ولم تكن البيعة مجرد إجراء شكلي، بل كانت تتضمن شروطا ضمنية وأحيانا صريحة، على رأسها التزام السلطان بالعمل بالكتاب والسنة، مقابل الطاعة في المعروف. وقد خضع السلاطين المغاربة لنظام البيعة منذ قيام دولة الأدارسة إلى اليوم. وبمقتضى هذا العقد كان العلماء يمارسون وظيفتهم إلى جوار السلطان عبر آليات مختلفة، منها «آلية الفتوى» التي يطلبها السلطان، وهناك «آلية الاستفتاء» أي الاستشارة الواسعة للسلطان مع ذوي العلم والمكانة والنفوذ في الدولة، من علماء وتجار وأعيان وشيوخ القبائل. وهناك آليات أخرى مثل النصيحة والنقد والتوجيه... إلخ³.

ولا شك أن كل دارس لتاريخ المغرب، يخلص إلى أن اختيار المغاربة لنظام إمارة المؤمنين منذ القديم كان له دور كبير في استقرار البلد، وهذا الاستقرار هو الذي مكن البلاد من المحافظة على هويتها وقيمها وتقاليدها، لأن علاقة الحاكم بالمحكوم مؤطرة بنظام البيعة الشرعية الذي يحدد واجبات وحقوق كل من الراعي والرعية، وهو نظام شرعي يحفظ لكل طرف حقوقه، كما يحفظ وحدة الوطن واللحمة

1 - أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1418هـ / 1997م، ج 3 ص 54.
2 - محمد عابد الجابري، المغرب المعاصر: الخصوصية والهوية... الحداثة والتنمية، مؤسسة بنشرة للطباعة والنشر، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، نوفمبر 1988م، ص 127.
3 - المرجع نفسه، ص 127-128.

بين أبنائه، وهذا ما نصّ عليه الدستور المغربي الحالي الذي حدد، ومن دون لبس، طبيعة نظام إمارة المؤمنين بأن "الملك، أمير المؤمنين وحامي حمى الملة والدين، والضامن لحرية ممارسة الشؤون الدينية. الملك رئيس الدولة، وممثلها الأسمى، ورمز وحدة الأمة، وضامن دوام الدولة واستمرارها، والحكم الأسمى بين مؤسساتها، يسهر على احترام الدستور، وحسن سير المؤسسات الدستورية، وعلى صيانة الاختيار الديمقراطي، وحقوق وحرّيات المواطنين والمواطنات والجماعات، وعلى احترام التعهدات الدولية للمملكة. الملك هو ضامن استقلال البلاد، وحوزة المملكة في دائرة حدودها الحقة"¹.

وتأسيسا على ما سبق، فإمارة المؤمنين في المغرب تكتسي طابعا مؤسسيا شرعيا، وتعتبر ثابتا أساسيا ضمن الثوابت الدينية للمملكة المغربية الشريفة، بل ركيزة مهمة ضمن ركائز الحكم، ولذلك أنيطت بها مهام متعددة لا يقوم بها غيرها، ومن أبرز هذه الوظائف المؤسسية والشرعية:

1- إصلاح وتنظيم الشأن الديني: إن حماية الملة ومواصلة إصلاح أمور الدين، بتجديد مؤسساته والعناية بأهله وإدماجه في سياسة القرب، تعتبر واحدة من أكبر الوظائف المنوطة بإمارة المؤمنين، بل إنها بحسب نص بعض الخطب الملكية هي الجزء الأكبر من مقتضيات البيعة، والعهد الوثيق الذي يجمع الملك بشعبه، وهنا نجد أمير المؤمنين يحرص على أداء هذه الوظيفة لتكون بمثابة تجديد لهذا العهد الوثيق الذي يربط الشعب بأمر المؤمنين حيث إن من مقتضيات البيعة المقدسة حماية الملة والدين².

كما أن إصلاح الشأن الديني يدخل في إطاره إعادة هيكلة المؤسسات التي تعنى بالشؤون الدينية (إعادة هيكلة وتأهيل وزارة الأوقاف، تجديد وإعادة تنظيم المجلس العلمي الأعلى والمجالس العلمية المحلية، وتوسيع هذه المجالس لتعم كل العمالات والأقاليم، وإحداث المجلس العلمي للجلالية المغربية بأوروبا، وإحداث الرابطة المحمدية للعلماء، والقنوات الإذاعية والتلفزية الدينية، وإطلاق خطة ميثاق العلماء لتأطير وتأهيل أئمة المساجد، وإحداث مؤسسة محمد السادس للنهوض بالأعمال الاجتماعية للقيمين الدينيين، وإصلاح وتنظيم وترسيم التعليم العتيق والعناية به... الخ)³. كما أن الحفاظ على الأمن الروحي والوحدة المذهبية للمغاربة تدخل في إطار الإشراف على الشأن الديني على اعتبار أن

1 - الباب الثالث الخاص بالملكية، الفصلان 41 و 42.

2 - في خطاب 27 شتنبر 2008م، ذكر أمير المؤمنين جلالة الملك محمد السادس أيده الله ونصره -بمناسبة ترؤسه للدورة العادية للمجلس العلمي الأعلى بتطوان- أن حرصه على أداء هذه الوظيفة بمثابة تجديد للعهد الوثيق الذي يربط الشعب بأمر المؤمنين. وفي خطاب الدار البيضاء يوم 30 أبريل 2004م المتعلق بإعادة هيكلة الحقل الديني، كان الأمر أكثر وضوحا حين اعتبر جلالتة أن من مقتضيات البيعة المقدسة حماية الملة والدين، على إيلاء الشأن الديني الأهمية الفائقة، والحرص على قيام مؤسساته بوظائفها على أكمل وجه، والعناية بأحوال الساهرين عليها.

3 - هذه المجالات ذكرها جلالة الملك مفصلة في خطاب 27 شتنبر 2008م بمناسبة ترؤسه للدورة العادية للمجلس العلمي الأعلى بتطوان.

هذه الوظيفة هي نوع من ضمان الاستمرارية لهذه الوحدة، وهو ما نصت عليه الخطب الملكية أيضا باستمرار¹.

2- رعاية الفتوى وصيانتها من المتطفلين: تحتمت هذه الوظيفة بشكل أكبر وجلي بعد ظهور مجموعة من الانزياحات الشاذة في فهم النص الديني، وانتشار فوضى الإفتاء نتيجة موجة الغلو والتطرف التي غمرت فكر عدد من المنتسبين للحقل الديني، حيث أصبح من اللازم إصلاح هذا الحقل وإعادة هيكلته وتجديده على ضوء الثوابت الدينية للمملكة المغربية المتمثلة في إمامة المؤمنين والمذهب المالكي والعقيدة الأشعرية والتصوف السني، تحصينا للمغرب من نوازع التطرف والإرهاب، وحفاظا على هويته المتميزة بالوسطية والاعتدال والتسامح، وقد حدد الخطاب الملكي يوم 30 أبريل 2004 بالدار البيضاء الأركان الثلاثة لهذا الإصلاح المؤسساتي المرتبط بالهيئات التي تتولى مهمة المرفق العمومي في المجال الديني:

أولها: إعادة هيكلة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، بإحداث مديريةية للتعليم العتيق، وأخرى مختصة بالمساجد، وإعادة النظر في التشريع المتعلق بآماكن العبادات، مع التأكيد على إحياء مؤسسة الأوقاف، وعقلنة تسييرها، وتعيين أعضاء المجالس العلمية في تركيبتها الجديدة، لتقوم بتدبير الشأن الديني عن قرب، فضلا عن إصلاح رابطة علماء المغرب.

ثانيها: صيانة الحقل الديني من التناول عليه من بعض الخوارج عن الإطار المؤسسي الشرعي، وفي هذا الصدد، عهد السلطان إلى المجلس العلمي الأعلى بإحداث الهيئة العلمية للإفتاء، وهي هيئة أنيطت بها مهمة اقتراح الفتوى عليه بصفته أمير المؤمنين ورئيسا لهذا المجلس، سدا للذرائع، وقطعا لدابر الفتنة والبلبل في الشؤون الدينية. وتحصينا للفتوى من أذعياء المعرفة بالدين ومن تطاول السفهاء والمشعوذين.

ثالثها: نشر التربية الإسلامية السليمة، والتكوين العلمي العصري، وذلك من خلال صيانة وحفظ القرآن الكريم، وتأهيل المدارس العتيقة، وتحصينها من كل استغلال أو انحراف يمس بالهوية

1 - قال أمير المؤمنين في خطاب الدار البيضاء يوم 30 أبريل 2004م المتعلق بإعادة هيكلة الحقل الديني: «حضرات السيدات والسادة، لقد دأبنا منذ تقلدنا إمارة المؤمنين، ملتزمين بالبيعة المقدسة، وما تقتضيه من حماية الملة والدين، على إيلاء الشأن الديني الأهمية الفائقة، والحرص على قيام مؤسساته بوظائفها على أكمل وجه، والعناية بأحوال الساهرين عليها، والسير على النهج القويم لأسلافنا المنعمين، في الحفاظ على الأمن الروحي للمغرب، ووحدة المذهب المالكي. وإذا كان من طبيعة تدبير الشؤون الدينية العامة الاختلاف، الذي يعد من مظاهر الديمقراطية، والتعددية في الآراء لتحقيق الصالح العام، فإن الشأن الديني، على خلاف ذلك، يستوجب التثبت بالمرجعية التاريخية الواحدة للمذهب المالكي السني، الذي أجمعت عليه الأمة، والذي نحن مؤمنون على صيانتها، معتبرين التزامنا دينيا بوحدة المذهبية، كالتزامنا دستوريا بالوحدة الترابية والوطنية للأمة، حريصين على الاجتهاد الصائب، لمواكبة مستجدات العصر».

المغربية، مع توفير مسالك وبرامج للتكوين، تدمج طلبتها في المنظومة التربوية الوطنية، وتجنب الفكر المغلق، وتشجيع الانفتاح على الثقافات.

ومن جهة أخرى، تم إصدار مرسوم ملكي يمنع العاملين في الشأن الديني ممارسة النشاطات السياسية، ويدعو الخطباء والأئمة إلى التحلي بالوقار والاستقامة والمروءة والتركيز على بناء مجتمع متماسك ومتضامن، متمسك بمقوماته الروحية، ومتفتح على روح العصر، وبعيد عن كل تعصب أو غلو أو تطرف في الدين¹.

3- الحفاظ على الشريعة وتحقيق مقاصدها: ويتجلى ذلك في تحقيق المصالح التي تتفق مع الشريعة، وتوجيه النظر الاجتهادي، ودرء المقاصد التي تترأى في صورة مصالح، وضمان عدم الإخلال بمقتضيات الشريعة الإسلامية، والعناية في تأطير حياة المجتمع وتدينه من حيث العمل على نشر المصحف الشريف، وإحداث معاهد للدراسات القرآنية، ومواكبة جميع فضاءات تحفيظ القرآن الكريم، وعلى رأسها المدارس العتيقة. وهذا يعني أن الحفاظ على الثوابت الدينية، والأحكام الشرعية أصبح مكفولا بحراسة الإمامة العظمى، الحريصة على موافقة مقاصد الشرع لكل ما هو مفيد لحفظ كرامة الإنسان في هذا العصر، والملتزمة بشرع الله الذي هو فوق كل التزام، وهذا ما ظلت مؤسسة إمارة المؤمنين في المغرب تؤكد عليه، سواء في الخطب الملكية التي طالما أكدت أن الجالس على العرش وبصفته أميراً للمؤمنين لا يمكنه أن يحل حراماً أو يحرم حلالاً، أم في بلاغات المجلس العلمي الأعلى الذي يرأسه الملك شخصياً، في كل مناسبة تقتضي ذلك، كذاك الذي أصدره في دجنبر 2008م إثر إعلان المغرب عن رفع تحفظاته على الاتفاقية الدولية لمحاربة كل أشكال التمييز ضد المرأة.

4- توحيد مكونات الأمة: أشار الدستور المغربي إلى أن مؤسسة إمارة المؤمنين في المغرب ظلت على الدوام رمزا لوحدة الأمة، والحكم الأسمى بين مؤسساتها، وعنصر توحيد، وجمع لمكوناتها، يحافظ على استقرارها الاجتماعي والسياسي والثقافي والديني وأمنها الروحي، مع احترام وحماية التعددية والاختلاف في الحياة الدستورية. وذلك من خلال مراقبة الحدود بين السلط التشريعية والتنفيذية

1 - نص الظهير على أنه يتعين على كل قيم ديني، في جميع الأحوال، وطيلة مدة مزاولته لمهامه، التحلي بصفات الوقار والاستقامة والمروءة التي تقتضيها المهام الموكولة إليه، مع الالتزام بأصول المذهب المالكي، والعقيدة الأشعرية، وثوابت الأمة، وما جرى به العمل بالمغرب، ومنع الظهير في هذا السياق على الأئمة والخطباء وجميع المشتغلين في المهام الدينية خلال مدة اشتغالهم، ممارسة أي نشاط سياسي أو نقابي، أو اتخاذ أي موقف يكتسي صبغة سياسية أو نقابية، أو القيام بأي عمل من شأنه وقف أو عرقلة أداء الشعائر الدينية، أو الإخلال بشروط الطمأنينة والسكينة والتسامح والإخاء، الواجبة في الأماكن المخصصة لإقامة شعائر الدين الإسلامي. كما منع الظهير على القيم الديني مزاوله أي نشاط في القطاع العام أو القطاع الخاص يدر عليه دخلا كيفما كانت طبيعته، إلا بترخيص مكتوب من السلطة الحكومية المكلفة بالأوقاف والشؤون الإسلامية، باستثناء الأعمال العلمية والفكرية والإبداعية التي لا تتنافى مع طبيعة المهام الموكولة إليه، تحت طائلة إنهاء العقد المبرم معه. انظر: ظهير شريف رقم 1.14.104 صادر في 20 من رجب 1435 هـ (20 ماي 2014م)، في شأن تنظيم مهام القيميين الدينيين وتحديد وضعياتهم، الجريدة الرسمية عدد 6268 الصادرة بتاريخ 28 شعبان 1435 هـ (26 يونيو 2014م).

والقضائية والحرص على توازنها، والمساهمة في التحكيم بين القبائل والسياسيين، ومكونات المجتمع المدني عند كل خلاف أو نزاع يظهر بينها، حيث يتدخل الملك بحكم صفته التحكيمية كأمر للمؤمنين لجمع الأطراف المتنازعة والفصل بينها، لتجاوز جميع الخلافات مهما كانت طبيعتها، ومن ثمَّ أضحت مؤسسة إمارة المؤمنين مظلة يستظل بها جميع الفاعلين والفرقاء، والضامن لوحدة مكونات الأمة بمختلف أطرافهم ومكوناتهم.

5- الدفاع عن حوزة البلاد: ويتجلى ذلك من خلال التزام أمير المؤمنين بموجب الدستور كرئيس للدولة وممثلها الأسمى بضمان استقلال البلاد والدفاع عن حوزة المملكة في دائرة حدودها الحقة، ودوام الدولة واستمرارها، بالإضافة إلى الحفاظ على حسن سير المؤسسات الدستورية، وصيانة الاختيار الديمقراطي، وحقوق وحرّيات المواطنين والمواطنات والجماعات، وعلى احترام التعهدات الدولية للمملكة¹.

وهكذا يتضح من خلال نماذج الوظائف المذكورة أن إمارة المؤمنين في المغرب ليست مجرد صفة ذات حمولة دينية، وإنما تشكل إطاراً شرعياً مؤسسياً منظماً، يركز على مجموعة من الآليات والضوابط، وأن لها مهاماً محددة، هذه المهام يمارسها الملك بمقتضى ظهائر يصدرها من خلال السلطات المخولة له بنص الدستور، وهذه خصيصة أكسبت المملكة المغربية طابعاً استثنائياً متفرداً، يكمن سره في فريدة التجربة المغربية في مجال إمارة المؤمنين، تجربة كان لها الفضل في ضمان وتعزيز أمن واستقرار المغرب روحياً وسياسياً، حتى إن عدداً من الدول طلبت الاستفادة من تجربة وخبرة المغرب في أمور تدبير الشأن الديني الذي تشرف عليه إمارة المؤمنين بكثير من الحكمة والتبصر.

وعليه، حُق لنا أن نفتخر كمغاربة بهذا الثابت الشرعي والمؤسسي، الذي أضحى مثالا يحتذى به، والذي أثبت أهميته ومكانته المتميزة في الحفاظ على وحدة الأمة واستقرارها واستمرارها لقرون عديدة، إلى جانب الثوابت الأخرى المتمثلة في الفقه المالكي والعقيدة الأشعرية والتصوف السني.

1 - الباب الثالث من الدستور الخاص بالملكية، الفصلان 41 و42.

الثواب الدينية وتجلياتها في التنمية من خلال النموذج التنموي المغربي الجديد

● ذ. محمد البخاري

كلية الشريعة بفاس.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الملك المعبود، واهب الحياة وخالق الوجود، نحمده تبارك وتعالى ونستعينه فهو الرحيم الودود، ونعوذ بنور وجهه الكريم من فكر محدود، وقلب مسدود، وأشهد أن لا إله إلا الله ذو العرش المجيد، الفعال لما يريد، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله ذو الخلق الحميد، والرأي الرشيد، والقول السديد.

أما بعد؛

فمن المعلوم عند أهل العلم أن الثواب الدينية تطلق على اختيارات المغرب منذ تأسيس دولته، في باب العقيدة والفقه، والسلوك، وطريقة الحكم، لتحقيق التوازن بين مصالحه في الدنيا والآخرة، وترسيخ قيم التعايش المشترك بين رعاياه في ربوع المملكة الآمنة، وبناء جسور التعاون مع شعوب العالم، تحت قيادة أمير المؤمنين نصره الله الحكيمة. ووصف هذه الثواب بالدينية لا يدل على وجود ثواب أخرى غير دينية، كما لا يعني ذلك أن وظيفة هذه الثواب التدين بمفهومه العامي الذي يطلق غالباً على فقه العبادات دون غيره؛ بل إن دلالتها أعمق وأشمل تعم قضايا الإيمان والعمل الصالح، مفهومهما وممارسة في بعدهما الروحي والمادي، دون تمييز بينهما بزمان أو مكان. ومن تجليات المعنى الشمولي للثواب الدينية، عنوان هذه الدراسة الذي وسمناه بـ: «الثواب الدينية ودورها في قيادة قاطرة التنمية، من خلال النموذج التنموي المغربي الجديد» ويراد بالنموذج التنموي، المنهج العام الذي يحدد تطلعات المغاربة وطموحاتهم المستقبلية، ويقترح طرق التنظيم وآليات التنفيذ للقضايا الوطنية الكبرى، وفق رؤية واضحة، تبدأ بترتيب الأولويات، وتنتهي بتنزيل الجزئيات، من خلال سياسة عمومية نزيهة وعادلة، قائمة على احترام المقدسات الدينية والوطنية للشعب المغربي الأبي.

وتستمد الثواب الدينية مكانتها من قواعد الإسلام، وعقيدة، وأحكاما، وأخلاقا، فهي زبدة قيمه التي يبني عليها المغاربة رصيدهم من الرأسمال غير المادي الذي يشكل اللبنة الأساس في خلق تنمية شاملة ومستدامة، تنمية مغربية خاصة تسقى من معين تراثه الفكري والفقهني والسلوكي، وتنتج ثمارا مغربية خالصة تغذي الروح والجسد، ليشثد بذلك بناء الصرح المغربي ويستوي قوامه، ويقوى حضوره في ظل مبادئ الوسطية والاعتدال، وتتجذر أسسه في تربة قيم التسامح والتعايش، فيخفف للمغاربة جناح الذل من الرحمة، ويعيش الكل في كنف نعمه تحت مظلة المودة والرأفة، والأخوة والمحبة التي تنشرها مؤسسة إمارة المؤمنين.

فالثواب الدينية أركان أربعة، تمثل الجبال الرواسي التي يسند الشعب المغرب إليها ظهره مطمئنا وآمنا، لكونها جمعت بين الأسس الدينية التي تحقق التدين الأمثل للمواطن المغربي المسلم، وبين الأسس الدنيوية التي ترشد المجتمع إلى ما فيه الخير في الحاضر، وتفتح له باب الاجتهاد لتدبير المستقبل، فالثواب الدينية بأبعادها الروحية والمادية من خصوصيات هذا الوطن المبارك.

وتسعى هذه الدراسة الى بيان قدرة الثواب الدينية على قيادة قافلة التنمية بالمغرب من خلال ما تتميز به من رصانة في التعيد، ومرونة في المنهج، كما أنها تحاول رفع الغموض الذي عم تمثلات الناس بكون هذه الثواب تهم الشأن الديني فقط ولا يمكنها إيجاد الحلول للقضايا الراهنة التي يعيشها الشعب المغربي وعلى رأسها مسألة التنمية، ويرمي هذا البحث أيضا إلى ربط قضية التنمية في بعدها الاجتماعي والاقتصادي بالبعد الروحي الذي يمثل جوهر التطور وشریان الحضارة.

إن النموذج التنموي الجديد انطلق من أرضية حدد أسسها أمير المؤمنين جلالة الملك محمد السادس نصره الله في ثلاثة توجيهات ليكون نموذجا تقييما، واستباقيا، واستشرافيا، وتقضي هذه التوجيهات المولوية السامية باقتراح وسائل لخلق الثروة، والبحث عن السبل الكفيلة بالتوزيع العادل لها، والعمل على تحقيق صيانة الكرامة الإنسانية. فهل استطاع النموذج التنموي الجديد أن يستحضر في صياغة تقريره الخصوصية الدينية والروحية للمغرب؟ وكيف تحدث عملية التأثير والتأثر بين الثواب الدينية وقضايا التنمية؟ ثم إلى أي حد يمكن للثواب الدينية أن تقوم بالدور القيادي للنموذج التنموي الجديد؟ وهل تمتلك هذه الثواب مقومات قيادة النموذج التنموي المغربي؟

هذه الأسئلة وإن كانت تطرح قضايا كبرى لا تتسع هذه الدراسة لاستيعاب تفاصيلها وجمع شتاتها إلا أنها تسلط الضوء على كثير من تفاصيلها الجزئية التي تصلح أن تكون محور الدراسات العلمية الجادة والمثمرة، وقد اقتضى أمر بحثها اعتماد الخطة الإجمالية التالية:

المحور الأول: الثواب الدينية: جذور إسلامية وخصوصية مغربية.

المحور الثاني: البعد القيادي للثواب الدينية في النموذج التنموي الجديد.

المحور الأول: الثواب الدينية جذور إسلامية وخصوصية مغربية

إن اختيارات المغرب في مسألة الثواب الدينية قائمة على أصل شرعي صريح، ذلك أن من صلاحية إمارة المؤمنين إقرار ما فيه مصلحة البلاد والعباد في المسائل الاجتهادية، حفاظا على وحدة الوطن، وسعيا لتوطيد أركان استقراره، وإقرار المذهب المالكي، والعقيدة الأشعرية، وطريقة الجنيّد، يدخل تحت قاعدة «تقييد السلطان للمباح أو الإلزام به» وقاعدة «تصرف الإمام على الرعية منوط بالمصلحة» لأن المغاربة لما بايعوا أمير المؤمنين فوضوا له هذه الصلاحية التي تخدم مصالحهم.

قال رشيد رضا: «الخلافة، والإمامة العظمى، وإمارة المؤمنين، ثلاث كلمات معناها واحد، وهو رئاسة الحكومة الإسلامية الجامعة لمصالح الدين والدنيا»⁽¹⁾. تستمد إمارة المؤمنين هذه الصلاحية من الأحكام الشرعية المنظمة لها، قال ابن حزم: «اتفق جميع أهل السنة وجميع المرجئة، وجميع الشيعة، وجميع الخوارج، على وجوب الإمامة، وأن الأمة واجب عليها الانقياد لإمام عادل، يقيم فيهم أحكام الله، ويسوسهم بأحكام الشريعة»⁽²⁾. أما وجوب الانقياد له فثابت بالكتاب والسنة.

فمن الكتاب قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَصْبِعُوا اللَّهَ وَأَصْبِعُوا الرُّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ، فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرُّسُولِ، إِنْ كُنْتُمْ تَوَمَّنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، لَمْ تَكُنْ خَيْرًا وَأَحْسَنَ تَأْوِيلًا﴾⁽³⁾. روى البخاري في الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «نزلت في عبد الله بن حذافة بن قيس الأنصاري البصري، وكان به دعاية؛ إذ بعثه رسول الله ﷺ على سرية، فأمرهم يومًا أن يجمعوا حطبًا ويوقدوا نارا ففعلوا، ثم أمرهم أن يدخلوها محتجًا عليهم بقوله ﷺ: (مَنْ أَطَاعَ أَمِيرِي فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ عَصَى أَمِيرِي فَقَدْ عَصَانِي). فلم يستجيبوا له، وقالوا له: إنما آمنا وأسلمنا لننجو من النار، فكيف نُعَذَّب أنفسنا بها؟! وذكر ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: (لو دخلوها ما خرجوا منها؛ إنما الطاعة في المعروف)»⁽⁴⁾. قال ابن حجر: «في هذا إشارة من المصنف إلى ترجيح القول الصائر إلى أن الآية نزلت في طاعة الأمراء، خلافا لمن قال نزلت في العلماء، وقد رجح ذلك أيضا الطبري... وقال ابن عيّنة: سألت زيد بن أسلم عنها، ولم يكن بالمدينة أح د يفسر القرآن بعد محمد بن كعب مثله، فقال: اقرأ ما قبلها تعرف، فقرأت:

1 - محمد رشيد رضا، الخلافة، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، د. ط. د. ت. ص: 16

2 - ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، مكتبة الخانجي، القاهرة، د. ط. د. ت. ج 4، ص: 72

3 - النساء: الآية: 58.

4 - صحيح البخاري، كتاب الأحكام، باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية، رقم الحديث: 7145

﴿إن الله يأمركم أن تولّوا الأمانات إلى أهلها، وإنا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل﴾ الآية 57، فقال: هذه في الولاية.⁽¹⁾

والأحاديث الدالة على طاعة أولي الأمر كثيرة، قال القنوجي: "وطاعة الأئمة واجبة إلا في معصية لله... فإن الأحاديث المتواترة - يقصد التواتر المعنوي - قد دلت على ذلك دلالة أوضح من شمس النهار، ومن له الاطلاع على ما جاءت به السنة المطهرة انشرح صدره لهذا، فإن به يجمع شمل الأحاديث الواردة في الطاعة مع ما يشهد لها من الآيات القرآنية"⁽²⁾. وقد حدد الرسول ﷺ الفئة التي تتولى أمور المسلمين فقال: «لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي منهم اثنان»⁽³⁾ قال النووي: "هذا الحكم مستمر إلى آخر الدنيا ما بقي من الناس اثنان"⁽⁴⁾. قال الكرمانى: «فإن قلت كيف خلا زماننا عن خلافهم؟ قلت: لم يخل، إذ في المغرب خليفة منهم على ما قيل»⁽⁵⁾. وعلى المستوى العملي فقد بايع الصحابة أبا بكر بعد وفاة الرسول ﷺ، وبناء على هذه الأدلة الساطعة «اتفق الأئمة رحمهم الله تعالى على أن الإمامة فرض، وأنه لا بد للمسلمين من إمام يقيم شعائر الدين، وينصف المظلومين من الظالمين»⁽⁶⁾.

فالإمامة والأئمة بينهما روابط متينة مبنى ومعنى؛ إذ الهمزة والميم أصل واحد، يتفرع منه أربع أبواب، وهي الأصل، والمرجع، والجماعة، والدين، وهذه الأربعة متقاربة. والإمام: "كل من اقتدي به وقُدِّم في الأمور"⁽⁷⁾. وبناء على هذا التلاحم اللغوي والشرعي فإن الإمام له السلطة الشرعية لاختيار ثوابت يجمع عليها وحدة الأمة؛ إذ من مهامه «حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة، فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع، في حراسة الدين وسياسة الدنيا به»⁽⁸⁾. وانطلاقاً من هذا المبدأ الشرعي والواقعي الذي تقوم عليه إمارة المؤمنين فإن المولى إدريس لما بايعه المغاربة اختار لهم

1 - ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار المعرفة - بيروت، د. ط، 1379، ج 13، ص: 111

2 - أبو الطيب القنوجي البخاري، العبرة مما جاء في الغزو والشهادة والهجرة، تحقيق، محمد السعيد زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 1985، ص: 40 و 42

3 - صحيح البخاري كتاب الأحكام، باب الأمراء من قريش، رقم الحديث: 6721. وصحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب الناس تبع لقريش، رقم الحديث: 1820

4 - النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط 2، 1392 هـ ج 12، ص: 200

5 - الكرمانى، الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط 2، 1401 هـ - 1981 م، ج 24، ص: 194

6 - الجزري، الفقه على المذاهب الأربعة، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط 2، 1424 هـ - 2003 م، ج 5، ص: 336

7 - ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق، عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، د. ط، 1399 هـ - 1979 م. كتاب الهمزة، باب الهمزة في الذي يقال له المضاعف، (مادة أم)

8 - ابن خلدون، المقدمة، تحقيق خليل شحادة، دار الفكر، بيروت ط 2، 1408 هـ - 198 م، ج 1، ص: 239

منذ ذلك الحين مذهب مالك في الفروع الفقهية. ولعل من الأسباب التي دفعت المولى إدريس لاختيار مذهب مالك رسمياً في المغرب روايته للموطأ عن والده عبد الله الكامل «وهكذا جاءهم بالموطأ فنشره بينهم، وكان يؤثر عنه قوله: نحن أحق باتباع مذهب مالك، وقراءة كتابه، وذلك لرواية الإمام إدريس للموطأ عن والده عبد الله الكامل»⁽¹⁾. وهذا ما أكدته الكتاني حين قال: «وبدخول الموطأ المغرب تحول المغاربة من المذهب الحنفي إلى المذهب المالكي، إذ لم يكد القرن الرابع يطل، حتى كان المذهب المالكي قد بدأ ينتشر في المغرب الأقصى وتتجدر أصوله وفروعه في سائر مرافق الحياة»⁽²⁾.

وأمام هذا الرأي هناك توجه ثان يؤكد على أن إدريس بن إدريس اختار مذهب الإمام مالك ليكون رسمياً للدولة، وأصدر أمره لولاته بذلك؛ بل جزم البعض أن إدريس بن إدريس كان مالكي المذهب، ويحفظ الموطأ ويستوعبه.⁽³⁾

وبناء على ما سبق فإن المذهب المالكي ظل منذ اعتماده بشكل رسمي في المغرب شعاراً من شعارات الدولة المغربية، باعتباره مظهراً من مظاهر الوحدة الدينية التي أسهمت في تكوين الشخصية المغربية المتشعبة بقيم التسامح والتعايش مع الآخر؛ نظراً لكون المذهب المالكي يشكل مدرسة تربوية قائمة الأركان، وقادرة على استيعاب المستجدات وضبط المتغيرات، لما تتميز به من شمولية في الأصول، وتنوع في القواعد، ومرونة في المنهج، مما جعل الكثير من القوانين الوضعية تستمد نظامها وبنودها من فقهه، إضافة إلى أن مالكا رحمه الله كان عالم المدينة وفقهها، عرف بدفاعه الشديد عن السنة الصحيحة، وبتمسكه بسنة الصحابة والتابعين، والعمل بأرائهم، فورث علم أهل المدينة، هذا كله جعل المغاربة مجمعين عليه، ومدافعين عنه، ومقبلين على الالتزام بمذهبه.

وتتجلى مكانة إمارة المؤمنين في العقيدة الأشعرية من خلال مبحث الإمامة العظمى وما يرتبط بها من الاعتقاد، وقد وقع بين علماء الكلام الاختلاف في مسألة نصب الإمام؛ إذ يرى البعض أنه واجب على الخالق كما قرر ذلك الإسماعلية، وبعضهم قال واجب على الخلق، واختلفوا في الوسيلة، فقليل واجب عليهم عقلاً وهو مذهب أكثر المعتزلة، وقليل واجب عليهم شرعاً، وهو مذهب الأشاعرة وغيرهم من أهل السنة، وقد جمع بين الأمرين الجاحظ وأبو الحسن البصري وأبو القاسم الكعبي (ت).

1 - عبد الهادي التازي، جامع القرويين المسجد والجامعة بمدينة فاس موسوعة لتاريخها المعماري والفكري، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، 1973 م. ص: 118

2 - محمد بن جعفر الكتاني، الأزهار العاطرة الأنفاس في ذكر بعض محاسن قطب المغرب وتاج فاس المطبعة الجديدة، 1414 هـ، ص: 130

3 - المكناسي، جدوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام بمدينة فاس، طبع دار المنصور للطباعة والوراقة الرباط، ج 3، ص: 25. الناصري، الاستقصا في أخبار دول المغرب الأقصى لأحمد بن خالد الناصري دار الكتاب البيضاء. 1997 / 1 205 بتصرف

319 هـ) من المعتزلة، فرأوا أنها تجب بالعقل والشرع معا.⁽¹⁾ ويرى أبو الحسن الأشعري: "أن الواجبات كلها سمعية، والعقل لا يوجب شيئا، ولا يقتضي تحسينا ولا تقييحا"⁽²⁾.

وتبرز علاقة إمامة المؤمنين بالعقيدة الأشعرية في كون نصب الإمام مما يتوقف عليه الواجب الشرعي من عبادات ومعاملات وغيرهما، وما يتوقف عليه الواجب الشرعي، واجب تحصيله شرعا. أما وجه بحث مسألة إمامة المؤمنين في علم الكلام فإنه لنفي ما ارتبط بها من الاعتقادات الخاطئة، يقول مصطفى الكستلي: «والإمامة جعلها من مقاصد علم الكلام: وإن كانت هي أيضا من الفروع عندنا، بناء على أن نصب الإمام من الأفعال الواجبة علينا، لما أن السلف ألحقوا مباحثها بأواخر الكتب الكلامية بناء على أنه قد شاع بسببها خرافات من أهل البدع والأهواء، في حق كبار الصحابة والأئمة المهديين، فناسب دفع المطاعن عنهم بمباحث الكلام، صونا لعقائد المسلمين عن الزيغ في الدين، بسبب الميل إلى ما يحكونه ويحاكون ويلمحونه ويبدون»⁽³⁾. والظاهر أن بحث الإمامة في علم الكلام كان الغاية منه التعرض للانحراف العقدي الذي صاحب مسألة نصب الإمام وما ارتبط بذلك من خرافات أثرت سلبا على إيمان الناس، ذلك أن أمور الدين متوقفة على مؤسسة إمامة المؤمنين، فتصويب المعتقد تجاهها يدرج ضمن مباحث علم الكلام.

ومما تميز به المذهب الأشعري أنه خرج من رحم الصراع الفكري الذي عرفه المشرق، وقد أسس قواعده على منهج الجدل والحجاج من خلال معاركة الفكرية مع المعتزلة، الذي كان أبو الحسن على دراية تامة بأصولهم ومنهجهم حين كان معتزليا قبل أن يعرض عن ذلك ويبني مذهبه العقدي على أصول وقواعد مقننة، استمدها من منهج أهل السنة والجماعة، فكان بذلك قادرا على جمع الأمة وتوحيد صفها وفق ما يقتضيه مبدأ الوسطية والاعتدال، بعيدا عن التطرف والغلو والانحراف "وحين اختار المغاربة الأشعرية، فإنهم كانوا يعيشون مثل الظرف الذي شهد نشأة الأشعرية، وهو ظرف اكتسحت فيه الفرق الكلامية الحياة الدينية، وألزمت الناس باختياراتها، فكان قصد المغاربة الاستفادة من الخصائص الجدالية الأشعرية، فواجهوا به العقائد المستفحلة. وكان من أثر نشر هذا المذهب أن غاضت المذاهب وتهاوت بعد سجال الأشعرية معها وتفكيك مقولاتها، وإبراز مواضع الضعف فيها"⁽⁴⁾.

1 - محمد الأمين الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - لبنان، د. ط، 1415 هـ - 1995 م، ج 1، ص: 23

2 - الشهرستاني، الملل والنحل، مؤسسة الحلبي، د. ط، د. ت، ج 1، ص: 101

3 - مصطفى الكستلي، شرح العقائد النسفية للإمام التفتازاني، تحقيق، طه عبد الرؤوف سعد، المكتبة الأزهرية للتراث، ط 1، 2000، ص: 15

4 - مصطفى بنحمزة، سلفية الأمة والتمثيلات المغربية، درس حسني قدم سنة 1436 هـ، منشور بموقع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، <http://www.habous.gov.ma>

أما طريقة الجنيد فإن روابطها بإمارة المؤمنين تبدو قوية؛ إذ التصوف السني يستمد مشروعيته من تصرفات الرسول ﷺ، وسيرة الخلفاء الراشدين الذين كانوا أئمة المسلمين، وقد حث النبي ﷺ أمته على الاقتداء بهم، ودلت السنة على أن الإحسان أعلى درجات الدين، كما جاء في حديث جبريل عليه السلام، ومن ثم لم يخل عصر من الأعصار في مدة الإسلام - كما قال الإمام القشيري - إلا وفيه شيخ من شيوخ هذه الطائفة ممن له علوم التوحيد.⁽¹⁾ إن طريقة الجنيد هي أسلم طرق التصوف لكونها خالية من الشبهات والبدع. وقد قال: «من لم يحفظ القرآن، ولم يكتب الحديث، لا يقتدى به في هذا الأمر؛ لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة»⁽²⁾، وقال: «ومذهبنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة»⁽³⁾، وقال أيضاً: «الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى أثر الرسول عليه الصلاة والسلام»⁽⁴⁾. وقال في التصوف: «تصفية القلب عن موافقة البرية، ومفارقة الأخلاق الطبيعية، وإخماد الصفات البشرية، ومجانبة الدواعي النفسانية، ومنازلة الصفات الروحانية، والتعلق بالعلوم الحقيقية، واستعمال ما هو أولى على الأبدية، والنصح لجميع الأمة، والوفاء على الحقيقة، واتباع الرسول ﷺ في الشريعة»⁽⁵⁾.

وارتباطا بما سبق فإن طريقة الجنيد مؤسسة على منهج النبوة، ومذهب الخلفاء، وهي بذلك طريقة لحفظ النظام العام للمغرب؛ لأن أتباع هذه الطريقة يقولون بالإجماع على تحريم الخروج عن الإمام بقول أو فعل، وهو ما عبر عنه الشيخ زروق في قواعد التصوف القاعدة 89 بقوله: «حفظ النظام واجب، ومراعاة المصلحة العامة لازم، فلذا أجمعوا على تحريم الخروج عن الإمام، بقول أو فعل...»⁽⁶⁾. فالتصوف يلزم الرعية بالالتفاف حول مؤسسة إمارة المؤمنين والاجتهاد في خدمتها، يقول الطرطوشي: «فحقيق على كل رعية أن ترغب إلى الله تعالى في إصلاح السلطان، وأن تبذل له نصحتها، وتخصه بصالح دعائها، فإن في صلاحه صلاح العباد والبلاد، وفي فساده فساد العباد والبلاد، وكان العلماء يقولون: إن استقامت لكم أمور السلطان، فأكثرُوا حمد الله تعالى واشكروه، وإن جاءكم ما تكرهون، وجهوه إلى ما تستوجبونه منه بذنوبكم، وتستحقونه بأثامكم، فأقيموا عذر السلطان بانتشار الأمور عليه، وكثرة ما يكابده»⁽⁷⁾.

1 - القشيري، الرسالة القشيرية، تحقيق، عبد الحليم محمود، الدكتور محمود بن الشريف، دار المعارف، القاهرة، د. ط. د. ت. ج 2، ص:

572

2 - المصدر نفسه ج 1، ص: 71

3 - المصدر نفسه، ج 1، ص: 79

4 - المصدر نفسه، ج 1، ص: 79

5 - أبو بكر محمد الكلاباذي، التعرف لمذهب أهل التصوف، دار الكتب العلمية - بيروت، د. ط. د. ت. ص: 25

6 - الشيخ زروق، قواعد التصوف، دار البيروتي دمشق، طبعة 1: سنة 1424 هـ - 2004 م، ص: 125

7 - أبو بكر الطرطوشي، سراج الملوك، أوائل المطبوعات العربية - مصر، د. ط، 1289 هـ، 1872 م، ص: 48

المحور الثاني: البعد القيادي للشوايت الدينية في النموذج التنموي الجديد

أولاً: تأطير مؤسسة إمارة المؤمنين للنموذج التنموي

شخصت مؤسسة إمارة المؤمنين في خطاباتها المتكررة الاختلالات التي يعيشها المغرب في مجال التنمية، قال صاحب الجلالة محمد السادس حفظه الله ونصره في خطابه السامي: «إن النموذج التنموي الوطني أصبح اليوم غير قادر على الاستجابة للمطالب الملحة، والحاجيات المتزايدة للمواطنين، وغير قادر على الحد من الفوارق بين الفئات، ومن التفاوتات المجالية، وعلى تحقيق العدالة الاجتماعية»⁽¹⁾. ومن خلال تتبعه حفظه الله لمسألة التنمية بالمغرب قال في خطابه الثاني: «لقد دعوت من هذا المنبر في السنة الماضية، إلى إعادة النظر في النموذج التنموي الوطني... لذا قررنا تكليف لجنة خاصة... على أن ترفع إلى نظرنا السامي، مشروع النموذج التنموي الجديد، مع تحديد الأهداف المرسومة له، وروافد التغيير المقترحة، وكذا سبل تنزيله»⁽²⁾. وتفعيلاً للدور القيادي لإمارة المؤمنين في قضية كبرى تهم الشأن المغربي، فإن جلالته حفظه الله ونصره، أعطى للجنة المكلفة بإعداد النموذج التنموي الجديد التوجيهات اللازمة لتقوم بعملها على أكمل وجه فقال: «وإننا ننتظر منها أن تباشر عملها بكل تجرد وموضوعية، وأن ترفع لنا الحقيقة، ولو كانت قاسية أو مؤلمة، وأن تتحلى بالشجاعة والابتكار في اقتراح الحلول... ويبقى الأهم هو التحلي بالحزم والإقدام، وبروح المسؤولية العالية، في تنفيذ الخلاصات والتوصيات الوجيهة التي سيتم اعتمادها، ولو كانت صعبة أو مكلفة»⁽³⁾.

إن المتأمل في وظيفة أمير المؤمنين، وحامي حمى الوطن والدين، جلالة الملك محمد السادس نصره الله، فيما يتعلق بتحقيق التنمية يجدها قائمة على أمرين:

أحدهما: التركيز على ما هو موجود ومحقق ليتم البناء عليه، فقال حفظه الله ونصره موجهها خطابه للجنة التي كلفها بإعداد النموذج التنموي الجديد ومن خلالها إلى كل المغاربة: «إن الأمر لا يتعلق بإجراء قطيعة مع الماضي، وإنما نهدف لإضافة لبنة جديدة في مسارنا التنموي، في ظل الاستمرارية»⁽⁴⁾.

1 - مقتطف من خطاب صاحب الجلالة، افتتاح الدورة الأولى من السنة التشريعية الثانية من الولاية التشريعية العاشرة - 13 أكتوبر 2017.

2 - مقتطف من خطاب صاحب الجلالة افتتاح الدورة الأولى من السنة التشريعية الثالثة من الولاية التشريعية العاشرة - 12 أكتوبر 2018.

3 - مقتطف من خطاب صاحب الجلالة الملك محمد السادس عيد العرش - 29 يوليوز 2019.

4 - مقتطف من خطاب صاحب الجلالة الملك محمد السادس عيد العرش - 29 يوليوز 2019.

والثاني: الابتكار والإبداع في اقتراح ما يفيد المجتمع المغربي في تطوير بلاده: «وإننا ننتظر منها أن تبأشر عملها... وأن تتألى بالشجاعة والابتكار في اقتراح الحلول»⁽¹⁾.

إن قيادة أمير المؤمنين لقاطرة التنمية بالمغرب تنطلق من توظيفه للثوابت الدينية التي يسهر على حفظها، كما جاء في الظهير الشريف رقم 1.08.16 الصادر في 20 أكتوبر 2008م بإعادة تنظيم المجالس العلمية: «بناء على مقتضيات الدستور التي تحول لجلالتنا بصفتنا أمير المؤمنين واجب السهر على حماية وصون القيم والتعاليم الإسلامية للمغاربة المسلمين، فيما يتصل بصون عقيدتهم، وممارسة شعائهم، بما ينسجم مع روح ديننا الإسلامي الأصيل، ويتمأشى مع نهج أسلافنا المنعمين، من عقيدة أشعرية، ومذهب مالكي، وصوفية سنية»؛ لأن هذه الثوابت تقوم بدور التأطير والتوجيه، كما أشار إلى ذلك وزير الأوقاف الشؤون الإسلامية السيد أحمد التوفيق قائلاً: «وأن هذه الثوابت ذات وظيفة تأطيرية، إذ توطر أمرين أساسيين هما: العمل، والإيمان، مصداقاً لقوله تعالى: (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكنن لهم دينهم للعلماء الذين ارتضى لهم، وليمكننهم من بعد خوفهم أمناً)⁽²⁾، أي أن عمل الصالحات في علاقته بالاستخلاف في الأرض، ينطبق بالخصوص على عمل الأمة، وعلى رأسها الدولة في عملها السياسي»⁽³⁾. وهذا من خصوصيات الجمع بين الديني والديني في النموذج المغربي، فأمر المؤمنين نصره الله باعتباره ملك البلاد، وهو الساهر على مصالح العباد بموجب الصلاحيات الدينية والسياسية التي نص عليها دستور المملكة المغربية عام 2011م.⁽⁴⁾

إن الجمع بين الديني والديني هو مظهر من مظاهر الرؤية الشاملة التي تنظر بها مؤسسة إمارة المؤمنين للإسلام، وقد اهتم أهل العلم قديماً وحديثاً ببيان العلاقة بين العبادات والمعاملات والأخلاق، حرصاً منهم على بناء مفهوم شمولي للدين، الذي يحصره البعض في مجال العبادات فقط؛ بل اعتبروا كلا من العبادات والمعاملات والأخلاق حقوقاً جامعة لحق الله والعبد، ومركبة منهما، وأن هذه الحقوق مبنية كلها على مبدأ جلب المصالح ودرء المفاسد.⁽⁵⁾ فإمارة المؤمنين تتبوأ المكانة الأعلى في هذه الثوابت

1 - الخطاب نفسه.

2 - النور، الآية: 53

3 - السيد أحمد التوفيق وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية، الثوابت الدينية للمملكة المغربية وجذورها في عمل السلف الصالح، درس حسني قدم يوم الثلاثاء 24 يوليوز 2012م بالرباط، افتتاح الدروس الحسنية الرمضانية. موقع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية. <http://habous.gov.ma>

4 - عبد الحميد العلمي، مهام إمارة المؤمنين الدينية والدينية في ضوء المقاصد الشرعية، بحث نشر يوم الإثنين 20 مايو 2019م بموقع مؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة، <https://www.fm6oa.org>

5 - العز بن عبد السلام، قواعد الأحكام في مصالح الأنام، مكتبة الكليات الأزهرية - القاهرة، ط1، جديدة مضبوطة منقحة، 1414 هـ - 1991 م، ج1، ص: 153

الدينية لكونها تتحمل مسؤولية حفظ الأمن الديني والديني للمغاربة؛ أي لها صلاحية تأطير الجانب الإيماني والجانب العملي مصداقا لقوله تعالى: (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ، وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا⁽¹⁾). وفي ذلك اقتداء بالمنهج النبوي باعتباره خليفة للمسلمين، حيث قام بوظيفة تبليغ الرسالة قولاً وعملاً، وبني الدولة، وثبت أركانها، لتأخذ مسارها الصحيح في عهد الخلفاء الراشدين على أساس البيعة الشرعية، التي تجمع في عمقها وممارستها شؤون الدين والدنيا، وهو ما قام به أمير المؤمنين حين أعطى تعليماته السامية لابتكار نموذج تنموي مغربي.

وبناء على المبدأ الجامع بين الدين والدنيا في مهام إمارة المؤمنين، أسس الدستور المغربي قواعده التي تحكم علاقة الشعب بحاكمه؛ حيث نص على أن المملكة المغربية دولة ديمقراطية يسودها الحق والقانون، وأنها تلتزم بما تقتضيه المواثيق الدولية من حقوق وواجبات. وأشار الفصل الأول منه إلى بيان نظام الحكم بالمغرب باعتباره نظام ملكية دستورية ديمقراطية برلمانية واجتماعية. ولعل قيادة أمير المؤمنين للنموذج التنموي تجسد فيها كل هذا؛ فهو باعتباره ملكا يستمد شرعيته من البيعة الشرعية، فقد وجه خطابه للأمة محذرا إياها من المخاطر التي تحذر بالتنمية في المغرب، وباعتبار سلطته القائمة على التشاور، فقد أسند مهمة البحث عن نموذج تنموي جديد إلى لجنة تتميز بالكفاءة والتجربة والحنكة، تمثل مختلف التخصصات العلمية وغيرها، وباعتباره ممثلا لجميع فئات الشعب المغربي فقد حث على أن يكون النموذج التنموي شاملا لكل شرائح المجتمع المغربي، قائلاً حفظه الله ونصره: "لقد دعوت... إلى إعادة النظر في النموذج التنموي الوطني، وبلورة منظور جديد، يستجيب لحاجيات المواطنين، وقادر على الحد من الفوارق والتفاوتات، وعلى تحقيق العدالة الاجتماعية والمجالية، ومواكبة التطورات الوطنية والعالمية"⁽²⁾.

إن قيادة أمير المؤمنين نصره الله للنموذج التنموي المغربي في بعده الديني والديني، يدخل في صلاحيته التي نص عليها الدستور، ومنها ما جاء في الفصل 42: "الملك رئيس الدولة، وممثلها الأسمى، ورمز وحدة الأمة، وضامن دوام الدولة واستمرارها، والحكم الأسمى بين مؤسساتها، يسهر على احترام الدستور، وحسن سير المؤسسات الدستورية، وعلى صيانة الاختيار الديمقراطي، وحقوق وحرريات المواطنين والمواطنات والجماعات، وعلى احترام التعهدات الدولية للمملكة".

1 - النور، الآية: 53

2 - مقتطف من خطاب صاحب الجلالة في افتتاح الدورة الأولى من السنة التشريعية الثالثة من الولاية التشريعية العاشرة،

12 - أكتوبر 2018

ثانيا: السلطة المرجعية للثوابت الدينية في النموذج التنموي

تبرز هذه السلطة في أمرين اثنين:

الأمر الأول: اعتماد اللجنة المكلفة في صياغتها للنموذج التنموي على الثوابت الدينية، كما جاء في التقرير نفسه «يستند تصور النموذج التنموي الجديد على الدستور كإطار مرجعي... صادقت عليه الغالبية العظمى من المغاربة، المرجعية الموحدة، والجامعة للنموذج التنموي الجديد»⁽¹⁾. وقد بني الدستور المغربي على دعامتين كما جاء في الخطاب السامي لجلالة الملك قائلا: «وتتمثل الدعامات الأولى، في التشبث بالثوابت الراسخة للأمة المغربية، التي نحن على استمرارها مؤمنون؛ وذلك ضمن دولة إسلامية، يتولى فيها الملك، أمير المؤمنين، حماية الملة والدين، وضمان حرية ممارسة الشعائر الدينية»⁽²⁾. وجاء في الفقرة 2 من الفصل الأول من الدستور: «تستند الأمة في حياتها العامة على ثوابت جامعة، تتمثل في الدين الإسلامي السمح...». وأكد الفصل الثالث على ذلك بقوله: «الإسلام دين الدولة، والدولة تضمن لكل واحد حرية ممارسة شؤونه الدينية»⁽³⁾. وقد اختار المغاربة مذهب مالك في الفقه مرجعا لهم، كما اعتمد النموذج التنموي على ذلك أيضا حين نص على أن: «المذهب المالكي بسمااته المتميزة، والقدرة على استلهاهم الحلول من مدارس التفسير الأخرى، فضلا عن الترسخ الثابت، والقدرة على مواكبة التطورات التي تمنحها له مؤسسة إماراة المؤمنين، كلها عوامل تعطي للأمة المغربية القدرة والمرونة الضرورييتين لتطورها»⁽⁴⁾.

بناء على هذه الاعتبارات فإن الثوابت الدينية هي المنهج النظري والعملي للدين الإسلامي، الذي أجمع المغاربة على التدين به، وهي أيضا من هذا المنطلق مرجع وأصل للنموذج التنموي الجديد، الذي يجب أن تساغ محاوره وفق مبادئ الإسلام.

الأمر الثاني: احتكام المغاربة في قضايا التنمية المختلف فيها إلى الثوابت الدينية، التي تقوم بدور القيادة والإرشاد في بناء نموذج تنموي منسجم مع الخصوصية المغربية، «المتبوع لمسار التدين بالمغرب يستخلص بعد قراءة متأنية أن هذا النموذج لم يكن في يوم ما أكثر قوة ومنعة مما هو عليه الآن، وقد كان من التصارييف الإلهية أن وفق الله أمير المؤمنين، ومنذ أن اعتلى عرش أسلافه المنعمين، إلى العكوف على

1 - اللجنة الخاصة بالنموذج التنموي، التقرير العام للنموذج التنموي الجديد، نسخة أبريل 2021، ص: 40

2 - الخطاب السامي لصاحب الجلالة، وجهه إلى الأمة المغربية، مساء يوم الجمعة، 17 يونيو 2011

3 - وزارة العدل، دستور المملكة المغربية 2011، إصدارات مركز الدراسات وأبحاث السياسة الجنائية، بمديرية الشؤون الجنائية والعفو،

سلسلة نصوص قانونية، شتنبر 2011، العدد 19

4 - التقرير العام للنموذج التنموي، ص: 40

تقوية هذا النموذج بإصرار شديد، وبنفس طويل، وبإرادة لا يعترها الكلال ولا الملل، فأنشأ شبكة من المؤسسات الراعية للتدين، وأصدر مجموعة من الظهائر المؤسسية⁽¹⁾.

وقد أشارت اللجنة المكلفة بالنموذج التنموي إلى احتكام المغاربة في قضايا مهمة إلى هذه الثوابت، وعلى رأسها قضية مدونة الأسرة المغربية، «إن المذهب المالكي بسماته المتميزة... ومؤسسة إمارة المؤمنين، كلها عوامل تعطي للأمة المغربية القدرة والمرونة الضروريين لتطورها، كما تم إثبات ذلك من خلال إصلاح مدونة الأسرة. ويشكل هذا مصدر إلهام ومعياري منهجي للنموذج التنموي الجديد»⁽²⁾.

ومما يدل على أن الثوابت الدينية صالحة لتكون حَكَمًا يقرب وجهات النظر بين مختلف الشرائح الاجتماعية بالمغرب في قضايا التنمية، قيام النموذج التنموي الجديد على اقتراح مجموعة من القضايا الدينية التي لها صلة وطيدة بالتنمية ومناقشتها من طرف أهل الاختصاص، جاء فيه: «ولأجل ذلك... يقترح خلق فضاءات للنقاش المجتمعي والفقهية باعتباره إطارا هادئا ورصينا، قصد التقدم في مناقشة بعض القضايا المجتمعية»⁽³⁾، ونص أيضا على هذه القضايا التي تعتبر من صميم التنمية، ويتوقف الحسم فيها على ضرورة موافقتها للثوابت الدينية.

ومما لا شك فيه أن هذا التوجه يعد من صميم التنمية الشاملة، نظرا لما ترتبط به من فئات اجتماعية، لها دورها الفعال والمؤثر في الإقلاع التنموي، لأن ذلك من اختصاص الشريعة بالدرجة الأولى، لأنها تهم الشعب المغربي، فإن صلاحية الحسم فيها من الناحية الفقهية تعود للمجلس العلمي الأعلى، الذي يرأسه جلالة الملك حفظه الله ونصره «يرأس الملك، أمير المؤمنين، المجلس العلمي الأعلى، الذي يتولى دراسة القضايا التي يعرضها عليه. ويعتبر المجلس الجهة الوحيدة المؤهلة لإصدار الفتاوى المعتمدة رسميا، بشأن المسائل المحالة عليه، استنادا إلى مبادئ وأحكام الدين الإسلامي الحنيف، ومقاصده السمحة»⁽⁴⁾. وتفاديا لأي انحراف قد يقع باسم الدين فإن جلالتة نص في خطابه السامي على أن الفتوى عمل مؤسساتي، حيث قال حفظه الله: «أحدثنا هيئة علمية داخل المجلس العلمي الأعلى، لاقتراح الفتاوى على جلالتنا، وفيما يتعلق بالنوازل التي تتطلب الحكم الشرعي المناسب لها، قطعاً لدابر الفتنة والبلبل في الشؤون الدينية، وإننا لنتنظر منكم أن تجعلوا من هيئة الفتوى، آلية لتفعيل الاجتهاد الديني،

1 - مصطفى بنحزمة، سلفية الأمة والتمثيلات المغربية، درس حسني قدم سنة 1436 هـ، منشور بموقع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، <http://www.habous.gov.ma>

2 - التقرير العام للنموذج التنموي، ص: 41 - 42

3 - المرجع نفسه ص: 107.

4 - الفصل 41 من دستور المملكة المغربية، مرجع سابق، ص: 28.

الذي تميز به المغرب على مر العصور، في اعتماده على أصول المذهب المالكي، ولا سيما قاعدة المصالح المرسلّة، وقيامه على المزاوجة الخلاقة، بين الأنظار الفقهية، والخبرة الميدانية. وبذلكم تقوم بتحسين الفتوى التي هي أحد مقومات الشأن الديني، بجعلها عملاً مؤسسياً، واجتهاداً جماعياً، لا مجال فيه لأدعياء المعرفة بالدين، ولتطاول السفهاء والمشعوذين، ولا للمزاعم الافتراضية الفردية»⁽¹⁾.

إن ربط النمو الاقتصادي للبلاد بالمؤسسات الدينية أمر مهم لما يحققه ذلك من سكينة روحية، واطمئنان للمواطن على دينه، حين يرى تدخل العلماء في القضايا المجتمعية الكبرى للحسم فيها من وجهة نظر الشرع، إذ شعور الشعب المغربي المسلم بالارتياح على مستوى التدين، يحفزّه على المشاركة والمبادرة في بناء التنمية المغربية، لكونه يرى ذلك تعبداً، مصداقاً لقوله تعالى: (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون)⁽²⁾، وقوله تعالى: (وتعاونوا على البر والتقوى)⁽³⁾ وقوله تعالى: (وفل يعملوا بسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون)⁽⁴⁾ وقول الرسول ﷺ: (الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى، وَالْيَدُ الْعُلْيَا الْمُنْفِقَةُ، وَالسُّفْلَى السَّائِلَةُ)⁽⁵⁾، إذ كل هذه التوجيهات الإسلامية تَضْمَنُ الثوابت الدينية، تحققها في النموذج التنموي المغربي.

وعليه؛ فالاحتكام الى الثوابت الدينية يؤثر إيجاباً على النموذج التنموي الجديد من خلال المدخلات التالية:

◆ ربط التنمية بالقيم الشرعية المستمدة من الوحي؛

◆ دمج مختلف المؤسسات الدينية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها من الفاعلين في المشروع التنموي الجديد انطلاقاً من مبدأ التشارك بضوابطه الشرعية الملزمة لكل المشاركين؛

◆ تفعيل قواعد الحكامة الجيدة، من خلال ربط المسؤولية بالمحاسبة، باعتبارها أصلاً شرعياً، لقوله ﷺ: (كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته)⁽⁶⁾؛

◆ تحقيق النجاعة الاقتصادية، انطلاقاً من مبادئ الإسلام في كسب المال وإنفاقه.

1 - الخطاب الملكي السامي الذي ألقاه صاحب الجلالة الملك محمد السادس بمناسبة ترؤسه لافتتاح الدورة الأولى لأعمال المجلس العلمي الأعلى بالقصر الملكي بفاس في 08 يوليوز 2005.

2 - الذاريات، الآية: 56.

3 - المائدة، الآية: 3.

4 - التوبة، الآية: 106.

5 - متفق عليه، رواه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، بَابُ لَا صَدَقَةَ إِلَّا عَنْ ظَهْرِ غَنَى، رقم الحديث: 1429، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، بَابُ بَيَانِ أَنَّ الْيَدَ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى...، رقم الحديث: 1033.

6 - صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب المرأة راعية في بيت زوجها، رقم الحديث: 5200.

فالمغاربة حين ينظرون إلى الدين في علاقته بالتنمية، يركزون على مدى حضوره العملي في التوجهات العامة للبناء التنموي، وهذا له أثر واضح على تطور التنمية؛ لأن الدين له علاقة بسلوك المسلم سواء المالي أو غيره، إذ بناء التنمية على الثوابت الدينية تجعل المسلم يقبل عليها وينخرط في مسارها، أما مخالفتها لها، تدفعه إلى الابتعاد، وتجنب الخوض في ذلك، بناء على الوازع الديني الذي يشير إليه الحديث النبوي الشريف: (فَمَنْ أَتَقَى الْمَشَبَّهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعَرْضِهِ)⁽¹⁾.

خاتمة

يمكن القول إن البحث في مجال التنمية انطلاقاً من منظور شرعي، لازال لم يستوف حقه بعد؛ إذ معظم ما كتب اعتمد على التأصيل لقضايا التنمية مع الإشارة إلى توجهات الإسلام في ذلك، والحال أن التنمية مرتبطة بواقع المسلم المتطور؛ فهي أيضاً متجددة ومتحركة، لكونها تسعى إلى البحث عن الرفاه والتقدم، لذلك أرى أن الوقت قد حان لدراسة مسألة التنمية وفق منهج شرعي، ينطلق من التحديات التي تواجه التنمية في المغرب، ويقترح البدائل التي أشار إليها الإسلام، لبناء نموذج تنموي ثابت الأركان، ويمتلك القدرة على التطور والتجدد. ولعل هذا ما يسعى إليه المغرب من خلال ثوابته الدينية التي تحظى باهتمام مؤسسة إماراة المؤمنين، وقد حاولت هذه الدراسة أن تكشف طبيعة العلاقة بين الثوابت الدينية والنموذج التنموي المغربي الجديد، وقد توصل هذا البحث إلى النتائج التالية:

— إن اختيارات المغرب في مسألة الثوابت الدينية قائمة على أصل شرعي صريح؛ لأن من صلاحية إماراة المؤمنين إقرار ما فيه مصلحة البلاد والعباد في المسائل الاجتهادية، حفاظاً على وحدة الوطن، وسعيًا لتوطيد أركان استقراره، فأقرار المذهب المالكي، والعقيدة الأشعرية، وطريقة الجنيد، يدخل تحت قاعدة «تقييد السلطان للمباح أو الإلزام به» وقاعدة «تصرف الإمام على الرعية منوط بالمصلحة» لأن المغاربة لما بايعوا أمير المؤمنين فوضوا له هذه الصلاحية التي تخدم مصالحهم.

— ظل المذهب المالكي منذ اعتماده بشكل رسمي في المغرب، شعاراً من شعارات الدولة المغربية، باعتباره مظهرًا من مظاهر الوحدة الدينية التي أسهمت في تكوين الشخصية المغربية المتشعبة بقيم التسامح والتعايش مع الآخر.

— إن طريقة الجنيد مؤسسة على منهج النبوة، ومذهب الخلفاء، وهي بذلك طريقة لحفظ النظام العام للمغرب؛ لأن أتباع هذه الطريقة يقولون بالإجماع على تحريم الخروج عن الإمام بقول أو فعل.

— الثوابت الدينية لا تمهم الشأن الديني فقط؛ بل يمكنها إيجاد الحلول للقضايا الراهنة التي يعيشها

1 - صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، رقم الحديث: 52

الشعب المغربي، وعلى رأسها مسألة التنمية، فهي قادرة على قيادة قافلة التنمية بالمغرب من خلال ما تتميز به من رصانة في التقعيد، ومرونة في المنهج.

— انطلق النموذج التنموي الجديد من أرضية حدد أسسها أمير المؤمنين جلالة الملك محمد السادس نصره الله في ثلاثة توجيهات ليكون نموذجا تقييما، واستباقيا، واستشرافيا، وتقضي هذه التوجيهات المولوية السامية باقتراح وسائل لخلق الثروة، والبحث عن السبل الكفيلة بالتوزيع العادل لها، والعمل على تحقيق صيانة الكرامة الإنسانية.

— إن البناء التنموي متوقف على البناء الإنساني، لذلك اهتمت الثوابت الدينية بخدمة الإنسان؛ إذ لا قيام لمصالح الدين والدنيا إلا بصلاح الإنسان، ولا وجود للإنسان البناء إلا إذا نشأ في مجتمع مستقر، يحفظ له كل حقوقه المادية والروحية وهذا ما تحققه الثوابت الدينية للمواطن المغربي.

— إن تحقق العدالة في مجال التنمية متوقف على التزام المواطن المغربي بالثوابت الدينية، إذ بهذا التماسك يمكن استثمار قيم الدين في إنتاج الثروة وتنميتها، وبالتالي التخفيف من حدة الفقر وتحقيق الرفاه، فضعف التنمية في بلد ما، دال بوجه ما على ضعف التدين بذاك البلد؛ إذ الدين يحث على العمل ويشجع على المبادرة إلى فعل الخير، ويحفز على الإبداع والابتكار.

— إن تعليمات أمير المؤمنين نصره الله فيما يتعلق بتحقيق التنمية قائمة على أمرين: أحدها التركيز على ما هو موجود ومحقق ليتم البناء عليه. والثاني: الابتكار والإبداع في اقتراح ما يفيد المواطن المغربي.

— الثوابت الدينية مرجع شرعي للنموذج التنموي الجديد، من خلال اعتماد اللجنة المكلفة في صياغتها للنموذج التنموي على هذه الثوابت، كما جاء في التقرير نفسه، ومن خلال احتكام المغاربة في قضايا التنمية المختلف فيها إلى الثوابت الدينية.

— إن ربط النمو الاقتصادي للبلاد بالمؤسسات الدينية أمر مهم، لما يحققه ذلك من سكينة روحية، واطمئنان للمواطن على دينه، حين يرى تدخل العلماء في القضايا المجتمعية الكبرى، للحسم فيها من وجهة نظر الشرع، إذ شعور الشعب المغربي المسلم بالارتياح على مستوى التدين يحفز على المشاركة والمبادرة في بناء التنمية المغربية، لكونه يرى ذلك تعبدا.

— من أجل توظيف الثوابت الدينية في مجال التنمية، بادر أمير المؤمنين نصره الله إلى تأهيل الشأن الديني، فمسألة تقدم البلاد، متوقفة على رفع كل التحديات التي ترتبط بالحقل الديني في علاقته بالتنمية البشرية.



مقالات داعمة

من أرشيف مجلة دعوة الحق مجلة دعوة الحق في سنتها الأولى

• ذ. أحمد بلخيري

أستاذ التاريخ- فاس.

صدر العدد الأول من مجلة دعوة الحق في شهر يوليوز من سنة 1957م، وما زالت المجلة تصدر إلى الآن. وهذا معناه أن عمر المجلة تجاوز الستين سنة، وبناء عليه يمكن الجزم أنها المجلة المغربية الوحيدة التي استطاعت تحقيق هذه الاستمرارية باقتدار، فمنذ سنة 1957م إلى الآن تمكنت مجلة دعوة الحق من إصدار أربعمئة وثمانية وثلاثين عددا. 438 عددا، اشتملت على آلاف الصفحات، غطت مختلف دروب المعرفة، وشارك بالكتابة فيها الجلم الغفير من الكتاب والمفكرين، من مختلف المشارب والتوجهات، من المغرب والعالم العربي والإسلامي. وأصبحت المجلة علامة فارقة في تاريخ الثقافة المغربية. وبهذه المناسبة عنّ لنا الرجوع إلى البدايات الأولى للمجلة، من خلال تصفح أعداد سنتها الأولى، فكان هذا الحديث من أرشيف المجلة.

- الأرشيف : يمثل الأرشيف مصدرا فريدا من نوعه، فهو الأثر الوثائقي للنشاط البشري، وبذلك فإنه الشاهد الذي لا يمكن الاستغناء عنه في سرد أحداث الماضي.¹

ويكتسي الأرشيف أهمية بالغة لدى الشعوب، فمنذ اكتشاف الكتابة سارعت مجموعة من الحضارات القديمة، إلى جمع وصيانة تراثها الوثائقي، وذلك بغية حفظ ذاكرتها التاريخية، ولأن الماضي يصلنا دائما بالحاضر، فإن الأرشيف طالما كان وما يزال وسيظل دوما حاملا في طياته لتاريخ وحاضر ومستقبل الأمم.²

ولم تستطع الوثائق الأرشيفية أن تظل بمعزل عن تيار الرقمنة، فالمكتبة الوطنية الفرنسية على سبيل المثال تضم 15 مليون كتاب ومطبوعات ومخطوطات وصور فوتوغرافية وخرائط.

1 Ico.org

2 - حاتم بومهود: الأرشيف ذاكرة الأمة، حاضرها ومستقبلها، أرشيف المغرب، العدد 1 2016 ص 36

وتسمح اليوم مكتبتها الرقمية gallica بتصفح مليون و 800 ألف مجلة وجريدة.¹

وحسب إحصاءات مكتبة الكونجرس ينشر العالم حوالي 50 ألف مجلة.²

والأرشفة عملية حفظ وتخزين الوثائق التي سوف تستعمل في البحث التاريخي.³

ويشكل الرصيد الثقافي لكل أمة الجسر الذي يربط قيم الماضي بمعطيات الحاضر، ولأن القراءة هي الوسيلة الأولى للمعرفة والثقافة فإن آراء العلماء والمفكرين وتجاربهم تستحق أن تتعرف عليها الأجيال الجديدة القارئة.⁴

ففي القراءة درر وكنوز، ويرى الجرجاني في أسرار البلاغة أن الباحث عن المعاني كالغائص على الدرر.⁵

- المجلة: المجلة بمفهومها الحالي نشرة دورية شهرية أو فصيلة، تتناول مواضيع متنوعة، يغلب عليها طابع الجدية والتعمق والبحث، تعنى بالبحوث المعرفية والفكرية، وعرض الكتب والأنشطة الثقافية.

والمجلة الثقافية هي المطبوع الذي يجمع بين وحدة العنوان، ودورية الصدور، مؤطرة لهياة تحرير، تشرف على سياسة النشر، وانتقاء المادة، والموضوع، تبعاً لرؤية ومنهجية محددة.⁶

والمجلة هي وسيلة للنشر والتواصل مع القراء، وتشكل وثيقة عند دراسة وتحليل هذا المنتج، ويرى الدكتور شكري فيصل أن أهمية المجلة الثقافية تكمن في كونها مدرسة للمثقفين، ودعامة المتعلمين، ومدرسة لتخريج الناشئين.⁷

وتقدم المجلات الفكرية تحليلاً عميقاً للأحداث الجارية والثقافية والسياسية⁸، وبالتالي تكون المجلة مندرجة في حركة التاريخ الثقافي، فالمعرفة التي تقدمها تشير إلى اتجاهات فكرية وظروف تاريخية معينة.

Gallica.BNF.FR 1

2 - المجلة العربية للثقافة ع الرابع مارس 1983 ص 27

3 - سلوى الميلاد: قاموس مصطلحات الوثائق والأرشيف القاهرة 1982

4 - سلسلة أقرأ عدد تذكاري خمسون عاماً من الثقافة دار المعارف ذات ص 5

5 - سعيد الغانمي قراءات في الحكاية العربية ط 2 بغداد 2014

6 - صلاح عيسى : الدوريات الثقافية ومشروع النهضة العربية كتاب العربي ع 3 ص 154

7 - نورية الرومي : مجلة العربي ودورها الثقافي والتنويري كتاب العربي ع 72 ص 105

8 - الموسوعة العربية العالمية المجلد 22 ط 2 1992 الرياض ص 284

ووعيا من وزارة الثقافة بالدور المحوري الذي تلعبه المجلات في الحياة الثقافية، نظمت خلال الدورة العشرين للمعرض الدولي للنشر والكتاب بالدار البيضاء، معرض المجلات الثقافية المغربية «الذاكرة والامتداد» عرضت من خلاله نفائس المجلات المغربية، وذلك ترسيخا للعلم والمعرفة، وتذكيرا بعمل الرواد الأوائل، وتعريفا بتلك المجلات النفيسة التي ما تزال إلى اليوم منها لا تنضب حياضه.¹

- مجلة دعوة الحق

على رأس مجلات المغرب المستقل أقدم المجلات المغربية، وحينما ندقق في تاريخ الاصدار يمكن القول إنها أقدم المجلات المستمرة الصدور، اعتبارا أن العدد الأول من مجلة العربي الكويتية صدر في شهر ديسمبر 1958 م.

تولى إدارة المجلة في بداية صدورها المكّي بادر والمفتش العام المكلف بتسيير وزارة الأوقاف وترأس تحريرها الأستاذ عبد القادر الصحراوي.²

ودعوة الحق سدت فراغا هائلا كان يشكوه مغرب الاستقلال في الميدان الثقافي والفكري والأدبي. وقد انبثقت هذه المجلة إلى الوجود وهي تحمل «دعوة الحق» وظلت أوسع دائرة للتثقيف والتوجيه، تنير الأذهان وتهذب الأفكار.³

وكونت مجلة دعوة الحق بمسارها التاريخي الطويل رصيда معرفيا هائلا بفضل ما كتب ونشر فيها من المادة العلمية الزاخرة، والمقالات الهامة، حتى أصبحت اليوم مصدرا أساسيا وثيقا، ومرجعا ثقافيا هاما.⁴

- مباركة ولي العهد الأمير مولاي الحسن لدعوة الحق

بعد الرسالة التوجيهية المعروفة التي بعثها المغفور له جلالة الملك محمد الخامس إلى مجلة دعوة الحق بمناسبة صدور عددها الأول في شهر يوليوز 1951 م والتي ما زالت تتصدر الصفحة الأولى في كل أعداد المجلة.

1 - المجلات الثقافية المغربية، الذاكرة والامتداد، منشورات وزارة الثقافة 2013

2 - عبد القادر الصحراوي : ولد سنة 1927 بالدار البيضاء، تابع دراسته العليا بجامعة القاهرة، يتوزع إنتاجه بين التاريخ والتحقيق. دليل الكتاب المغاربة أعضاء اتحاد كتاب المغرب، إعداد حسن الوزاني ط 1 1993 ص 260

3 - دعوة الحق ع 9 - 10 يوليوز غشت 1965 ص 4

4 - الفهرس العام لعناوين الموضوعات الصادرة في مجلة دعوة الحق منذ صدورها عام 1957 م إلى عام 1995 م، ج الأول وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ص 5

يطالعنا في العدد الثاني ما يمكن اعتباره افتتاحية العدد التي تحمل - عنوان - بيني وبينك - وقد صدر هذا العدد الثاني بصورة لصاحب السمو الملكي ولي العهد المحبوب الأمير الجليل مولاي الحسن مهداة إلى المجلة، وبكلمة من سموه يتحدث فيها عن دور والده العظيم في الإصلاح الديني، والاجتماعي، والثقافي، كما يبارك فيها سموه مجلة دعوة الحق.

- كلمة ولي العهد الأمير مولاي الحسن

«الإسلام والنهضة المغربية»

نقتطف منها الفقرات التالية التي تعبر ولا شك عن رؤية سموه للعديد من القضايا. تعتبر المرحلة التي يجتازها العالم الإسلامي في الوقت الحاضر من أهم المراحل في تاريخ الإسلام، وعلاقته بالتقدم الفكري والحضاري... والناظر في نهضة المغرب الحديثة المراقب لتطورها، يدرك أنها نهضة تهدف إلى إقامة مجتمع سليم، على مثال ما دعت إليه تعاليم الإسلام النقية الطاهرة، تلك التعاليم الداعية إلى الإيمان بالله، والعمل على ما فيه سعادة الدارين، والحكم العادل الذي يربط الحاكمين والمحكومين برباط الألفة، والمودة، والتعاون، على تحقيق الخير للمجموع، وضمان حرية العقيدة والفكر، والتصرف في حدود القانون، وحماية كل ما يعتز به الإنسان، من أسرة، ووطن، وتراث مادي، ومعنوي. وقد وجه جلالة والدي عنايته وهو يقود النهضة المغربية الكبرى، إلى إحياء التعاليم الإسلامية النقية، فحارب البدع، ونشر المعرفة، ومهد السبيل للعلم، وحمى الحريات، وعزم على إنشاء حكم ديمقراطي صالح، لا غنى عنه للأمم التي تنشُد حياة الأمن وعيشة الاستقرار.¹

- كلمة صاحبة السمو الملكي الأميرة عائشة

محمد الخامس وفضله على المرأة المغربية

وتتشرف دعوة الحق بنشر هذه الكلمة القيمة التي جاءت بها يراعة سموها، شاكرة لها لتلطفها وراجية لها في عملها كل توفيق ونجاح.²

أصبح من نافلة القول أن يتحدث متحدث عن دور المرأة في الحياة، وضرورة مساهمتها بجانب الرجل في حمل أعبائها، فالفطرة الإلهية هيأتها لذلك الدور، والشرائع السماوية والقوانين الوضعية الحكيمة لم تنكر ذلك عليها... ومن حسن حظ المغرب أن الله هيأ لقيادته نهضته رجلاً حكيماً، هو جلالة والدي، الذي درس أسباب التأخر وعرف علله، فهب يعمل على حسم الداء، وتهيئة العلاج، فكان في

1 - دعوة الحق ع 2 غشت 1957

2 - دعوة الحق ع 7 يناير 1958 ص 3

طليلة أعماله فتح المدارس في وجوه الفتيات، ودعوتهن دعوة ملحة إلى ولوجها من غير تردد، لقد كتب النجاح لأفكار جلالته، ومشاريعه الإصلاحية، لأنها مشاريع وأفكار تهدف إلى الصلاح. فها هي المرأة المغربية تثبت وجودها، وتبرهن عن حيويتها بما تقوم به من أعمال كبرى في ميادين التعليم، والصحة، والإدارة، ومشاريع البناء والعمران، وما تراها إلا قائمة بما هو أجل وأعظم، كلما أمنت في الثقافة وأوغلت في العرفان.¹

وحين نتصفح أعداد السنة الأولى من مجلة دعوة الحق التي انتظم صدورها شهريا، وانتقل عدد صفحاتها من ست وثلاثين صفحة في العدد الأول، إلى مائة وسبع وثلاثين صفحة في العدد الثاني عشر، نجد أنها استقطبت جل الأسماء اللامعة في الثقافة المغربية وكبار المفكرين، والشعراء أمثال: علال الفاسي، عبد الله كنون، المختار السوسي، الفاروقي الرحالي، عبد الوهاب بن منصور، عبد الهادي التازي، عبد المجيد بن جلون، عبد الرحمن الدكالي، عبد الكريم غلاب، الحسن السائح، تقي الدين الهلالي، إبراهيم الكتاني، محمد الحلوي، علي الصقلي. وقد حرصت المجلة منذ أن كانت على تمتين الصلات الروحية والفكرية بين أعضائها في الشرق والغرب، وهكذا فقد استقطبت حولها صفوة مختارة من الباحثين، ومجموعة من رجال الفكر والأدب.²

وتوصلت المجلة منذ بداياتها الأولى، لرغبة الكتاب العرب والمسلمين للمشاركة في موضوعاتها. فمنذ العدد الأول نجد مقالا للأستاذ مصطفى الزرقاء من سوريا بعنوان، حقيقة السعادة، ونجد من الكتاب العرب، محمد تيمور، رثيف خوري، سعد زغلول، ألفريد البستاني، عبد الوهاب عزام، ونجد مقالا للكاتب الإنجليزي الشهير، روم لاندو بعنوان الدراسات الإسلامية بأمريكا.³

ولكي نعطي فكرة موجزة عن القضايا التي طرقتها كتابها في السنة الأولى من صدورها، نسرّد عناوين مقالات بعض كتابها على سبيل المثال:

- علال الفاسي : لا يكاد عدد من أعداد السنة الأولى من المجلة يخلو من كتابات الزعيم علال الفاسي فقد استهلّت المجلة عددها الأول بمقال له تحت عنوان: «لا جمود ولا جحود»، وحمل مقال العدد الثاني: «لا شيوعية ولا رأسمالية». وفي العدد المزدوج 4-5 نجد قصيدة للزعيم علال الفاسي بعنوان: «ثورة الصحراء»، بمناسبة إحياء جلالة الملك محمد الخامس ليلة عيد المولد النبوي. وبالعدد الثاني عشر مقال: «التفكير الاجتماعي».

1 - دعوة الحق ع 7 يناير 1958

2 - دعوة الحق ع 9 - 10، يوليوز، غشت 1965

3 - دعوة الحق ع 4 - 5 مرجع سابق

- **عبد الوهاب بن منصور** : تنوعت كتابات الأستاذ بن منصور بين المقالات الأدبية، والتاريخية، والعلمية.

- ع 1: الدعوة إلى الحق
ع 2: حظ العلماء من معركة البناء
ع 3: زال الإكراه وأصبحنا مسؤولين
ع 4-5: جهاد جيل
ع 6: حول تبسيط الكتابة المطبعية
ع 7: على هامش الرحلة الملكية
ع 8: إصلاح الكتابة العربية
ع 11: الطبيب عبد الوهاب الدراق

- على هامش الرحلة الملكية :

تبرز أهمية المعلومات والشهادات الحية التي تضمنتها أعداد مجلة دعوة الحق، من خلال مقال الأستاذ بن منصور، فقد أعطى وصفا دقيقا للرحلة الملكية للولايات المتحدة. وزود القارئ بمعلومات هامة، ومما جاء في المقال، فالمغرب قد استفاد كثيرا من جولة ملكه بين المحيطين: الأطلسي والهادي، إذ أصبح ذكره يجري على ألسنة عشرات الملايين من البشر، حتى قال أحد كبار موظفي الأمم المتحدة، إن هذه الجولة التي استغرقت ثمانية عشر يوما، كانت خيرا للمغرب من دعاية عشرة أعوام.

ولم تكن الرحلة الملكية رحلة بروتوكولية. «لقد كان جلاله الملك يعلن للناس في كل مكان عن طموح المغرب إلى حياة كريمة، ويفصح عن رغبته في الإصلاح والبناء، وقد قدر الشعب الأمريكي وحكومته هذه المطامح واستحسنوها، وتقدم المسؤولون في واشنطن بعروضهم لمساعدة المغرب على التطور، من غير أن يطلب منهم المغاربة شيئا تصرّحا أو تلميحا. وهذا يبين أهمية هذه الجولة في تمهيد سبل تعاون حريين الدولتين خال من القيود والشروط»¹.

وبينما نتصفح مقالات أعداد السنة الأولى، نجد أن دعوة الحق سباقة لإثارة موضوع حقوق الإنسان الذي عالجها الأستاذ رشيد الدرقاوي تحت عنوان «الإسلام وحقوق الإنسان» من خلال ثلاثة أعداد، كما كانت المجلة سباقة لفتح صفحاتها للمرأة المغربية منذ مطلع الاستقلال، حيث تطالعنا

1 - دعوة الحق ع 7 يناير 1958 ص 15

قصيدة الأنسة وفاء من الدار البيضاء بعنوان: إلى المجد¹؛ وأتحفنا العدد الممتاز من السنة الأولى عبر خمس صفحات بتغطية أطروحة الدكتوراه التي ناقشها المرحوم المهدي المنجرة، نجتزأ منها التقديم التالي: هذا فصل مترجم بتصرف من الأطروحة التي تقدم بها السيد المهدي المنجرة إلى قسم العلاقات الدولية بكلية الحقوق بجامعة لندن، ونال بها درجة دكتور في القانون. وموضوع الأطروحة «الوحدة العربية» وهي تقع في أكثر من خمسمائة صفحة. والأطروحة مكتوبة باللغة الإنجليزية، ونحن إذ نقدم منها الفصل الأول الذي هو بمثابة مقدمة لها، نرجو أن يوفق الدكتور إلى ترجمتها كاملة إلى اللغة العربية، ليكون بذلك قد وضع لبنة من اللبنة الأساسية في صرح الثقافة المغربية التي ننشدها جميعا ونعمل من أجلها.²

- ديوان المجلة

حرصت المجلة منذ صدور عددها الأول إلى الآن أن تخصص حيزا معتبرا للقصائد، والمقطوعات الشعرية التي تجود بها قرائح الشعراء في المغرب وخارجه في شتى المناسبات ستحمل لاحقا اسم ديوان المجلة، بل كانت صفحاتها في بعض الأحيان منبرا للسجال بين الشعراء، ومن بين ما نجده في أعداد السنة الأولى على سبيل المثال، القصائد التالية / احتفاء بصدور مجلة دعوة الحق:

- دعوة الحق للأستاذ محمد الطنجي.³

- تحية للشاعر علي الصقلي.⁴

- من أصداء دعوة الحق

حظيت المجلة منذ صدورها بترحيب واسع، وتزخر الأعداد الأولى برسائل الإعجاب، والتنويه من داخل المغرب وخارجه، مبدية إعجابها بالنجاح الذي حققته، واصفة إياها بالمجلة الراقية الحافلة بالدراسات والأبحاث والمقالات، المساهمة في ازدهار الفكر والثقافة. ففي مقابلة خاصة مع الأستاذ عبد الله كنون، إثر عودته، من الديار المقدسة دار الحديث حول مجلة دعوة الحق، فأكد لنا أنها حظيت بإعجاب الذين أتيح لهم أن يطلعوا عليها من إخواننا في الشرق، وأن الأوساط الثقافية، والمهتمين بشؤون الإصلاح، ينتظرونها هناك بفارغ الصبر.⁵

وكتب إلينا من العراق سعادة سفير المملكة المغربية بالعراق السيد الحاج الفاطمي بن سليمان يقول: وإن كان شيء يقال عن المجلة من حيث تبويبها وموضوعاتها فما هو إلا الإعجاب من جانب

1 - دعوة الحق ع 2 غشت 1957

2 - دعوة الحق ع 12 يونيو 1958 ص 63

3 - دعوة الحق ع 1 يوليوز 1957 ص 25

4 - دعوة الحق ع 12 يونيو 1958 ص 94

5 - دعوة الحق ع 3 شتنبر 1957

الطبقة الفكرية في العراق التي تبارك هذا الاتجاه التثقيفي، ونوعيته الجديدة، وموضوعاته العلمية المجردة من كل تحيز... ولم يكن حرصي على زيادة نسخ المجلة إلا رغبة في أن يطلع عليها أكبر عدد ممكن من جمهور المثقفين بالعراق والأردن¹. وكتب إلينا من تونس الشاعر الأستاذ عبد الكريم بن ثابت السكرتير الأول لسفارة المملكة المغربية بالجمهورية التونسية يقول: حضرت منذ شهر حفلة شيقة، أقامها رئيس الجمهورية التونسية الحبيب بورقيبة تكريماً للشعراء. كنت أتحدث مع أحد علماء الزيتونة الذي شكرني على «دعوة الحق» التي نرسلها إليه باستمرار، وكان يسمع الحديث بعض الشخصيات التونسية، فأبدى الجميع إعجابهم بالمجلة، ولست أكتمك أنها مقروءة بإعجاب².

تلك إذن عينة من الأصدقاء التي خلفها صدور مجلة دعوة الحق في ربوع الوطن العربي مغربه ومشرقه. وتواصلت أصدقاء التنويه بالمجلة في المرحلة المعاصرة. ويعبر المقال التالي عن مكتبة المنارة الأزهرية أصدق تعبير بالغ الدلالة عما وصلت إليه مجلة دعوة الحق عبر مسارها الطويل، ولم نتردد في إيراد المقال على طوله: صارت مجلة دعوة الحق شعلة وضاءة في سماء الفكر المغربي الحديث، واستطاعت خلال مسيرتها الطويلة أن تجمع حولها نخبة من كبار المفكرين المسلمين، وطائفة من أعظم رواد الثقافة العربية، وجماعة من أنبغ الأدباء وهم أكثر من أن يحصوا. وهكذا احتوت دعوة الحق خلال رحلتها المباركة ما يقرب من 1300 كاتب، حرروا أزيد من 6000 مقال، ودراسة متنوعة وشاملة لأوجه الفكر المغربي والعربي الإسلامي والبشري عامة، على اختلاف منطلقاته وتوجهاته.

وإذا نظرنا إلى مسيرة هذه المجلة التي تعد من أعرق المجلات الفكرية والثقافية في بلاد الإسلام، يمكننا أن نلاحظ مجموعة من الخصائص التي لازمتها منها :

- **تنوع الكُتَّاب** : فلم تقتصر المجلة على الكُتَّاب المغاربة وحدهم بل انفتحت على غيرهم من المغاربة من الجزائر، وتونس، وليبيا، وموريتانيا، وانفتحت كذلك على الشرق العربي، فاحتضنت كُتَّاباً بارزين، من مصر، وسوريا، والعراق، وفلسطين، والخليج العربي، وامتد إشعاعها إلى الشرق الأقصى، فحرر فيها كُتَّاب من باكستان والهند وإيران.

- **تنوع الموضوعات** : لم تقتصر مجلة دعوة الحق كذلك على المضامين الخاصة بالمغرب، أو بلاد العرب والمسلمين، بل تناولت ما تعلق بالعصر من مستجدات فكرية، وتحليل، وموضوعات، ومناقشات علمية وأدبية.

1 - دعوة الحق ع 9 مارس 1958

2 - دعوة الحق، مرجع سابق، يتحدث المقال عن 50 سنة من عمر المجلة

- انطلاقها من تصور واضح للتراث وأهميته في تحقيق النهضة... كما حافظت على صلتها بعصرها...

- متابعتها للنضال المغربي من أجل التحرر، ورفض التبعية والاستغلال.

- الانفتاح على الثقافات والاتجاهات الفكرية السائدة.

إن كل هذه الخصائص والسمات تبرز أهمية مجلة دعوة الحق، وعظمة الجهود التي بذلها المشرفون عليها من أجل جعلها منارة للثقافة، والفكر بالمغرب ومحيطه العربي الإسلامي والعالمي، حتى صارت في وقتنا الحاضر بفضل ما حوته من موضوعات مهمة بأقلام كتّاب مرموقين، مرجعا لا يستغنى عنه في دراسة التاريخ، والأدب، والفكر، والثقافة.¹

- على سبيل الختم

بما أن مجلة دعوة الحق تعد مرجعا لا يستغنى عنه، وبما أن الأرشفات لم تعد في الزمن الحاضر تمثل ركاما من الوثائق، بل تحولت إلى مكون رئيسي في حياة الشعوب والدول، ينظر من خلالها إلى المستقبل عبر استكشاف الماضي، وسبر أغواره.²

فإننا نطرح بعض الاقتراحات للاستغلال الأمثل للذخيرة التي تحتويها المجلة:

- مواصلة فهرسة المجلة بمجموع أعدادها، تيسيرا للباحثين على الاستفادة من رصيدها الضخم، من المقالات والدراسات.

- نهيب بأساتذة جامعاتنا توجيه طلبتهم في سلك الماستر والدكتوراه لإعداد أطاريحهم حول محتويات المجلة في مختلف فروع المعرفة.

وفي الأخير نقترح أن يخصص كل سنة يوم دراسي للمجلة، بمناسبة ذكرها الخامسة والستين، لقاء ما قدمته للثقافة المغربية، وما ستقدمه إن شاء الله للمهتمين من موضوعات علمية، بمشاركة ثلة من العلماء العاملين، والأساتذة الباحثين.

1 Tahasafeer. Bloysfot.com الجمعة 20 مايو 2011

2 - سالم لبيض: أرشيف سلالة وتراث شعب مثال الأرشيف الوطني التونسي، مجلة المستقبل العربي ع 465 نوفمبر 2017 ص 90

جوانب من الاهتمامات الفكرية في حياة السلطان الحسن الأول (1290 - 1311 هـ / 1873 - 1894 م)

ذ. محمد شابو - طنجة.

يعتبر عصر السلطان المولى الحسن بن محمد بن عبد الرحمن (1290-1311 هـ / 1873-1894 م) من أزهر العصور العلمية بالمغرب، وأكثرها حيوية وثراء في مجال الفكر والمعرفة، علاوة على ما شهدته هذا العصر من اهتمام بجوانب سياسية كتحديث الجيش، وتطوير العلاقات الدولية، وتوطيد الجبهة الداخلية.

يقول المرحوم عبد الهادي التازي في هذا السياق: «إنه بمقدار ما كان السلطان المولى الحسن يولي اهتماماً للأحداث الدولية التي تتطور بسرعة، وبخاصة فيما يمس المغرب، وبمقدار ما كان مشغولاً بأمر استقرار البلاد جنوباً وشمالاً - حتى قيل: إن عرشه كان على صهوة جواده - كان مشغولاً بالحياة الفكرية في البلاد»¹.

ومردّد هذا الانشغال والاهتمام بالحياة الفكرية في البلاد من قبل السلطان المولى الحسن؛ يرجع بالدرجة الأولى إلى النشأة العلمية التي نشأ عليها منذ صغره في كنف جده السلطان المولى عبد الرحمن بن هشام (1237-1275 هـ / 1822-1859 م) والذي: «كان له بتأديبه وتهذيبه وتدريبه اهتمام زائد، ويختار لتعليمه جلة الأساتذة وفضلاء الأعلام»². كما أنّ شغفه بالمعرفة، ومحبه للاطلاع والتحصيل العلمي، إضافة إلى نبوغه المبكر؛ دفعت بجده السلطان أن يوجهه للقراءة والدرس بقبيلة بني أحمر³

1 - التازي عبد الهادي. جامع القرويين: المسجد والجامعة بمدينة فاس، دار نشر المعرفة، الرباط، ط 2، 2000 م، (3/773).
2 - ابن زيدان عبد الرحمن. إتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط 1، 1429 هـ - 2008 م، (2/145).
3 - قبيلة بني أحمر، أو أولاد أحمر: تقع مجالاتها غرب مدينة مراكش، يخترق أرضها وادي تانسيفت؛ من مراكزها الشيعية واليوسيفية. انظر: معلمة المغرب، (1/177).

الشهيرة بأحواز مراكش والتي كانت توجد بها مدرسة خاصة بالأمرأء¹ وسط مدينة الشّماعية؛ وأصدر في شأن ذلك ظهيراً وجهه لابنه المولى محمد بن عبد الرحمن يشير فيه عليه باختيار فقهاء وعلماء يقومون بوظيفة التدريس والتعليم لفائدة الأمير المولى الحسن، ومما ورد في الظهير الشريف: «فإن سيدي حسن - أصلحه الله - أراد القراءة ولم نجد له فقيها، فقد عرضنا ذلك على كل من هنا من طلبة مراكش، فلم يُرد أحد الذهاب لأحر، وكتبنا لك، فعلك تجد من يقبل، ولا حول ولا قوة إلا بالله، فإنه ظهرت فيه قريحة، ومولعٌ بقراءة الأمهات، - المختصر وغيره - فلا بد؛ انظر وابحث عسى أن تجد من يصلح لذلك ما دام الغصن رطباً، فإن تعلم الصّغر كالنقش في الحجر»².

كان من شأن هذا الإجراء التربوي الذي اتخذهُ السلطان المولى عبد الرحمن تمكين المولى الحسن من الاستفادة من دراسة علمية جادة «وإبعاده عن كل ما من شأنه أن يؤثر عليه من معالم البذخ والترف في مراكش التي هي عاصمة للمملكة آنذاك»³.

قضى السلطان المولى الحسن فترة شبابه منشغلاً بتحصيل شتى أنواع المعارف المختلفة من العلوم الدينية واللغوية، والعلوم الرياضية "التي كان له بها ولوع تام"⁴. وكان له اهتمام خاص بعلوم الكيمياء، حتى يروى عنه أنه "كان يقضي كل أوقات فراغه في دراسة [هذا الفن]، كما كان له مختبر في القصر خاص بعلوم الكيمياء في قاعة توجد فيها معدات ووسائل هذا العلم"⁵. واهتم به وبتحصيله وتفهمه عناية فائقة ولم "يبق بأقطار المغرب ومشايخه من ينتمي إلى هذا العلم إلا وقد أمر بإحضاره، وبحثه عن مبلغ علمه فيه حتى يتحقق ما عنده لديه، وبعده يأمره بمقامه عنده ومصاحبته له حضراً وسفراً، ويرتب له ولعياله ما يكفيه من النفقة والكسوة وغير ذلك"⁶.

1 - مدرسة الأمرأء بالشّماعية: أسسها السلطان سيدي محمد بن عبد الله (1171-1204 هـ/ 1757-1789 م) لتعليم أولاده وأحفاده، فكانت مركزاً للتعليم الأمرأء ومرافقيهم القرآن الكريم ومختلف العلوم والفنون، ويرجع سبب تشييدها في قبيلة بني أحر ما أورده الأستاذ محمد المختار السوسي على لسان الباشا إدريس منو: «أن السلطان خرج مرة في معسكره يتجول متنكراً ليلاً، فشاهد حول فسطاط ما أعجبه من المروءة وقراءة القرآن بكثرة، فسأل عن صاحب المقرأة، وأحسب أن اسمه: هد بن الضو، وفي الصباح أمر بعرض القبائل عليه، حتى وصل الحميريين، فظل يسأل عن مشاهير قبيلتهم، فيتقدم إليه رؤساء جهال، فقال: أين فلان؟ فتقدم إليه، فقال: أنت أولى بالتقدم على الجميع، أسعد الله بك قبيلتك، فقد وليتك فيها، ثم قال له: أحب أن تنظر لي مكاناً أشيد فيه داراً ليتعلم فيها أولادي بين ظهرانيكم، لما أعجبني من سميتكم ومحبتكم لحفظ القرآن، قال: فذلك هو السبب حتى صار أولاده ثم أحفاده يتعلمون هناك». انظر: السوسي محمد المختار. حول مائدة الغذاء، مطبعة الساحل، الرباط، بدون تاريخ، ص 24.

2 - ابن زيدان، إتخاف أعلام الناس، (2/ 145)، مرجع سابق.

3 - الوكيل محمد التهامي. "جلالة السلطان مولاي الحسن الأول"، مجلة دار النبوة، سنة 1989 م، عدد 22، ص 42.

4 - ابن زيدان عبد الرحمن. النهضة العلمية على عهد الدولة العلوية. تحقيق: مصطفى الشابي، تقديم: عبد الحق الميرني، المطبعة الملكية، الرباط، 1437 هـ - 2016 م، ص 261.

5 - بنين أحمد شوقي. تاريخ خزائن الكتب بالمغرب، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، ط 1، 1424 هـ/ 2003 م، ص 105.

6 - المشرفي محمد. الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية، وعد بعض مفاخرها غير المتناهية، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، ط 2، 1440 هـ/ 2018 م، ص 469.

وقد شهد بنبوغه الفكري، ومكانته العلمية غير واحد من علماء ومؤرخي عصره، منهم:

- الفقيه العلامة المؤرخ: عبد السلام بن أحمد اللجائي العمراني (ت: 1332هـ / 1914م)

قال في المفاخر العلية: "لسيدنا المنصور مقام كبير في العلم الشريف، من نحو وفقه وحديث وغيرها. أما النحو، فكثيراً ما يُخطئ بعض كتّابه، ويبيّن له لحنه، ويرشده للصواب، وأما الفقه، فكفانا أنه يحفظ مختصر أبي الضياء سيدي خليل، وأما الحديث، فلم يمارس أحد من أهل الوقت قراءة صحيح البخاري ممارسته.."¹.

- الفقيه العلامة المؤرخ محمد بن إبراهيم السباعي (ت: 1332هـ / 1914م)

قال في البستان الجامع: "كان المولى الحسن رابطاً عنان وجهته حلقة باب العلم، مقصور النظر على طلب فنونه، معتكفاً على ذلك، لا تشوّف له إلى شيء غير البحث عن جمعه وتفهمه"².

- الفقيه العلامة المؤرخ مصطفى المشرفي (ت: 1334هـ / 1916م)

قال في الحلل البهية: "وأما تعاهد العلوم، ولا سيما الحديث، ففي كلها سبقه معلوم، ركب متون فنونها فراضها، ووقع في بحور معانيها فخاضها، وحاز بعناية الله لبابها، وميّز بذهنه الثاقب حبابها، ولم يفته علم شرعي ولا فلسفي"³.

- الفقيه العلامة المؤرخ عبد الرحمن بن زيدان: (ت: 1365هـ / 1946م)

قال في النهضة العلمية: "ربّي في أحضان العلم، وهصر وهو غصّ الإهاب فنون الأدب، فكان يتيمة الدهر، وسلافة العصر، وريحانة الألباء، وكعبة الأدباء، يتضوع من أفنان أدبه نفح الطيب، وتنتفح ريحانة الكتاب منه عن كل معنى غريب، وكان له بالعلوم الرياضية ولوع تام"⁴.

من خلال شهادات هؤلاء الأعلام نلاحظ درجة المرتبة العلمية للسلطان المولى الحسن، ومكانة المعرفة وقيمتها في فكره، والأهمية الكبرى التي كان يوليها لهذا الجانب؛ والمتجلية في نهله من شتى

1 - اللجائي عبد السلام. المفاخر العلية والدرر السنية في الدولة الحسنية العلوية، دراسة وتحقيق: محمد الدريدي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، ط 1، 1439هـ / 2018م، (2/ 535).

2 - السباعي محمد بن إبراهيم، البستان الجامع لكل نوع حسن وفن مستحسن في عد بعض مآثر مولانا الحسن، مخ: لوحة رقم: 63.

3 - المشرفي، الحلل البهية، ص 440، مرجع سابق.

4 - ابن زيدان عبد الرحمن، النهضة العلمية على عهد الدولة العلوية، تحقيق: مصطفى الشابي - تقديم: عبد الحق الميرني، المطبعة الملكية، الرباط، ط 1437هـ - 2016م، ص 261.

أصناف العلوم المختلفة الدينية واللغوية والمنطقية، وفي شغفه بالقراءة والاطلاع على العلوم الكونية والرياضية والطبيعية؛ حيث جدّ في تحصيلها، وتفانى في إدراك غوامضها.¹

وما لا شك فيه أن لهذا التنوع المعرفي، والتراكم العلمي، أثر كبير على شخصيته من جهة، وفي توجيه دفة الحكم وتدبير شؤونه إلى مسار يعتمد العلم والمعرفة سبيلاً في طريق أي إصلاح أو نهضة من جهة أخرى.

وفي هذا المقال رصد لبعض الجوانب والمظاهر التي تعبر عن الاهتمامات الفكرية والانشغالات العلمية في حياة هذا السلطان العالم، معتمداً في ذلك مقارنة تاريخية وصفية عبر أربعة محاور، هي كالتالي:

المحور الأول: البعثات التعليمية

المحور الثاني: المجالس العلمية

المحور الثالث: الطباعة والنشر

المحور الرابع: النسخة وخزانات الكتب.

المحور الأول: البعثات التعليمية إلى أوروبا

شكلت البعثات التعليمية الحسنية إلى مختلف دول أوروبا أهم إنجاز فكري وإصلاحي شهده عصر السلطان المولى الحسن، وسجلت نقطة وعي كبير في فكر هذا السلطان؛ حيث تم إرسال أزيد من ثلاثمائة طالب² إلى عدة دول أوربية، شملت ألمانيا وفرنسا وبريطانيا وإسبانيا وإيطاليا، لدراسة العلوم الحديثة من الهندسة والرياضيات والفنون العسكرية وغيرها.

يقول ابن زيدان في سياق حديثه عن السلطان المولى الحسن فيما يخص موضوع البعثات: "فإنه لما نظر إلى الأمم الراقية، وما أفادها من العلم الطبيعي والرياضي من القوة والسلطان، والشفوف على الأقران في معترك الحياة، أراد أن يزجّ ببلاده في ذلك الميدان الواسع، فعصّد إرسالية الشبان المتخرجين من مدرسة والده، وتوجّهوا لعواصم أوروبا لتتيم دروسهم، فعين لكل فريق رجلاً من أهل العلم والدين لمرافقتهم، وأجرى عليهم النفقات الكافية"³.

1 - ألف الفقيه العلامة عبد الله بن عبد السلام الفاسي الفهري المتوفى سنة 1348هـ/1929م. كتاب: «المسك البهي الحسن في بعض ما كان يحسنه من العلوم مولانا الحسن»، تكلم فيه على ما يحسنه السلطان مولاي الحسن من العلوم. انظر: الدباغ محمد بن عبد العزيز، "فصله من مشروع بيليوغرافية مغربية حول الحسن الأول قدس الله روحه"، مجلة دعوة الحق، العدد 331، جمادى: 1، 1418هـ/أكتوبر 1997م، ص 117.

2 - ابن تاويت محمد. "الدولة العلوية والحركة العلمية"، مجلة رسالة المغرب، العدد 134، نوفمبر 1951م، ص 36.

3 - ابن زيدان، إتخاف أعلام الناس، (2/543).

كان هدف السلطان المولى الحسن من وراء إرسال هاته البعثات التعليمية تجهيز أطر وطنية قادرة على النهوض بأوضاع المغرب، والإسهام في تحقيق إصلاح تنموي شامل، يهتم البنيات الفكرية والاجتماعية والسياسية والعسكرية، والاستغناء عن الخدمات الأجنبية التي كانت ترابط بأرض المغرب. وكل هذه الجهود ترمي إلى "تأمين سلامة الدولة، وحماية لسيادتها، وضماناً لمستقبلها"¹.

لا تتوفر المعطيات التاريخية على المعلومات الكافية فيما يخص العدد المضبوط لأفراد هذه البعثات، أو تفاصيل كثيرة عن دراساتهم وأحوالهم؛ وغاية ما هناك تقديرات عديدة أوصلها البعض إلى ما يفوق الثلاثمائة فرداً، أرسلوا على سنوات غطت فترة حكم السلطان المولى الحسن، ولم تنقطع طيلة هذا العهد. كانت أول بعثة أرسلت سنة: (1291هـ / 1874م) مكونة من خمسة عشر طالباً؛ توجهت إلى كل من بريطانيا وألمانيا وإيطاليا وإسبانيا وفرنسا، ثم بعثة أخرى سنة: (1295هـ / 1878م) مكونة من خمسة وعشرين طالباً توجهت إلى جبل طارق، لتعلم الفنون الحربية، ثم بعثات أخرى على التوالي سنة: (1293هـ / 1876م) وبعثة عام: (1294هـ / 1877م) وبعثة عام: (1295هـ / 1878م) وبعثة عام: (1301هـ / 1884م) وبعثة عام: (1302هـ / 1885م).²

وأهم ما لدينا حول شأن هذه البعثات - كما يقول المرحوم محمد المنوني³ - لائحة أوردها ابن زيدان في كتابه العز والصولة⁴، تضمنت ذكر أهم البعثات التعليمية وتاريخها وذكر أسماء طلابها.

البعثة التعليمية الأولى: (1291هـ - 1874م)

نظراً لكثرة البعثات التعليمية التي أرسلت إلى أوروبا في العهد الحسني الأول، فإن الذي يهمنا في هذا المقال شأن أول بعثة تعليمية أرسلت عام (1291هـ - 1874م)، والمكونة من خمسة عشر طالباً، توزعوا على دول إنكلترا وألمانيا وإيطاليا وإسبانيا وفرنسا، للتخصص في العلوم الهندسية والرياضية. كانت إقامة البعثة بداية في مدينة طنجة لمدة تقرب من ثلاث سنين⁵، بقصد تعلم مبادئ الحساب واللغات الأجنبية في مدرسة خاصة، حملت اسم المدرسة الحسنية أو مدرسة الألسن، والغالب "أن هذه المدرسة كانت تكميلية، حيث يقع بها إعداد طلبة مدرسة المهندسين، الذين سيذهبون لإكمال دراساتهم بأوروبا."⁶ وبالتالي لم تكن مدرسة بالمعنى المتعارف عليه من كونها تخضع لهيكله هندسية وإدارية وتربوية،

1 - معينو أحمد. "تكوين الأطر في عهد الحسن الأول"، مجلة دعوة الحق، العدد، 4، السنة، 12، ذو الحجة 1398هـ - 1969م، ص 178.

2 - معريش محمد العربي، المغرب الأقصى في عهد السلطان الحسن الأول، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 1، 1981م، ص 152.

3 - المنوني، مظاهر يقظة المغرب الحديث، (1/ 166)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 2، 1985م.

4 - انظر: ابن زيدان، عبد الرحمن. العز والصولة في نظام معالم الدولة، المطبعة الملكية، الرباط، 1381هـ - 1961م، (2/ 150).

5 - ابن زيدان، إنحاف أعلام الناس، (2/ 544).

6 - المنوني، مظاهر يقظة المغرب الحديث، (1/ 174).

وإنما الأمر - كما يقول الأستاذ عبد الله العروي - لا يعدو أن يكون "أكثر من محل يتّجمع فيه الطلبة المرشحين لاستكمال دراستهم في الخارج ليتعلموا أوليات لغة البلد المقرر توجههم إليه؛ ولهذا الغرض كلف السلطان خليفته بطنجة بتدبير شؤون المدرسة والمتعلمين بها"¹.

1- بعثة بريطانيا:

تكوّن وفد هذه البعثة من ثلاثة أفراد، وهم: السيد محمد الجباص، السيد إدريس بن عبد الواحد، السيد الزبير السكيرج.²

تم إرسال هذا الوفد الطلابي سنة: (1293هـ / 1876م) حيث قضى هناك ثلاث سنوات³ من الدراسة بمدرسة «المهندسين العسكريين» في شاتهام Chatham، توجت بنيلهم شهادة الإجازة في العلوم. رجع أفراد البعثة إلى المغرب سنة: (1297هـ / 1880م)، وقد تميز أعضاؤها بانضباطهم، وذكائهم، وسرعة تعلمهم، وتمت الإشادة بهم، والتنويه بتحصيلهم من طرف المسؤولين البريطانيين، ومن طرف النائب السلطاني محمد بركاش الذي نوّه بالوفد الطلابي في رسالة بعثها إلى السلطان المولى الحسن، يخبره فيها برجوع الطلبة الثلاثة من إنجلترا.

2- بعثة إيطاليا:

تمّ إيفاد ثلاثة طلاب إلى إيطاليا وهم: السيد المختار الرّغاي، السيد محمد بناني، السيد عبد السلام الأودي.⁴

التحق هذا الوفد الطلابي بأكاديمية "مودينا" العسكرية، وقضى فيها نحو تسع سنوات، يتعلم فيها فنون الحرب والهندسة والحساب وغير ذلك.⁵

أنهى طلبة هذا الوفد تعليمهم بإيطاليا سنة: (1300هـ / 1882م) ورجعوا إلى المغرب، فأرسل النائب محمد بركاش إلى السلطان مراسلة يعلمه فيها بالتحاق الأطر الجديدة بالمغرب.

1 - العروي عبد الله. الأصول الاجتماعية والثقافية للوطنية المغربية 1830-1912م، تعريب: محمد حاتمي، محمد جادور، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط 1، 2016م، ص 393.

2 - ابن زيدان، العز والصولة، (2/150).

3 - قضت هذه البعثة أقصر مدة زمنية في تكوينها، إذا ما قورنت بالبعثات الأخرى المرسلة إلى إيطاليا وإسبانيا، حيث استغرقت مدة كل منهما نحو تسع سنوات، بينما طالت البعثة الألمانية نحو اثنتي عشرة سنة» انظر: خالد بن الصغير، المغرب وبريطانيا العظمى في القرن التاسع عشر (1856-1886م)، ص 469.

4 - ابن زيدان، العز والصولة في نظام معالم الدولة، (2/150).

5 - سيمو بهيجة. العلاقات المغربية الإيطالية 1869-1912م، الدار البيضاء، اللجنة المغربية للتاريخ العسكري، 2003م، ص 308.

3- بعثة ألمانيا:

وتكون أفرادها من ثلاثة طلاب، توزعوا على مؤسسات علمية مختلفة، وهم:

- السيد: الميلود بن محمد الزيادي الطالب؛ التحق بالأكاديمية العسكرية ببرلين

- السيد: عبد السلام بن عبد الرحمن التسولي؛ تابع دراسته بمدرسة المناجم ب: klausthal

- السيد: الحسين بن الحاج الأودي؛ التحق بمدرسة ضباط الهندسة.¹

أقام هذا الوفد الطلابي حوالي اثنتي عشرة سنة في ألمانيا، تعلموا خلالها الحساب والجبر والمقابلة وأصول الهندسة، وعلوما أخرى.

4. بعثة فرنسا:

تكون وفد أفرادها من ثلاثة طلاب، هم السادة: قاسم الأودي، محمد بن الكعاب الشرقي، الطاهر بن الحاج الأودي.²

بقي طلاب هذه البعثة نحو من ست سنين في طنجة لتعلم اللغة الفرنسية، توجهوا بعدها وأواخر عام (1297هـ/ 1879م) صوب باريس. وشمل تكوينهم مجالات: اللغة الفرنسية والهندسة، وفنون الملاحة، والتاريخ، وفن التصوير.

5. بعثة إسبانيا:

تكون وفد أفرادها من ثلاثة طلاب هم: السيد أحمد بن الحاج بن شقرون الفاسي، السيد عبد السلام الرباطي، السيد محمد الشراي الرباطي.³

تعلم أعضاء هذا الوفد اللغة الإسبانية في طنجة لمدة سنتين، ثم التحقوا بعدها بإسبانيا، حيث تعلموا في "غوادالاخارا" Guadalajara وادي الحجارا شرقي مدريد، ورجعوا إلى المغرب صيف: (1301هـ/ 1884م).

المحور الثاني: المجالس العلمية

كان السلطان المولى الحسن من أبرز سلاطين الدولة العلوية الشريفة الذين أحيوا المجالس العلمية في بلاطهم وأثروها بالمعارف والعلوم؛ فقد تعددت في عهده وتنوعت، فمنها: ما كان يعقده من أجل

1 - حيمر جمال. البعثات التعليمية على عهد السلطان مولاي الحسن، ص 99.

2 - ابن زيدان، العز والصولة، (2/ 150).

3 ابن زيدان، العز والصولة، (2/ 151).

الاستفتاء حول القضايا المهمة التي كانت تعترض سبيله في حكمه، ومنها: ما كان يعقده للبت في المستجدات التي كانت تطرحها النهضة الحديثة التي فرضها الاحتكاك بالآخر، وأخرى كانت تعقد لتدارس العلم ومناقشة العلماء.¹

أما أهم هذه المجالس لديه وأعظمها شأنًا فتلك التي كانت تعقد لقراءة صحيح البخاري، في أشهر رجب وشعبان ورمضان من كل سنة، لا تتوقف أبداً إلا للضرورة، جريا على سنة أسلافه السلاطين.

يقول ابن زيدان: "أخذ ملوك هذه الدولة العلوية سرد صحيح الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري - وغيره - منذ نشأت، عادة محكمة في ظعنهم وإقامتهم"².

مجلس قراءة صحيح البخاري

كان للسلطان المولى الحسن اهتبال خاص، واهتمام كبير بهذا المجلس الحديثي "فكان يحضره بنفسه، ويستدعي له العلماء من كل حذب وصوب، ولا ينقطع أبداً سفرا وحضراً"³.

تبدأ مراسم الإعداد لهذا المجلس العلمي الحديثي بمراسلة الحاجب السلطاني لقضاة المملكة، وعمال الأقاليم وأمنائها، ليختاروا العلماء الأجلاء، والأعيان، والفقهاء، والشرفاء، الذين ينبغي حضورهم، ومن ثم يوجهونهم معززين إلى الحضرة الحسنية الشريفة، محفوفين بكل عناية في الذهاب والإياب.⁴

وبين أيدينا نموذج من هذه المراسلات تخص الحاجب السلطاني أحمد بن موسى (ت: 1318 هـ) للقاضي أبي العباس أحمد بنسودة (ت: 1321 هـ) يعلمه فيها بافتتاح الدروس الحديثية؛ ونص المراسلة بعد الحمدلة: "محبتنا الفقيه العلامة القاضي السيد أحمد بن الطالب بنسودة؛ سلام عليك ورحمة الله، عن خير مولانا - نصره الله - وبعد: فإن مولانا - أعزه الله - أمر بافتتاح سرد صحيح البخاري بحضرته العالية بالله، بكرة غداً إن شاء الله، فأقدم لذلك أنت ومن حضر ممن يحضر معك؛ ولا بد، وذلك في الساعة الرابعة والنصف، وعلى المحبة والسلام"، في مستهل شهر رجب عام 1300 هـ.⁵

1 - الهاشمي البلغيتي آسية. المجالس العلمية السلطانية على عهد الدولة العلوية الشريفة، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، ط 1، 1416 هـ - 1996 م، (2/177).

2 - ابن زيدان، العز والصلوة، (1/177).

3 - الكتاني يوسف. مدرسة صحيح الإمام البخاري في المغرب، دار لسان العرب، بيروت، (1/391).

4 - الإلغي رضى الله إبراهيم. "عناية الملوك المغاربة بالحديث الشريف"، مجلة دعوة الحق، الرباط، العدد الرابع، السنة العاشرة، ذو القعدة 1386 هـ - مارس 1967 م، ص 37.

5 - ابن زيدان، العز والصلوة، (1/177).

تتوزع وظائف العلماء داخل المجلس الحديثي الحسنی وتنوع، ففيهم من كان يتولى القراءة والسرد للحديث، وفيهم من كان يتولى التقرير والشرح والتعليق والمناقشة.

يقول ابن زيدان: "وينقسم علماء المجلس إلى قسمين: قسم للسرد، وقسم للتقرير، والعادة أن السلطان إذا شاء المذاكرة في حديث من الأحاديث يطوي الكتاب الذي بين يديه، ويرفع رأسه، فيشرع شيخ المجلس في التقرير، فإن أصاب وسلّم له، فتح السلطان كتابه، وتماذى السرد على السرد، وإلا ناقشه غيره وأبدى ما لديه، وهكذا إلى أن يتضح الأمر، ويرتفع كل إشكال، وربما أُرْجئ تحرير المسألة إن تفرعت ذيلوها إلى الغد، وربما كتب كل ما ظهر له فيها."¹

وهكذا يتحول المجلس من مجلس للقراءة والسرد إلى منتدى ثقافي، وحلبة للنقاش الفكري، والمناظرات العلمية، في جو يتسم بالانفتاح والحرية الفكرية.

وخير شاهد على هذا الجو العلمي المتسم بالحوار والانفتاح الفكري في هذه المجالس الحسنية ما كان يجري بين الشيخ عبد الله بن إدريس السنوسي (ت: 1350 هـ) وبين بعض علماء المجلس من التناظر والحوار في بعض المسائل، إذ كان المنهج الفقهي للسنوسي: "رفض الأقيسة والآراء والفروع الفقهية المستنبطة"². وفي العقيدة: "رفض التأويل في آيات الصفات، وأحاديث الصفات، والمتشابهات، وإبقاءها على ظاهرها"³.

كان السنوسي يجاهر ببعض أفكاره هاته داخل المجلس السلطاني، فيقوى عليه النقاش والرد من بعض العلماء الحاضرين؛ إلا أن المولى الحسن كان يعجبه ذلك، وينشط لهذا الحوار والتناظر، ويقف موقف المحايد، ولا يؤيد أحد الفريقين على الآخر.⁴ وكان قصده من وراء ذلك إظهار كل فريق ما عنده من العلم، وتمحيص المحق من المبطل، والجاهل من العالم.⁵

تستمر هذه المجالس العلمية ويستمر معها النقاش العلمي والحوار البناء طيلة ثلاثة أشهر، وتقسم إلى ستة وثلاثين مجلسا، يتم فيها تقسيم الأنصبة والأجزاء التي ستقرأ، بحيث لا يزداد فيها ولا ينقص.⁶

1 - ابن زيدان، العز والصولة، (1/ 178).

2 - الفاسي عبد الحفيظ، المدهش المطرب، دار الكتب العلمية، بيروت، صححه وخرج أحاديثه وعلق عليه: عبد المجيد خيالي، ط 1، 2003 م، ص 201.

3 - نفسه، ص 201.

4 - ابن سودة، «سل النصال للنصال بالأشياخ وأهل الكمال»، تحقيق: محمد حجي دار الغرب الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى 1417 هـ - 1997 م، ص 64.

5 - الفاسي، المدهش المطرب، ص 201.

6 - ابن زيدان، العز والصولة، (2/ 183).

أما يوم ختم هذه المجالس فيكون يوما مشهودا، وغالبا ما يكون في السابع والعشرين من رمضان، وأحيانا يوم العيد؛ يحضره السلطان، ويتم الاحتفاء فيه بأنواع الأطعمة والأشربة والطيب، وتلقى فيه الأشعار والقصائد، ويكرم العلماء.

وهذا وصف لأحد هاته المجالس الختامية التي ترأسها السلطان المولى الحسن، يرويها أحد من حضرها وهو العلامة الفقيه المؤرخ أحمد بن خالد الناصري (ت: 1315 هـ)، يقول في الاستقصا: "ثم دخل السلطان المولى الحسن - أعزه الله - رباط الفتح صبيحة يوم الخميس التاسع والعشرين من رمضان: (29 رمضان 1290 هـ - 20 نونبر 1874 م). وكان العيد يوم السبت، فأقام السلطان أيده الله سنة العيد برباط الفتح، وختم به صحيح البخاري على العادة، وكان فقيه المجلس ومدرسه يومئذ الفقيه العلامة السيد المهدي بن الطالب بنسودة الفاسي، وحضر ذلك المجلس وفود المغرب، وقضاة العدوتين وعلماؤها، وحضرنا في جملتهم، ومدح السلطان بقصائد بليغة، واحتفل - أعزه الله - لهذا الختم بأنواع الأطعمة والأشربة والطيب، وفرق الأموال على من حضر، ثم وصل أهل العدوتين من علمائها وقراءها ومؤذنيها... على العادة"¹.

المحور الثالث: الطباعة والنشر

أولى السلطان المولى الحسن لطباعة الكتب ونشرها اهتماما بالغاً، وقد اكتسب خبرة علمية واسعة في هذا الصدد، وفي وقت مبكر من حياته، كان ذلك سببا في أن يأمره والده السلطان المولى محمد بن عبد الرحمن - أيام كان نائبا عنه في مراكش - بأن يقوم بفتح متجر هناك للإشراف على توزيع الكتب بالمدينة، وكان المولى الحسن يرفع تقارير دورية، ينقل فيها إلى والده سير أعمال التوزيع، ويرفقاها بالتفاصيل المالية.²

من أهم الكتب التي أمر السلطان المولى الحسن بطبعها في عهده، كتاب: إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين، للمرتضى الزبيدي. اعتبر هذا الكتاب من أطول المطبوعات المطبوعة في المطبعة الحجرية حيث تم طبعه في ثلاثة عشر جزءا.

1 - الناصري، الاستقصا في أخبار دول المغرب الأقصى، (8/ 152).

2 - هذا ما يؤكدّه ظهير سلطاني أصدره السلطان لابنه وخليفته المولى الحسن، جوابا عن وصول ثمن ما بيع من نسخ شرح الشيخ محمد التاودي على تحفة ابن عاصم، ونصه بعد الحمدلة والصلاة: «ولدنا البار الأرضي سيدي حسن أصلحك الله، سلام عليك ورحمة الله وبركاته، وبعد: فقد وصلنا كتابك تذكر فيه أنك وجهت 16.62.5 ست عشرة مائة مثقال واثنين وستين مثقالا وخمس أواقي، ثمن نسخ 300 شرح التاودي للتحفة التي وجهنا لك، بحسب إحدى وثلاثين أوقية صغيرة، وثلاثمائة أثمان لكل نسخة، وبينت ما حيز 176 منها لجانب الأحباس، وما بيع 25 على يد الأمناء، وما في الثمن المذكور من ريال 511 والدرهم حسبها هو مفصل في نفولة [بطاقة] الأمين التي وجهت، فقد وصل الجميع وحل محلّه، والله يرعاك، والسلام. في: 20 صفر الخير 1286 هـ». انظر: ابن زيدان، عبد الرحمن. الدرر الفاخرة بمآثر الملوك العلويين بفاس الزاهرة، شركة نوايغ الفكر، القاهرة، ط 1، م 2008، ص 90.

أما عن أسباب اهتمام السلطان المولى الحسن بهذا الكتاب وأمره بطبعه، فيرجع الأستاذ فوزي عبد الرزاق ذلك إلى ما يلي:

أولاً- أن الكتاب الأصل وشرحه يمثلان الاتجاه الأشعري الذي ينتمي إليه أغلب المسلمين في العالم.

ثانياً- أنه يحتل المنزلة الوسط بين أهل الحديث والمعتزلة، بمعنى أنه جمع بين الفقه والفكر.¹

وهناك سبب آخر تطرق إليه الأستاذ فوزي مفاده: أن السلطان المولى الحسن استخدم طبع هذا الكتاب وتوزيعه- وبالأخص على علماء المشرق- كدعاية سياسية لتلميع صورته في مختلف أرجاء العالم الإسلامي.²

إلا أن هذا السبب يبدو بعيداً عن واقع الأمر، خصوصاً إذا علمنا أن السلطان المولى الحسن كان في غنى عن هذا التلميع أو الدعاية، فقد سارت بأخباره وبمحللاته الركبان، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن السلطان كان رجلاً عالماً وفقياً، وله مشاركات علمية، وارتباط وثيق بالمكتبة الإسلامية وعلومها، ومعرفة أصيلة بأمهات المصادر، وعلى اطلاع واسع عليها، وقد أمر بطبع الكثير منها غير كتاب إتحاف السادة المتقين.

وفي هذا السياق يورد الشيخ محمد عبد الحي الكتاني سبباً آخر لطبع هذا الكتاب، هو رغبة عالم الحجاز ومفتي الشافعية أحمد بن زيني دحلان (ت: 1304هـ) وطلبه ذلك منه، يقول رحمه الله: "والسلطان المذكور [المولى الحسن] هو الذي قام بطبع شرح الإحياء للحافظ الزبيدي في المطبعة الحجرية في 13 مجلداً من القالب الكبير، وكان الذي حمله على ذلك رغبة عالم الحجاز أبي العباس أحمد بن زيني دحلان المكي³، حسبما أخبرني بذلك صهر السلطان المذكور العالم الأنجد المولى أبو العلاء إدريس بن عبد الهادي العلوي [ت: 1331هـ]- رحمه الله- وكان طبعه للكتاب المذكور من أعظم حسناته وأخلدها، حتى إن أهل مصر لما أرادوا تجديد طبعه لم يجدوا عندهم نسخة كاملة فاستعانوا بطبعة فاس، وهذا من النوادر"⁴.

وقد عمل السلطان المولى الحسن على تحجيس هذا الكتاب بنسخ وافرة على جامع القرويين كما هي عادته، ووزع نسخاً منه على علماء الحجاز، ودمياط، وإسطنبول، نشرًا للعلم وإحياء لرحمه بين أهله.

1 - فوزي عبد الرزاق، مملكة الكتاب، ص 162.

2 - نفسه، ص 162.

3 - وهذا ما تؤكد المصادر التاريخية والمراسلات التي كانت بين العلامة أحمد بن زيني دحلان والسلطان المولى الحسن في شأن هذا الكتاب. انظر: المنوني، المظاهر، (1/ 301).

4 - محمد عبد الحي الكتاني، تاريخ المكتبات الإسلامية ومن ألف في الكتب، ضبط وتعليق: أحمد شوقي بنين - عبد القادر السعود، دار الأمان للنشر والتوزيع، الرباط، ط 1، 1334هـ-2013م، ص 238.

لم يكن كتاب "إتحاف السادة المتقين" الكتاب الوحيد الذي أمر السلطان المولى الحسن بطبعه، بل توجد كتب أخرى أمر بطبعها؛ وموضوعات أمر بالتأليف فيها؛ فمن الكتب التي أمر بطبعها:

- كتاب: شرح ميارة على المرشد المعين في الفقه المالكي، سنة: 1292 هـ.

- كتاب: تحرير أصول إقليدس في الهندسة، لنصير الدين الطوسي، فتم طبعه سنة: 1393 هـ في مجلدين.

ومن المواضيع التي أمر بالكتابة فيها، أمره لأبي العباس أحمد بن المواز بوضع تأليف في صحة الكيمياء، فألف كتابه: "مطلع الضياء في الاستدلال على صحة الكيمياء".

ومنها: أمره لشيخه محمد بن إبراهيم السباعي المراكشي بوضع كتاب في تاريخ الدولة العلوية، فألف كتاب: "البستان الجامع لكل نوع حسن وفن مستحسن، في عد بعض مآثر السلطان مولانا الحسن".

المحور الرابع: النسخة وخزائن الكتب

أ - النسخة:

اهتم السلطان المولى الحسن بنسخ الكتب وتحصيلها اهتماماً شديداً، وأظهر في ذلك حرصاً عظيماً، فقد كان: «ولوعاً بنسخ الكتب والبحث عن البارعين في الخط المتقين، ويجلبهم لحضرته للكتابة والنسخ، لا يفارقون حضرته سفراً ولا حضراً، اتخذ لهم محلاً برحاب القصر، وعين لهم من يقوم بشؤونهم، ويقضي لهم مآربهم، ويناوهم ما يحتاجون إليه، ويجري عليهم الجرايات الكافية، وينعم عليهم بالنعم السابعة الضافية، ويتردد عليهم لمحل أشغالهم الآونة بعد الأخرى»¹.

كما عرفت كتب الطب والكيمياء ازدهارا ورواجا في عهده، حيث كان له مزيد اهتمام بها، «فاستنسخ منها مجموعة دبجها الوراقون المغاربة بخطوط جيدة، وزخرفة أنيقة وتسفير بديع»².

وقد دفعه شغفه واهتمامه بهذا الفن بأن أرسل عدداً من الوراقين المغاربة إلى إسطنبول وإسبانيا لتعلم فنون الوراقة والتخصص فيها.³ فرفع بهذا العمل المفيد راية العلم وأفاد المعارف خدمة جليلة⁴.

1 - ابن زيدان، النهضة العلمية على عهد الدولة العلوية، ص 261.

2 - المنوني محمد. تاريخ الوراقة المغربية: صناعة المخطوط المغربي من العصر الوسيط إلى الفترة المعاصرة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ط 1، 1991م، ص 234.

3 - بنين أحمد شوقي. تاريخ خزائن الكتب بالمغرب، ص 222.

4 - ابن زيدان، إتحاف أعلام الناس، (2/ 146).

أما سوق النسخة فقد كان رائجاً ومزدهراً في عهده بفضل تشجيعه على ذلك، فاحترفها العديد من العلماء وطلبة العلم، كما هو حال الفقيه العلامة العباس بن محمد بن عبد الرحمن الحجري السجلماسي، (ت: 1311هـ / 1894م) فقد «كان يكتب في سنة نسخة من تعليق الجنان على المختصر الخليلي بخطه الأنيق، ويبيعها بمائة ريال، هي عولته»¹.

يقول الشيخ محمد عبد الحي الكتاني: «وكانت للورّاقين والمجلّدين والمذهبين سوق في أيامه، تنسخ من كتب الصنعة المئات من المجلدات في غاية الزخرفة والتمويه، والتنويه، والتسوية»².

وقد ذكر المرحوم محمد المنوني جملة وافرة من أشهر النساخ في عهد السلطان المولى الحسن وأشهر مستنسخاتهم.³

ب- خزائن الكتب:

توزعت خزائن كتب السلطان المولى الحسن بين قصوره بفاس ومكناس ومراكش، وكانت مكتباته كما يقول المرحوم محمد المنوني: «طافحة بشتى المؤلفات من سائر الفنون، ومن اهتمامه بها أن خصص لها زمن خلافته جماعة وافرة من مهرة النساخين المتقنين، ثم ازداد شغفه بها لما جلس على أريكة الملك، وما زال معتنياً بها إلى أن ختمت أنفاسه»⁴.

وقد تجلّى اهتمام المولى الحسن بخزائن كتبه فيما يلي:

- تزويدها بشتى النوادر والمؤلفات العلمية

- توفير النساخ والكتاب

- توظيف من يتفقدوها ويرتبها من العلماء والفقهاء المختصين.

يقول المرحوم محمد عبد الحي الكتاني: «كان للسلطان اعتناء بخزانة الكتب المخزنية، وكان يتتدب كبار علماء فاس من حين لآخر لتفقدتها وترتيبها، وحدثني من شاهدها إذ ذاك أنها دار ذات بيوت ومخابح كاملة، محاطة بالمساطر الخشبية من أعلا الحائط إلى أسفله، مملوءة كتباً»⁵. وهذا ما دفع أحد الكتاب الفرنسيين إلى القول: «إذا كانت قد كثرت المؤلفات العلمية في خزانات كتب القصور الشريفة، فسيكون ذلك في عهد الحسن الأول بسبب ميله إلى العلوم والكيمياء»⁶.

1 المنوني، تاريخ الوراقة المغربية، ص 242.

2 الكتاني، تاريخ المكتبات الإسلامية ومن ألف في الكتب، ص 239.

3 انظر: المنوني، تاريخ الوراقة المغربية، ص 253.

4 المنوني محمد. دور الكتب في ماضي المغرب، تقديم أحمد شوقي بنين، منشورات الخزانة الحسنية، الرباط، ط 1، 2005م، ص 92.

5 الكتاني محمد عبد الحي. تاريخ المكتبات الإسلامية ومن ألف في الكتب، ص 239.

6 بنين أحمد شوقي. تاريخ خزائن الكتب بالمغرب، ص 105.

وبسبب ميولات السلطان العلمية وتعلقه بعلوم الكيمياء، ستصبح المكتبة السلطانية في عهده مكتبة متخصصة، تحتوي على أمهات المصادر والمراجع في هذا الفن بل والنوادر منه.¹

ويظهر الاهتمام بهذا الفن ومصنفاته لدى السلطان المولى الحسن في عدة أمور، منها:

أولاً - دراسته وتحصيله على نخبة من العلماء المختصين

ثانياً - أمره بطبع كتب الهندسة والكيمياء وما يتعلق بهما، ومن ذلك أمره بطبع كتاب: تحرير أصول إقليدس لنصير الدين الطوسي في الهندسة كما تقدم.

ثالثاً - مراسلته لعلماء عصره والشخصيات الأجنبية المرموقة، بغية الحصول على ما جدّ من كتب، وقد بحث في أي مكان وبإلحاح عن المصنفات المرتبطة بالكيمياء، وذلك لشغفه بهذا العلم، وقد مكنته علاقاته الجيدة مع الملوك المصريين من أن يستعير المخطوطات المتعلقة بالكيمياء من الخزانة الخديوية «قبل أن يرجعها إلى الخديوي، وزودت المكتبة الملكية أيضا بالمؤلفات المكتوبة باللغة الأجنبية، وخاصة الإنجليزية، والفرنسية، والإسبانية، والبرتغالية».²

وقد شملت العناية الفكرية الحسنية أنواعا من المكتبات وخزائنها؛ أهمها: الخزانات الملكية، والخزانات الوقفية، يقول المرحوم محمد المتوني: «حتى إذا جاء السلطان الحسن الأول تميز عصره باهتمام زائد بالخزانة المغربية، في مبادرات تستوعب واجهتين مكتبتين: خزائن القصور الملكية، مع الخزائن الوقفية، وقد كانت في الوقت ذاته - في الجملة - لسد فراغ المكتبات العامة».³

أ- الخزانات الملكية: والتي كانت توجد بقصور فاس ومكناس ومراكش، فقد كان يوليها اهتماما عظيما، ويتابع أعمال ترتيبها، ويوظف الأكفاء من علماء حضرته لفهرستها وإحصائها. يقول المرحوم محمد العابد الفاسي في هذا السياق: «ولم تكن خزائنه الملكية تنقص عن الخزانة المعروفة في القصور السلطانية، يعين لها بين الحين والحين من يضع لها فهارس منظمة ويتعهد بها بالإصلاح، ويقتني لها الذخائر والنفائس من القديم والحديث، وقفت على عدة فهارس موضوعة للخزانة الحسنية الخاصة، وجميع محتوياتها من النادر الغريب الذي لا نعرف له الآن رواجاً».⁴

1 - مما احتوت عليه الخزانة السلطانية في فن الكيمياء، كتاب: الوافي بتدبير الكافي، بنص عربي بحروف عبرية، وهو نص مجهول في أوروبا. انظر: أحمد شوقي بنين، تاريخ خزائن الكتب بالمغرب، ص 106.

2 - نفسه، ص 97.

3 - المتوني محمد. الخزانة المغربية في عهد السلطان الحسن الأول، مجلة المناهل، عدد: 38، السنة الخامسة عشرة، جمادى الأولى 1410هـ، دجنبر 1989م، ص 10.

4 - العابد محمد الفاسي. الخزانة العلمية بالمغرب، ص 59.

ب- الخزانات الوقفية: ويأتي على رأس هذه الخزانات؛ خزانة جامع القرويين، حيث تأتي في مقدمات المكتبات العامة الوقفية، التي كان لها إسهام كبير في نشر المعرفة بالمغرب. وقد كان لسلطينه عبر تاريخه الطويل اهتبال كبير بها، وعناية فائقة بمحتوياتها، وذلك منذ تأسيسها على يد السلطان أبي عنان المريني سنة (750هـ).

وقد مرت هذه الخزانة عبر تاريخها الطويل بمحطات متعددة، بعضها مشرق وبعضها قاتم، ومن ذلك تعرض كتبها للتلاشي والضياع بسبب الإعارات، «فتذكر المصادر أن عدد الكتب تضاعف كثيرا، لأسباب منها: الإعارة التي كثيرا ما يترتب عنها فقدان الكتب»¹، الأمر الذي استدعى تدخل السلطان المولى الحسن في عهده، فإنه لما بلغ إلى علمه ما وصل إليه حال الخزانة من التغافل عن الاهتمام بها، وضياع كتبها بسبب الإعارات الكثيرة، وتلاشي أوراقها، أصدر أمره للقاضي أبي العباس حميد بن محمد بناني، والقاضي محمد بن محمد العلوي المدغري بضرورة البحث عن الكتب المفقودة، وإصلاح المتلاشي منها، ومما ورد في الظهير: «وبعد: فلا يخفى عليكم ما كانت عليه خزانة الكتب التي بالقرويين من الضبط والصيانة والمقابلة والتعاهد، قد بلغ إلى علمنا الشريف أن أمرها استحال إلى ضياع، وتفریط، بسبب إهمالها، وعدم الاهتمام بشأنها، ولأجله تعين إيقاظكم، وتنبيهكم وحظكم على رد البال إليها وإجراء العمل فيها على ما سنقرره لكم من الضوابط والفصول، حتى تعود بحول الله إلى حالتها الأولى، وترجع إلى ما كانت من الصيانة، وما أسسه السلف الصالح»².

وهذا الظهير إن دلّ على شيء فإنما يدل على الاهتمام البالغ والحرص الشديد على متابعة شأن هذه الخزانة العامرة.

ومن الرسائل الدالة على رعايته لخزانات الوقف، استفساره لمحتسب مكناس الحاج محمد العربي أجانا عن خزانة الجامع الكبير بمكناس، وهذا نص سؤال السلطان الدال على عظيم الاهتمام بخزائن هاته الكتب الوقفية، ومتابعته الدقيقة لتفصيلاتها: «هل لا زالت الكتب مصونة كما كانت؟ ومن القائم بها؟ وهل لها كناش؟ وعند من هو؟»³

ومن دليل عنايته واهتمامه أنه لم يكن يمر في أسفاره بمكتبة زاوية أو خزانة جامع إلا دخلها، «وربما انتخب منها ما يهوى -رحمه الله-»⁴ وزودها بما يلزم من الكتب.

1 - العريش محمد العربي. المغرب الأقصى في عهد السلطان الحسن، ص 168.

2 - الفاسي محمد العابد، الخزانة العلمية بالمغرب، ص 73.

3 - نفسه، ص 13.

4 - الكتاني محمد عبد الحي، تاريخ المكتبات الإسلامية ومن ألف في الكتب، ص 240.

ومن هذا ما أورده الناصري في الاستقصا عن دخول المولى الحسن إلى المسجد الأعظم بمدينة سلا بقوله: «ودخل السلطان-أعزه الله- خزانة الكتب العلمية بالمسجد المذكور وتأملها، ومعه يومئذ شيخنا الفقيه العلامة القاضي سيدي أبو بكر بن محمد بن عواد. فطلب من السلطان-أيده الله- أن يزيد في شراء الكتب للخزانة المذكورة، فأذن له بأن يشتري من ذلك ما ثمنه نحو مائة ريال، ففعل وهي يومئذ بالخزانة المذكورة»¹.

خاتمة

بعد هذه الجولة الفكرية في هذه الحقبة الهامة من تاريخ المغرب وسلطانه حينها المولى الحسن الأول، نسجل أنها كانت فترة غنية وثرية فيما يخص الجانب العلمي والحركة الفكرية. وقد عمل السلطان المولى الحسن على إغناء هذه الحركة الفكرية، وعلى إثرائها وتنشيطها ودعمها، وتبني الكثير من قضاياها ومجالاتها، كما نلاحظ أنها كانت حركة فكرية منفتحة على التجارب العلمية في الدول الشرقية والأوربية بقصد الاستفادة منها، وتوظيفها في عملية النهضة، والإصلاح، والتحديث التي شهدتها المغرب في عهد السلطان المولى الحسن.

1 الناصري، كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، (8/ 171).

برنامج عمل السلطان الأسبوعي من خلال كتاب «العز والصولة في معالم نظم الدولة»¹

● ذ. أحمد الأزمي

جامعة سيدي محمد بن عبد الله- فاس.

قبل الدخول في صلب الموضوع، أرى من المفيد في هذا المدخل أن أقدم تعريفا موجزا بكتاب «العز والصولة في معالم نظم الدولة» لأهميته على حد تعبير ابن زيدان، فهو يعد من أهم مؤلفات ابن زيدان، وأكبرها فائدة وأجدرها أن تصبح مرجعا رئيسيا للمؤرخين والسياسيين والإداريين لمدة طويلة، ذلك أنه لا يطرق موضوعا من المواضيع التي طرقها في كتبه الأخرى²، أو التي ألفها علماء المغرب في القرون الأخيرة، فهو لا يؤرخ لملك ولا دولة ولا يترجم لفرد ولا طبقة ولا أسرة، ولا يعرف بناحية ولا مدينة ولا قرية، بل هو وصف للأنظمة والأعراف الإدارية التي كان معمولاً بها في الدولة المغربية حتى مطلع هذا القرن³، وبيان الأحوال والسلطين وعاداتهم المتبعة داخل قصورهم، فهو من حيث الموضوع، يضيف نفس المصدر، أشبه بالكتب المؤلفة حديثا في فن «البروتوكول» والقانون الإداري، وإن اختلف عنها ترتيبا واتجاها وأسلوبا⁴.

ويحدثنا المؤلف في مقدمة الكتاب عن الأسباب التي حفزته إلى اختيار موضوعه فيقول: «واخترته لغرابته وجدته وطرافته، وجدارته بالبحث وأهميته، وهو موضوع مع شدة الحاجة إليه قد أغفله المؤرخون والكتاب، فما رفعوا عنه القناع، ولا وضعوا النقاب، ولا كشفوا عن حقيقته الحجاب، حتى توهم الأغمار والأغرار أنه لم تكن لدولة المغرب نظم مقررة، ولا قواعد محررة، ولا طرق في الحكم

1 مؤلف هذا الكتاب هو عبد الرحمن بن زيدان، مؤرخ الدولة العلوية ونقيب الشرفاء العلويين بمكناس. نشر الجزء الأول من هذا الكتاب بالمطبعة الملكية بالرباط سنة 1961م، وهو يشتمل على ما يزيد عن 441 صفحة.
2 من هذه الكتب:

- إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، المطبوع منه خمسة أجزاء من ثمانية.
- الدرر الفاخرة بمآثر الملوك العلويين بفاس الزاهرة، المطبوع بالرباط عام 1937م.
- النهضة العلمية في عهد الدولة العلوية، في مجلد ضخيم.

3 يقصد المؤلف القرن العشرين.

4 عبد الرحمن بن زيدان. م. س، ج1، ص: هـ.

والإدارة معروفة، ولا مناهج في تدبير الملك مألوفة»¹. وبعدما لاحظ ابن زيدان، مؤلف العز والصولة، من إهمال في التأليف والتأريخ للجوانب الحضارية والتاريخية والإدارية والبروتوكولية للدولة المغربية، الشيء الذي جعله يتحمل مسؤولية الكتابة في موضوعاتها، نجده يحث المغاربة من العلماء والمثقفين على الانخراط في تدوين تاريخ بلادهم الحضاري، حتى لا يطاله الإهمال².

ومن القضايا التاريخية والحضارية التي أولاها ابن زيدان³ أهمية بالغة، في كتابه «العز والصولة» وتفنن في تصوير وقائعها وفعاليتها، «برنامج عمل السلطان الأسبوعي»، الذي اخترناه عنوانا لهذا العرض.

وقد استهل المؤلف الحديث عن هذا الموضوع، مفيدا بأن السلاطين العلويين، مثل ما ضبطوا أوقاتهم الليلية، وقسموا ساعاتها على الإداريات والضروريات، فكذلك أيام الأسبوع وهي الأيام التي استهلها مؤرخنا بيوم الجمعة.

يوم الجمعة:

وهو يوم بحسب نفس المصدر يخصص صباحه لإقامة سنن الجمعة، والتأهب لأداء فريضتها في الموكب، مع صدور دولته وأعيانه وعساكره الجراحة وجنوده المجندة، في نظام كان يستوقف الأبصار.

وفي تفصيله لنظام حفلة صلاة الجمعة، يفيد نفس المصدر أنه إذا حل هذا اليوم وكانت الساعة العاشرة من النهار، يؤم جميع مكونات الهيئة المخزنية في زيتها، القصور السلطانية، وكذلك سائر الجنود والولاة من باشوات وقواد وأعيان، وسائر العساكر خيلا ورماة: فإذا أخذ كل مركزه، ووصلت الثانية عشرة أمرت الجلالة بتقديم العربية ميمما مسجد الصلاة، بالمسجد الجامع، ويكون قائد العربية عن يمينه وخليفته عن شماله، كل منهما أخذ منديلا أبيض يروح به على سمو الجناح⁴.

وإذا أدى السلطان فريضة الجمعة وبارح المسجد، يقدم لجلالته الفرس، فيمتطي صهوته، ويحتف بسمو جنابه أصحاب الأروى⁵، يمينا وشمالا، وهم آخذون مناديل من كتان أبيض يروحون به على

1 - نفسه، ص: و.

2 - نفسه، ص: و.

3 - ولد مؤرخ الدولة العلوية عبد الرحمن بن زيدان عام 1295 هـ / 1878 م بمدينة مكناس حيث تلقى دراسته الأولى على عدد من المشايخ المرموقين، ثم انتقل إلى مدينة فاس، ليأخذ عن عدد غير قليل من العلماء بجامعة القرويين، وكانت وفاته عام 1365 هـ / 1946 م بمدينة مكناس: انظر: مولاي عبد الرحمن بن زيدان، إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، مطابع «إديال» بالدار البيضاء عام 1990 م، ج 1، ص 10-11.

4 - عبد الرحمن بن زيدان، العز والصولة في معالم نظم الدولة، م. س، ج 1، ص 46.

5 - مصطلح يقصد به جماعة من أعوان القصر مكلفون بالإصطبلات الملكية وما فيها من خيل وبغال: انظر العز والصولة، م. س، ج 1 ص 47 هامش 1.

رأسه، وحامل المظلة عن يمينه، وقائد الأروى أمامه، يحيط الوفود التي يمر عليها، وأمام قائد الأروى ست من الأفراس المعروفة بخيول القادة، كل فرس يقوده واحد من أصحاب الأروى العوامين، ثم أصحاب المزاريق¹، فالمشوريون رجالا ونساء، كل واحد منهم بيده اليمنى بندقية، جاعلا لها على كتفه الأيمن منتصبه، فخليفته الأول والثاني آخذين بندقيتهما بأيامهما، وخلف الجلالة بقية أصحاب الأروى، فأصحاب المكاحل²، آخذا كل بندقيته بيده، قابضا لها بمنديل حرير، ناصبا لها على كتفه الأيمن وهم راجلون، وأغشية بنادقهم يجعلونها كعلاقة السيف، ويكون خلفهم اتصالا الحاجب راكبا فرسا أو بغلة، إن كان مسافة جامع الصلاة بعيدة، فأصحاب الفراش³، والسجادة⁴ راجلين، فالعربة فالوزراء والكتاب فالعساكر عن يمين الموكب وشماله، وخلفه خيل ورماة.

فإذا كان ركوب الجلالة في العربة، فيكون الموكب على ما وصفنا. غير أن قائد العربة يكون عن يمين الجلالة، وخليفته عن الشمال، بيد كل منهما منديل يروح به عليها، وبقية أعوانها بإزائهما، ويكون صاحب المظلة من جهة الشمال أيضا حاملا لها في غشائها. أما إذا ركب السلطان لزيارة الصالحين أو العيد، فإن خيل القادة تقاد خلفه، ويقتصر منها على ثلاثة، إلا في زيارة الأضرحة التي تكون خارج البلد كالمولى إدريس الأكبر، وأبي زكرياء الصبان⁵، فيزداد فرس رابع.

ثم إن الموسيقى في الجمع والأعياد تكون بباب القصر، ومحل الصلاة في الذهاب والإياب، وبعد الفراغ من الصلاة ورجوع الجلالة في حفلها المهيب البهي، يذهب كل لحال سبيله، وقد كان فيما سلف وزير الحرب يستعرض جميع العساكر بعد انتهاء حفلة كل جمعة.

هذا وإذا دخلت الجلالة لقصرها الفاخر وجدت عددا عديدا من موائد فاخر الأطعمة وأواني المتنوعة مصطفة صفوفا، وراء كل مائدة وآنية وصيف من الجزارين واقفا في بزة ناصعة البياض، بدون برنوس، جاعلا سكينه بمنطقته، وعلى رأسه قلنسوة حمراء، وأمامهم قائدهم بيده قائمة أنواع تلك الأطعمة، فيزيل السلطان برنوسه وكساءه وعمامته، ويجعل قلنسوته على رأسه، ويأخذ من قائد الجزارين جريدة الأطعمة ويشرع في تنفيذ ذلك، فإذا جاء على آخرها، رد التقييد للقائد. ويحمل كل جزار آنية

1 - جمع مزارق، وهو الرمح القصير: المصدر نفسه، ج 1 ص 47 هامش 2.

2 - المقصود بالمكاحل البندقية: المصدر نفسه، ج 1 ص 47 هامش 3.

3 - جماعة من أعوان القصر مكلفون بتنظيف السرير الملكي والفرش ووضعها في محالها: المصدر نفسه، ج 1 ص 47 هامش 4.

4 - أصحاب السجادة هم الأعوان المكلفون بحمل السجادة الملكية التي يصلي السلطان عليها، وفرشها في المسجد في أوقات الصلاة: انظر المصدر نفسه: ج 1 ص 47 هامش 5.

5 - أبو زكرياء الصبان، هو أحد أولياء مكناسة الزيتون، يعرف لدى العامة، باسم سيدي بوزكري، ضامن مكناس، وأصله من تادلة، بحيث نقرأ في بعض التراجم التي تؤرخ له أنه: أبو زكرياء الصبان الصديقي التادلي، انظر: Aaian El Maghrib AL (E) Gouvion Akca Paris 1939

من الأواني حتى يحمل الكل دفعة واحدة في أقل من لمح البصر. ويخرجون به ليوزع على المنفذ لهم من الوزراء والكتاب والولاة وقواد الأرحاء¹ والأعيان طبق قائمة التوزيع.

أما أصهار السلطان وبنو عمه وأعمامه وإخوته فإنهم يأتون في المعية من مسجد الصلاة، وإثر دخوله القصر يدخلون هم المسجد الذي تقام فيه الصلوات الخمس داخل باب القصر السلطاني، فتفاض عليهم الأطعمة الملوكية، وأنواع الحلويات والمشروبات وأنواع الطيب. وإذا دخل وقت صلاة العصر يؤدون فريضتها مع السلطان، وبعد الفراغ منها يتقدمون لحضرته واحدا بعد واحد، ويقدمون له واجب التحية، فيسأل كل واحد على انفراده عن حاله ويستفهمه عن شؤونه، فيبدي له ما لديه، فيظهر لهم الارتياح ويقضي كل مآربهم، فيخرجون مبتهجين منشرحي الصدور بقضاء أوطارهم، وهذا هو الشأن كل جمعة².

يوم السبت:

هذا اليوم، وفقا لنفس المصدر مخصص للصيد والرياضة، تروى للنفس وتنشيطا لها، وإظهارا للعواطف الكريمة نحو جنوده وخدمه، فلا يأتي يوم السبت إلا وعامل الناحية التي عينت للصيد فيها قد أمر بإيالته³ بحشد المصيد وحصره في الجهة المعينة.

إذا كانت صبيحة السبت خرجت الجلالة في موكبها المهيب، وأركان دولتها والصيادون بزياتهم وكلاهم الضارية، فإذا وصل الجناح العالي للناحية المعدة للصيد، وجد الخباء السلطاني المسمى السيوان منصوبا، وبوسطه كرسي من كراسي الإمارة وزريرية مفروشة وأريكة كبيرة من الجلد، وأصحاب الوضوء والفراش مصطفىين عن اليمين والشمال، فيحيون جلالته تحية الملك، وتذهب الجماهير المحشودة رجالا وركبانا للاصطياد أمام الجلالة وهي تتفرج. وبعد انتهاء الصيد تأتي تلك الجموع الوافرة بما اصطادته فتضعه أمام الجلالة، فتجتمع من ذلك أكداس، والجلالة تهش وتبش وتخطب كلا بما يدخل عليه السرور ويشجع وينشط، ويقضي يومه كله مع طبقات من رعيته في انبساط وانسراح، كأنه واحد منهم، وربما داعبهم ومنح المنح الجزيلة واستطلع على خبايا الأحوال⁴.

بعد أن بسط المؤلف أهم الترتيبات والأنشطة السلطانية ليومي الجمعة والسبت، انتقل لبسط القول بخصوص أنشطة يومي الثلاثاء والأحد.

1 - قواد عسكريون يقود كل واحد منهم ألف جندي، والأرحاء مجموع رحا: المصدر نفسه: ج 1 ص 48، هامش 1.

2 - عبد الرحمن بن زيدان، العز والصولة في معالم نظم الدولة، م، س، ج 1، ص 49.

3 - المقصود بالإيالة في هذا السياق، مجموع السكان التابعون لتنفيذ أحد العمال.

4 - عبد الرحمن بن زيدان، العز والصولة، م. س، ج 1، ص 50.

الثلاثاء والأحد¹

ذكر المؤلف أن هذين اليومين خصصا لسماع المظالم، بعد أن تقدم لحضرته لائحة بأسماء أصحاب الشكايات وأنسابهم وأحسابهم، والمكان المقيمين به، واسم العامل المتولي عليهم، فيصطفون بباب القصر بنظام، على مقتضى ترتيبهم في اللائحة المذكورة، ثم يتقدمون للمثول بين يديه واحدا بعد واحد حسب الترتيب، فيصغي لشكايتهم بأذن واعية وأخلاق مرضية، حتى لا يتلغثم لسان المشتكي في إبداء حجته، ولا تذهله أبهة الملك وعظمته، فيقضي له بعد الأناة التي هي من قوانين العدل والإنصاف، فرارا من الحيف والتدليس وقلب الحقائق².

ونقدم فيما يلي بعض الأمثلة من الشكايات:

(1) الحمد لله تقييد شكاية عشية الثلاثاء عاشر صفر 1311 هـ، لفائدة قدور بن عبد الله الهواري المساسي، تشكى بأن الذمي³ بوطبول سجن ابن عمه مدة ثلاثة عشر (13) شهرا من غير موجب، ولم يكن عليه ما جل ولا قل، وإنما الذمي المذكور "يسال"⁴ لوالد المسجون مالا، فترك الذي ذمته عامرة، وقبض ولده مع أنه مفترق مع والده، زيادة على عشرة أعوام كما بموجب بيده، وكل واحد من الوالد والولد مستقل بنفسه، ولا مخالطة بينهما ولا ضمانة، وبقي عرضة للضياع هذه المدة، يطلب إعمال الشرع معه.

(2) أحمد خليفة القائد إدريس الرويشي، تشكى أن نفر الأربعة، أحدهم مات والثلاثة الباقون قبض عليهم خليفة الباشا، ولد با محمد بدار الضياف من وادي فاس، على أنهم قطاع الطريق، وهم ليسوا من أهل النهب وقطع الطريق وإنما قبضوا ظلما، يطلب من سيدنا أن يسأل عليهم جوارهم من أولاد الحاج وشراكة، ومن التسول وأهل فاس، فإن ثبت عليهم شيء من ذلك فها هم تحت يد سيدنا، وإلا فسيدنا ينظر من حال أولادهم نفعه الله بالشواب⁵.

(3) السيد الطاهر بن محمد الخياطي تشكى أن الزاوية المنسوبة إليهم، الكائنة بدرب الحرة من طالعة فاس التي هي ضريح سيدي محمد بن إبراهيم، يكون الناظر عليها واحد منهم الأكبر فالأكبر، وكان فيما قبل عمه السيد محمد هو متولي النظر فيها، ولما توفي تولى أحد أولاده وليس هو أكبر من حضر،

1 - ترتيب هذين اليومين، منقول كما ورد في كتاب العزو الصولة، مصدر هذا العرض.

2 - عبد الرحمن بن زيدان العز والصولة، م. س، ج 1، ص 50-51.

3 - اليهودي من أهل الذمة: انظر العز والصولة، م. س، ج 1 ص 51 هامش 1.

4 - أي يدين، والاستعمال عامي (بالدارجة): انظر نفس المصدر، ج 1 ص 51 هامش 2.

5 - عبد الرحمن بن زيدان، العز والصولة، م. س، ج 1 ص 53.

وسلموا له ذلك، وصار يتصرف في أملاكها منذ وفاة والده ما يقرب السنة، يطلب الأمر للقاضي أن يحاسبه بحضوره مدة تصرفه هو ومدة تصرف والده، ليظهر حسن تصرفه من عدمه¹.

يوم الاثنين:

هذا اليوم خاص بالتمرينات الحربية، حسب نفس المصدر، وفيه يمتطي السلطان صهوة فرسه، ويحتف به وزراؤه وأبطال أعيان دولته رجالا وركبانا، حاملين للمدافع والمهاريس في موكب مهيب، تتجسم فيه عظمة الملك وأحكام النظام الآخذ بالألباب، القاضي على الفطن المتأمل بالإعجاب، ويسير بكل تودة وجلال إلى أن يصل إلى المحل المعد للرمي والسباق².

يوم الأربعاء:

خلال هذا اليوم، يتم استعراض الجيوش، وذلك بالحضور الفعلي للسلطان الذي يتناول جريدة تتضمن أسماء الجنود كل على حدة، ويقف وزير الحرب بجانب الملك وييده لائحة كالتي بيد السلطان، ويقف كل قائد رحي³ أمام مجموعته، ويقوم قائد المشور بعرض كل مجموعة على حدة، إلى أن يأتي الأمير على آخر الجنود ويبحث عمّن لم يحضر وسبب تخلفه، وهذا أمر مستفيض عند ملوكنا الأكرمين من لدن نشأة دولتهم الشريفة، يعلم ذلك حتى الأجنبي، والأجنبي الذي استشهد به المؤلف عبد الرحمن بن زيدان، هو الأسير الفرنسي جيرمان مويط Germain Moutte في سجن السلطان مولاي إسماعيل⁴، والذي أفاد بصفته شاهد عيان أن السلطان المذكور كان يستعرض الجنود بنفسه، مشاة وفرسانا، إلى أن يأتي على سائر طبقات جيوشه، لا يتكل في مباشرة ذلك على أحد، وأضاف نفس الأسير، أن هذا السلطان كان من عاداته المألوفة تولي دفع رواتب جنوده بيده لكل فرد، وكان يجمع قواده، صفا على ضفة الوادي ويحديق بهم عساكره، ثم يختبر أمرهم مع رعاياهم.

ولم يزل العمل جاريا على بعض هذا، يضيف مؤرخنا إلى آخر نفس من الدولة الحفيظية. وكان الجدل المذكور قد جعل لجيوش العبيد دفاتر لتقييد أسمائها وأوصافها الكاشفة، بلغ عددها مائة وخمسين دفترا، يوجد بالمكتبة الزيدانية واحد منها⁵.

1 - نفسه، ج 1 ص 54.

2 - نفسه، ج 1 ص 54 - 55.

3 - يفيد المؤلف مفصلا، أن الرحي في نظام الدولة عبارة عن ألف نسمة، فإذا قالوا قائد الرحي، فإنهم يريدون من يقود تحت رئاسته العدد المذكور: العز والصولة، م. س، ج 1 ص 55.

4 - جيرمان مويط Germain Mouette، أديب فرنسي ولد عام 1651 م وتوفي سنة 1721 م وقع في أسر السلطان المولى إسماعيل، حيث قضى إحدى عشرة سنة في السجن بمكناس، وقد ألف كتابا يحكي فيه سيرته الذاتية وتجربته في هذا السجن، انظر:

Germain Mouette Relation de la captivité du Sieur Mouette dans les royaumes de Fès et du Maroc Paris 1963

5 - عبد الرحمن بن زيدان، العز والصولة... م، س، ج 1، ص 55.

يوم الخميس:

بعد نحو أسبوع من التعب المضني يفيد نفس المصدر، جعل يوم الخميس يوما للترويح عن النفس في البساتين السلطانية مع حرمه وأهل بيته، من شروق الشمس إلى غروبها، يركبون على الخيل والبغال، ويتسابقون ويفرحون ويمرحون، والطبول تقرع، والمغنيات يدففن وينشدن الأزجال الوطنية.

ولم يفت المؤلف الإشارة إلى أن عادة ركوب الحرم المولوي على البغال بالبساتين السلطانية، لم يزل العمل جاريا بها من الدولة الإسماعلية إلى الدولة الحفيفية، محيلا في هذه الإفادة على أحد رجال الدين الفرنسي الأب بيسنو¹ Père Busnot، الذي ذكر في كتاب له أن المولى إسماعيل كان يحمل نساءه من حين لآخر للتفسيح في بساتينه ويركبن على البغال، مع ملاحظة أن يوم الترويح على النفس هذا، لم يكن يجعل السلطان يلهو عن النظر في الرسائل الصادرة والواردة، بل يباشر مالا بد منه. ولا تكاد تجد بستانا من بساتين النزهة، يضيف نفس المصدر، إلا وفيه مسجد للصلاة وميقاتيون، حتى لا يفوت الأمير أداء الفرائض في جماعته، ليكمل الحديث في هذا الموضوع قائلا: "وبالجملة فأياهم ولياليهم كلها معمورة محكمة الضبط، لا يصدهم صاد عن إدارة شؤون المملكة، ظعنا وإقامة بكل ارتياح ونشاط"².

خاتمة:

لقد انفرد مؤرخ الدولة العلوية وهو يؤلف كتاب العز والصولة في معالم نظم الدولة، بالتأريخ لأحد جوانب التاريخ الحضاري لملوك الدولة العلوية، البالغة الأهمية، والتي لم يلتفت إليها أحد فيمن سبق من مؤرخين وإخباريين، خصوصا ما يتعلق منها بالضوابط الإدارية، والبروتوكولية لأنشطة السلاطين على امتداد أيام الأسبوع، كما سطرناه في هذا المقال. ومن أهم الدوافع التي جعلته ينهج هذا النوع من الكتابة، ما لاحظته من إهمال في التأريخ لمميزات الحضارة المغربية. ويرى المؤلف نفسه أن ظاهرة الإهمال هاته تستطيع أن تراها رأي العين في كل ما كتبناه ونكتبه، مما يفرض علينا أن نقول لجيلنا الناشئ: إن لك لمجدا عريقا، وإن لك لعزا مكينا، وإنك كنت في يوم من الأيام علما شامخا تستعصي على من أرادك بسوء أو أذى، وإن أساسك لمتين لا زال يغالب العصور، لتصل بين عملك وعمل سلفك الصالح الذي عبّد لك الطريق، وسوّى لك السبيل، لتتمشي على بنية ورشاد³.

1- الأب بيسنو Père Busnot، هو واحد من رجال الدين الفرنسيين الذي قام بثلاث رحلات إلى المغرب، سنة 1704 م، وسنة 1708 م ثم سنة 1712 م، لمفاوضة السلطان المولى إسماعيل من أجل اقتداء الأسرى الفرنسيين في سجن هذا السلطان: انظر: أحمد الأزمي، العلاقات السياسية والدبلوماسية بين المغرب وفرنسا على عهد السلطان المولى إسماعيل (1672-1727)، منشورات ما بعد الحداثة، سنة 2007 م.

2- عبد الرحمن بن زيدان، العز والصولة... م، س، ج، 1، ص 56.

3 نفسه ص: ز.

التعليم العالي في المغرب من الاستقلال إلى المرحلة الراهنة

● د. محمد الحجوي

أستاذ التعليم العالي - سلا.

إن مجال التربية والتعليم، وكذا البحث العلمي هو الميدان الذي لم يعرف توقفا أو جمودا عند جميع الأمم والشعوب، لأن هذا الميدان هو العمود الفقري لمستوى تقدم الأمم في كل المجالات، ولذلك نجد الأمم المتقدمة علميا وصناعيا وتجاريا، تخصص ميزانية ضخمة لمجال التربية والتعليم والبحث العلمي، هذه الميزانية قد تفوق ميزانية دولة من الدول النامية، وما نراه من اختراعات متجددة، وأبحاث رائدة في عصرنا الحديث، في كل مجالات المعرفة والصناعة المدنية والعسكرية، والاقتصاد والتجارة هو نتيجة من نتائج الاهتمام بالتربية والتعليم والبحث العلمي، ولذلك لا يمكن أن يتوقف الاهتمام بهذا الميدان مهما تعرضت الأمم للأزمات، داخلية كانت أو خارجية، فالتوقف في هذا المجال هو حكم الأمة على نفسها بالخروج من التاريخ، بل بالموت والزوال؛ والاهتمام بهذا المجال يكون شاملا للجانبين: المادي والمعنوي؛ إن تخصيص ميزانية تواكب ما تصبو إليه الدولة، وتتطلع إليه من تطوير للبحث العلمي، ومناهج التربية والتعليم، أصبح ضرورة مثل العناية بالجانب الاجتماعي والأمني، إذا أرادت دولة ما أن يكون لها مكان بين دول العالم المتقدمة، والسائرة في طريق التقدم، فالتنافس في زمن العولمة يكون بالعلم، وتنوير عقول الشباب، بما يجد في عالم المعرفة.

إن التعليم العالي بجميع فروع الأدبية والاجتماعية والقانونية والاقتصادية والتجارية والطب والهندسة والرياضيات والفيزياء والكيمياء وعلوم الطبيعة، وكل العلوم التي تحتاج إلى تعميق التخصص في الجامعات والمدارس العليا ومراكز البحث العلمي، قد حظيت باهتمام كبير من طرف أول حكومة تأسست بالمغرب، لكون التعليم العالي المتنوع الفروع هو القنطرة، والسبيل لجعل المغرب يواكب التطور الذي عرفته الأمم المتقدمة، وهذا الشعور ليس غريبا على المغرب، وهو البلد الذي عرف إشعاعا علميا وفكريا وحضاريا منذ قرون عديدة، فلا يمكن أن يغفل عن هذا القطاع الحيوي والهام، في كل البرامج والمخططات التي وضعت بعد الاستقلال. ولهذا كان المغرب بعد الاستقلال يسارع الخطى من أجل

وضع أسس متينة للتعليم العالي، لكن ينبغي الاعتراف بأن الظروف التي نشأ فيها التعليم العالي بطريقة تواكب البحث العلمي الحديث، مثل ما هو معروف في الجامعات، تأسست منذ أكثر من قرنين من الزمان لم تكن سهلة وميسرة، نتيجة عوامل كثيرة، لعل أهمها مخلفات الاستعمار الثقيلة التي كانت سببا في تأخر نهضته الشاملة، وإن كان بعض أنصار الحداثة يزعمون أن فضل الاستعمار على المغرب كان كبيرا، بإنجازه مشروعات لم يكن في تلك المرحلة مؤهلا لإنجازها، فهذا الزعم مردود عليهم، لأن الشعوب كما نرى في عصرنا الحديث، تتعاون فيما بينها بتبادل الخبرات، وتقديم المساعدات، فلو فعلت الدول المتقدمة في تلك المرحلة مثل هذه الخطوات لكانت قدّمت للشعوب المستضعفة عملا جليلا يذكره التاريخ لها، لكنها أثرت استعمار هذه الشعوب، ونهب خيراتها، واستعباد سكانها، وإذا كانت قد أنجزت بعض المشروعات الهامة، فمن أجل مصلحتها، وتسهيل إقامة رعاياها في هذه المستعمرات.

وإذا كان حديثنا الآن عن التعليم العالي والبحث العلمي بالطرق والمناهج الحديثة، فإن هذا القطاع لم يكن له وجود في عهد الاستعمار، وحتى التكوين في التعليم الابتدائي والإعدادي والثانوي بطريقة حديثة لم يكن له أثر إلا في مؤسسات قليلة جدا، وما وجد على قلته في هذه المرحلة كان بفضل جهود رجال الحركة الوطنية، الذين وجدوا الدعم والمساعدة من الملك المجاهد محمد الخامس، رحمه الله، الذي كان حريصا على نشر التعليم في جميع مناطق المغرب، مع جعل اللغة العربية والتربية الإسلامية مقررات أساسية بجانب اللغة الفرنسية في الجنوب، والإسبانية في الشمال، لأن المستعمر في الجهتين معا كان يحرص على نشر لغته في المؤسسات التعليمية ليكون الأطر المتوسطة التي تعمل في الإدارات العمومية وتقوم بالخدمات البسيطة، ولذلك كانت المدارس التي تأسست بفضل جهود محمد الخامس طيب الله ثراه ورجال الحركة الوطنية تقاوم المد الاستعماري في لغته وفكره وتقاليده وأعرافه، في محاولة منه لإضعاف اللغة العربية.

نشأة التعليم العالي بمناهج الجامعات الحديثة

حينما نقول بداية نشأة التعليم العالي بالمغرب في العصر الحديث، فليس معنى هذا أن المغرب في العصور القديمة لم ينشأ فيه تعليم عال، لتدريس علوم متعددة، منها ما هو أدبي ولغوي وديني وعلمي أيضا وبخاصة الرياضيات والطب وعلم الفلك، فالتعليم العالي بالمناهج القديمة كان المغرب سباقا إليه منذ قرون عديدة، ولعل جامعة القرويين في فاس، وابن يوسف في مراكش، والمدارس التي أنشأها المرينيون في فاس، والعلماء الذين ألفوا في مختلف العلوم الأدبية، والتاريخية والفلسفية، بل حتى العلمية كالرياضيات والطب والفلك وعلوم أخرى، هي أقوى دليل على أن المغرب كان رائدا في البحث العلمي

على جميع المستويات، ومؤلفات هؤلاء العلماء لا زالت تدرّس في الجامعات والمدارس العليا في عصرنا الحديث، وإنما القصد بهذه النشأة الجديدة، هو نظام التدريس في التعليم العالي بالطرق والمناهج التي ظهرت في الجامعات الغربية والأمريكية منذ أكثر من قرنين من الزمان، وما عرف في تلك الجامعات من تطور في مناهج التدريس والبحث العلمي. إن المغرب حينما حصل على استقلاله كان عازما على أن يكون له سبق في البحث العلمي، مثل الجامعات الغربية التي قطعت شوطا كبيرا في هذا الميدان، ولا سبيل للسير في هذا الاتجاه إلا بإنشاء الجامعات الحديثة، ومراكز البحث العلمي، وجلب الأساتذة من الغرب والشرق للمساهمة في هذا المجال الذي يحتاج إلى خبراء وأصحاب كفاءات عالية، في التدريس والبحث العلمي، والتأليف، والمناظرات العلمية. وهكذا كانت أول جامعة أنشأها المغرب بعد فجر الاستقلال هي جامعة «محمد الخامس» التي ضمت مجموعة من الكليات، ومراكز البحث العلمي في العلوم الإنسانية والاقتصادية والقانونية والإدارية، والعلوم البحتة، وبخاصة الرياضيات والطبيعات والكيمياء والفيزياء والطب والهندسة والتجارة والإدارة؛ وهذه هي العلوم التي تدرّس في الجامعات العريقة في الغرب وأمريكا، وبها استطاعت تلك الدول تحقيق نهضتها التي نشهد نتائجها في عصرنا الحاضر. وقد واجهت المغرب صعوبات كثيرة لا يعرف قدرها إلا من عاصر هذه المرحلة، وعرف حجم التحديات التي واجهها المغرب في تلك المرحلة من جميع الواجهات، ولعل أهمها:

أولا: أن المغرب في مرحلة الاستعمار لم يتوفر إلا على عدد قليل من المدارس الابتدائية والإعداديات، وأما التعليم الثانوي التأهيلي فكانت معاهده معدودة على رؤوس الأصابع، ولا توجد إلا في المدن الكبرى مثل الدار البيضاء والرباط وفاس ومكناس ووجدة وتطوان. ولذا حينما تأسست أول جامعة في المغرب - جامعة محمد الخامس - لم يكن عدد الطلبة في التعليم الثانوي الذين سيحصلون على البكالوريا للالتحاق بالجامعة بجميع فروع كلياتها إلا عددا قليلا، فكانت تلك الظاهرة من المشاكل التي عمل المغرب على التغلب عليها، سواء ببناء المؤسسات، أو توفير الأطر التعليمية في جميع التخصصات، حتى المواد الأدبية والفلسفية والاجتماعية، وأما مدرسو المواد العلمية كالرياضيات والطبيعات والفيزياء والكيمياء، فقد استعان المغرب ببعض من الأساتذة الأجانب لتدريس هذه المواد.

ثانيا: لم يكن المغرب في هذه المرحلة يتوفر على الأطر التدريسية في التعليم العالي باستثناء علماء القرويين، وابن يوسف بمراكش، فكان انعدام وجود الأطر التي تكوّن الطلبة، وتشرف على بحوثهم، وتقوم بتوجيههم من المشاكل التي واجهها المغرب في قطاع التعليم العالي، ولذلك كان لزاما على المغرب أن يستعين بعدد كبير من الأساتذة الأجانب، من فرنسا والمشرق العربي، الذي سبقنا بإنشاء الجامعات الحديثة.

ثالثا: ولكون المغرب كان يعرف نقصا كبيرا في الأطر التعليمية بالتعليم الإعدادي والثانوي، وكذا في سلك القضاء والإدارة، وكل المصالح التي تحتاج إلى أطر ذات تكوين جامعي، فإنه أولى اهتماما كبيرا لتكوين هذه الأطر في مختلف الكليات الأدبية والقانونية والمدارس الإدارية العليا، وقامت بهذا العمل الجبار كل الكليات والمعاهد التابعة لجامعة محمد الخامس، وبخاصة كليات الآداب والعلوم والقانون والمدرسة الإدارية. ولم تكن هذه الخطوة هيّنة لاسيما إذا عرفنا أنّ المغرب انطلق في نهضته الحديثة بعد الاستقلال انطلاقا شمولية، تعم جميع الميادين التي تخرج المغرب من النقص الهائل الذي تركه المستعمر، فالذين كانوا يشرفون على الإدارات العمومية والمستشفيات، وكل المصالح الحيوية، هم الفرنسيون في الجنوب، والإسبان في الشمال، وقلة قليلة جدا من المغاربة الذين لم يكن لأكثرهم تجربة مثل الأجانب.

الجامعات والمدارس العليا التي تأسست بعد استقلال المغرب.

كانت أول جامعة هي جامعة محمد الخامس بالرباط، وكانت كلياتها ومعاهدها محدودة في مرحلة النشأة، وتحدد دورها في البداية في تكوين الأطر التي تملأ الفراغ الذي تركه المستعمر في التعليم والقضاء والإدارة والطب والهندسة، وهو دور ليس بالهين، لأن المغرب لم تكن فيه أطر وطنية مؤهلة للقيام بهذا الدور، وهكذا قامت كلية الآداب بجميع شعبها بتكوين أساتذة التعليم الثانوي، في اللغة العربية والآداب والتاريخ والجغرافيا والفلسفة واللغات الحية، وقامت كلية العلوم بتكوين الأساتذة في الرياضيات والطبيعات والفيزياء والكيمياء، وكلية العلوم القانونية بتكوين القضاة والمحامين والخبراء في القانون، والمدرسة الإدارية بإعداد رجال الإدارة، وكلية الطب بتكوين الأطباء في الطب العام وطب الأسنان. وقد حققت هذه الجامعة نتائج مرضية في هذه المسالك، واستوعبت الطلبة حاملي البكالوريا، وأصبح للمغرب أطر مكوّنة تكوينا عاليا في كل تلك المجالات. وبعد مرور فترة من الزمن ستعرف هذه الجامعة توسعا وازديادا في كلياتها ومعاهدها، وستنقسم إلى قسمين؛ لاستيعاب أعداد الطلبة الذين يزدادون كل عام، فكانت جامعة محمد الخامس بأكادال، وأخرى بالسويسي، وكل منهما يضم كليات ومعاهد عليا، فجامعة أكادال تحتوي على كلية العلوم، وكلية الآداب والعلوم الإنسانية، وكلية العلوم القانونية والاجتماعية، والمدرسة المحمدية للمهندسين، والمدرسة العليا للتقنيات، وتأسست ملحقة جامعة تابعة لها في إمارة أبو ظبي، تخرج منها عدد كبير من الطلبة في مختلف الشعب. وأما جامعة السويسي فتحتوي على كلية الطب والصيدلة، وكلية طب الأسنان، وكلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية، وكلية علوم التربية، والمدرسة الوطنية العليا للمعلوماتية وتحليل النظم، ومعهد الدراسات الإسبانية والبرتغالية، والمدرسة العليا لأساتذة التعليم التقني، ومعهد الدراسات والأبحاث للتعريب، والمعهد الجامعي للبحث العلمي، ومعهد الدراسات الإفريقية، وكلية العلوم القانونية والاقتصادية

والاجتماعية بسلا، وكذلك المدرسة العليا للتكنولوجيا. فجامعة محمد الخامس بفرعيها بهذا التعدد في الكليات والمعاهد العليا قد قامت بدور رائد في التكوين والبحث العلمي، وأصبحت لها مكانة مرموقة في العالم، وقصدها الطلبة من جميع البقاع لينهلوا من ينابيع المعرفة، ويتكونوا على يد أساتذتها.

وبعد مرور أعوام وجامعة محمد الخامس تقوم بهذا الدور الرائد، لم تستطع استيعاب الأعداد المتزايدة من الطلبة حاملي البكالوريا في مختلف الشعب، حتى أصبح عددهم يعد بالآلاف في كل تخصص، فكان من الطبيعي في مثل هذا الوضع أن تعجز جامعة واحدة عن استيعاب هذه الأعداد الكبيرة من الطلبة، فكان التفكير في إنشاء جامعات أخرى في مختلف مناطق المغرب، ليجد الطلبة مقاعدهم في كل تخصص يرغبون فيه. وهذه الخطوة لم تكن هيئة أيضا، لأن إنشاء جامعة أو مجموعة من الجامعات بأحيائها ومعداتها، وتهيئ الأطر التدريسية المؤهلة للقيام بهذا الدور في مختلف التخصصات، كان كل ذلك يتطلب ميزانية ضخمة، وجهودا جبّارة وخبراء يشرفون على ذلك، وقد تغلب المغرب على هذه الصعوبات، وأصبحت الجامعات في كل جهة تستقبل الطلبة، وتتوفر على الأطر التدريسية المؤهلة، وقد تخرّج منها على مدى هذه العقود عدد كبير من الطلبة في مختلف التخصصات، ومنايع المعرفة الأدبية والقانونية والعلمية.

فما هي الجامعات التي أنشئت بعد جامعة «محمد الخامس»؟

أولا: جامعة سيدي محمد بن عبد الله بفاس

هذه الجامعة كانت قبل نشأتها تابعة لجامعة محمد الخامس بالرباط، وقد قامت هذه الكلية بدور هام في تكوين أساتذة السلك الأول - قبل نشأة المراكز التربوية الجهوية - وأساتذة السلك الثاني.

والكليات والمعاهد العليا التابعة لجامعة سيدي محمد بن عبد الله، هي كلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهرّاز، وكلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس، وكلية العلوم، وكلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية، وكلية العلوم والتقنيات، كلية الطب والصيدلة، وكلية المتعددة التخصصات التي توجد في تازة، والمدرسة العليا للتكنولوجيا، والمدرسة الوطنية للعلوم التطبيقية، والمدرسة الوطنية للإدارة والتجارة، وكلية الشريعة.

هذه الكليات والمدارس العليا تقدم للطلبة كل التخصصات المطلوبة في الحقول الأدبية واللغوية والدينية والعلمية والاقتصادية والتجارية، مما جعل هذه الجامعة تعرف إشعاعا وطنيا ودوليا.

ثانيا: جامعة القرويين .

بعد استقلال المغرب استمرت هذه الجامعة في أداء دورها العلمي والفكري، لكن بطابع يواكب المناهج الحديثة، وحاجيات المغرب في أطر الشريعة والقضاء واللغة والأدب والبلاغة والفقه والتفسير والحديث، وانضمت إليها كليات في مختلف مناطق المغرب، مثل كلية أصول الدين بتطوان، وكلية اللغة العربية بمراكش، وكلية الشريعة أكادير. وكان محمد الخامس، رحمه الله، يوليها عناية خاصة بالدعم والمراقبة، لتستمر في أداء دورها العلمي الذي قامت به طيلة القرون السالفة.

ثالثا: جامعة الحسن الثاني بالدار البيضاء .

تأسست هذه الجامعة لتخفف العبء الذي تحملته جامعة محمد الخامس، إذ أصبح يدرس فيها الطلبة الذين ينتمون لمدينة الدار البيضاء ونواحيها، ومدينة المحمدية، وتأسست فيها كل الكليات النظرية والتطبيقية التي يحتاج الطلبة إلى تعميق معارفهم فيها، منها كلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية بالدار البيضاء، وأخرى في المحمدية، وكلية العلوم في عين الشق، وأخرى في ابن امسيك، وكلية الآداب والعلوم الإنسانية بعين الشق، وأخرى في ابن امسيك، وكذلك في المحمدية، وكلية الطب والصيدلة، وكلية طب الأسنان، والمدرسة العليا للتكنولوجيا، والمدرسة الوطنية للتجارة والتسيير، والمدرسة العليا للأساتذة، والمدرسة العليا لأساتذة التعليم التقني بالمحمدية، والمدرسة العليا للكهرباء والميكانيك، والمدرسة العليا للفنون والمهن، والمدرسة العليا للفنون التطبيقية. فالجامعة تحتوي كلياتها ومدارسها العليا على كل التخصصات التي يرغب الطلبة في تعميق أبحاثهم فيها.

رابعا: جامعة شعيب الدكالي .

وقد تأسست في مدينة الجديدة لأن جامعة الحسن الثاني في الدار البيضاء لم تعد قادرة على استيعاب الأعداد المتزايدة في كل سنة من حملة البكالوريا، وهي مثل باقي الجامعات الأخرى تضم كليات عديدة مثل الآداب، والعلوم الطبيعية، والعلوم الفيزيائية، والقانون، والاقتصاد، والتكنولوجيا، والتجارة، والتسيير، والعلوم التطبيقية.

خامسا: جامعة ابن زهر .

تأسست هذه الجامعة في أكادير، جنوب المغرب، وقد عرفت تطورا كبيرا في فترة وجيزة من مرحلة إنشائها، فتعددت فيها الكليات، وأصبح لها صيت ومكانة على الصعيد الوطني والدولي، وتوجد بها كلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية، والكلية المتعددة التخصصات، وكلية الآداب والعلوم الإنسانية، وكلية التقنيات والتكنولوجيا، وكلية الطب والصيدلة.

سادسا: جامعة القاضي عياض بمراكش.

وهي من الجامعات التي حققت إنجازات كثيرة في الجانب العلمي والتربوي في جميع الكليات التابعة لها، وتضم خيرة الأساتذة في مختلف التخصصات، منها كلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية والإدارية، وكلية الآداب والعلوم الإنسانية، وكلية الطب والصيدلة، وكلية التجارة والتسيير، وكلية العلوم، وكلية الشريعة، وكلية العلوم التطبيقية.

سابعا: جامعة الحسن الأول بسطات.

وهذه الجامعة تضم مجموعة من المعاهد والكليات التي تعنى بالتخصصات في العلوم والتكنولوجيا، والاقتصاد، والتجارة، والتسيير، والعلوم التطبيقية، وعلوم الرياضة، وعلوم الصحة. وهذا ما جعل هذه الجامعة تستقطب عددا كبيرا من الطلاب الذين يرغبون في الحصول على شهادات عليا في تلك العلوم.

ثامنا: جامعة السلطان مولاي سليمان ببني ملال.

وتضم هذه الجامعة مجموعة من الكليات والمعاهد العليا، منها كلية الآداب والعلوم الإنسانية، والمدرسة العليا للتكنولوجيا، وكلية المتعددة التخصصات، وكلية العلوم والتكنولوجيا. هذه المعاهد والكليات تؤطر الطلبة في الآداب واللغات الحية، وتقنيات الإدارة، وإدارة الموارد البشرية، والهندسة الميكانيكية، والهندسة الفيزيائية، والهندسة الإلكترونية والاتصالات، والتكنولوجيا، وجودة المنتجات الغذائية الزراعية، وحماية البيئة، والاقتصاد والإدارة، وعلوم الحياة، والعلوم الرياضية والتطبيقية.

تاسعا: جامعة ابن طفيل بالقنيطرة.

تضم هذه الجامعة مجموعة من الكليات التي يتخصص فيها الطلبة في الآداب والتاريخ والجغرافية والدراسات الإسلامية، واللغات الحية، والعلوم الطبيعية، والفيزياء، والكيمياء، والتقنيات، والتكنولوجيا، والتجارة، والتسيير، والتربية والتكوين. وقد قطعت هذه الجامعة أشواطاً في التقدم العلمي، وصنفت من ضمن الجامعات الرائدة في المغرب.

عاشرا: جامعة المولى إسماعيل بمكناس.

وهذه الجامعة مثل سائر الجامعات المغربية، تحتوي على كلية الآداب والعلوم، وتتفرد بوجود مدرسة وطنية للفنون والحرف، يتخصص فيها الطلبة في هندسة المواد، والهندسة الصناعية، والإنتاجية، والهندسة الكهروميكانيكية، والهندسة الميكانيكية.

حادي عشر: جامعة محمد الأول بوجدة.

هذه الجامعة تضم مجموعة من الكليات والمدارس العليا، تقدم للطلبة تخصصات متعددة في العلوم الإنسانية، والقانونية، والاقتصادية، والإدارية، والتجارة، والتسيير، والطب والصيدلة، والعلوم التطبيقية. وبذلك يجد طلبة الجهة كل التخصصات التي يريدون استكمال تخصصهم فيها.

ثاني عشر: جامعة الأخوين بإفران.

وهذه الجامعة هي نتاج التعاون بين المملكة المغربية والمملكة السعودية، في المجالات الاقتصادية، والثقافية، والعلمية، فقد أنشئت بمساعدة هذه الدولة، ولذلك سميت بالأخوين - الملك المغربي الحسن الثاني رحمه الله والملك السعودي فهد رحمه الله - وقد اختار لها المغرب موقعا متميزا، وهي مدينة «إفران» المتميزة بهدوئها وطبيعتها الخلابة، حيث يجد الطلاب فيها الظروف الملائمة للتحصيل. وهي من الجامعات التي يؤدي بها الطلبة رسوم الدراسة، وتشترط تفوق الطلبة في اللغات الأجنبية، وبخاصة الإنجليزية. وتقدم للطلبة تخصصات متعددة، منها الهندسة وإدارة الأعمال، والتواصل، والموارد الإنسانية، والدراسات الدولية والدبلوماسية، ودراسات شمال إفريقيا، والشرق الأوسط، والدراسات الإسلامية.

ثالث عشر: جامعة عبد الملك السعدي بتطوان.

هذه الجامعة أنشئت في شمال المغرب، وضمت كليتها ومدارسها العليا تخصصات عديدة في مختلف العلوم، منها الآداب والعلوم الإنسانية، والعلوم القانونية، والاقتصادية، والاجتماعية، والإدارية، والتقنيات، والتكنولوجيا، والطب والصيدلة، والتجارة، والتسيير، وأصول الدين، والعلوم التطبيقية، والترجمة. وهذه الكليات والمدارس العليا توجد في تطوان وطنجة، وهناك مشروع لإنشاء فروع لهذه الجامعة في مدينة العرائش.

وقد أنشئت في السنوات الأخيرة جامعات خاصة ضمت كذلك فروعاً عديدة من التخصصات الدقيقة منها.

رابع عشر: الجامعة الدولية بالرباط وسلا.

وهي تقع في سلا الجديدة، ويتنسب إليها الطلبة بعد أداء رسوم الدراسة، ولذلك فإن الذين ينتسبون إليها هم أبناء الطبقة الميسورة. والتخصصات التي تقدمها للطلبة متنوعة ومتجددة في علوم الرياضيات، والفيزياء، والهندسة، والمواد الاقتصادية والتجارية، وهندسة الكمبيوتر، والإدارة، والعلوم السياسية والعلاقات الدولية، وهندسة الفضاء الجوي، وهندسة الطاقة المتجددة، والخدمات

اللوغيسيتيكية، والنقل. وهذه التخصصات تحتاج إلى التعمق في اللغات الأجنبية، لأن بعض الطلبة يرغبون في تعميق أبحاثهم في هذه الدراسات في الجامعات الأجنبية، وبخاصة الغربية والأمريكية.

خامس عشر: جامعة الزهراوي الدولية لعلوم الصحة بالرباط.

وهي تختص في تكوين الطلبة في الطب، وطب الأسنان، وعلوم الصحة. وبذلك فهي تسهم في إعداد هذه الأطر التي يحتاج إليها المغرب في هذه المرحلة.

سادس عشر: الجامعة الدولية بالدار البيضاء.

وهذه جامعة خاصة، معترف بها وطنيا ودوليا، ومن المواد التي تدرس في هذه الجامعة، التكنولوجيا الحيوية، والصحة، والعلاج الطبيعي، وعلم التغذية، وعلاج التخاطب، وتقويم البصر، وعلم النفس.

سابع عشر: جامعة محمد السادس لعلوم الصحة بالدار البيضاء.

وهذه الجامعة تكون الطلبة في الطب والصيدلة، وطب الأسنان، وتكون الممرضين المتعددي التخصصات، وهي بذلك تقوم بالمهام التي تؤديها كليات الطب الموجودة في العواصم المغربية.

ثامن عشر: جامعة محمد السادس التقنية المتعددة التخصصات بابن جرير.

هذه الجامعة لها فروع متعددة بالرباط، والعيون، والدار البيضاء، والجديدة، ومراكش، وتضم كليات ومدارس عليا.. وهي تكوّن الطلبة في علوم الرياضيات والفيزياء والكيمياء، وهذه المواد بالإضافة إلى مواد أخرى تعمل الجامعة على ربطها بفضاء الشغل والمنافسة العالمية في التكوين والتأطير، ولذلك فهي تنتقي الطلبة الممتازين في تكوينهم، ليكونوا قادرين على القيام بهذه المنافسة.

تاسع عشر: الجامعة الخاصة بفاس.

هذه الجامعة تسهم بجانب الجامعات الأخرى في تكوين الطلبة في المواد التي ترتبط بسوق الشغل، مثل المحاسبة، والرقابة، والتدقيق، وإدارة الموارد البشرية، والتجارة الدولية، والتسويق، والاتصالات المالية والمصرفية، والخدمات اللوجيستية، والنقل، والاقتصاد الإسلامي. وهذه التخصصات لها أهمية كبيرة في المجال الإداري والمالي والعلاقات التجارية الدولية.

عشرون: الجامعة الخاصة بمراكش.

وتختص هذه الجامعة بتقديم المواد المرتبطة بالمحيط الإقليمي والدولي، مثل السياحة، والطاقت المتجددة، والهندسة، وأنظمة المعلومات، والإدارة والحكامة.

واحد وعشرون: الجامعة الدولية بأكادير.

وهي تكوّن الطلبة في العلوم المرتبطة بالمحيط، كالتدبير الفندقي والسياحي، وكذا المواد التي تعنى بعلوم التدبير والتسيير والقانون.

اثنان وعشرون: كلية الطب والصيدلة بالعيون.

تعرف الصحراء المغربية المسترجعة نهضة رائدة في التعليم العالي، إذ تأسست بها كلية للطب.

وهناك معاهد عليا كثيرة في المغرب تقوم بهذا الدور الذي تقوم به الجامعات، أو تعد الطلبة لاستكمال دراستهم في الكليات، مثل الأقسام التحضيرية التي تستقبل الطلبة المتفوقين في علوم الرياضيات والفيزياء والكيمياء لاستكمال تكوينهم فيها قصد ولوج كليات الهندسة.

إن المتمعن في هذا التطور الهائل الذي حدث في التعليم العالي خاصة من فترة استقلال المغرب إلى المرحلة الحالية، يلاحظ أن المغرب بذل جهودا جبارة في بناء المؤسسات العليا في مختلف مدن المغرب، من شماله إلى جنوبه، ومن شرقه إلى غربه، لكي تستوعب أعداد الطلبة الحاصلين على البكالوريا في كل جهة من جهات المغرب؛ وهذه الجهود لم تقتصر على البناء والتشييد للجامعات والمدارس العليا والأحياء الجامعية وتجهيزها بكل المتطلبات التي يحتاجها الأساتذة والطلبة وبخاصة المختبرات العلمية والمكتبات، وإنما شملت هذه الجهود أيضا تكوين الأساتذة الذين أسهموا بشكل كبير في تطوير البحث العلمي في كل التخصصات النظرية، والتطبيقية حتى اكتسب المغرب في الجانب العلمي والثقافي والفكري موقعا مرموقا على المستوى الإقليمي والقاري والدولي. وكل دارس في الاجتماع والتطور الذي حدث في المغرب طيلة هذه العقود يلاحظ العدد الهائل من حملة الشواهد العليا في المغرب: الإجازة والماستر، ودبلوم الدراسات العليا، والدكتوراه، في جميع علوم المعرفة حتى العلوم الدقيقة منها، كما يلاحظ هذا الدارس أن حملة الشواهد العليا بالمغرب وجدوا لهم مكانا في التدريس والتأطير في الجامعات العربية والدولية التي قطعت شوطا كبيرا في البحث العلمي، وهذا يدل دلالة قوية على الإنجازات الكبيرة التي حققها المغرب في ميدان العلم والمعرفة، والبحث العلمي. كما أن التكوين الذي حصل عليه طلبة الجامعات والمعاهد العليا المغربية أسهم في نهضة اجتماعية، وثقافية، وفكرية، فكل أسرة من الأسر المغربية تجد بها عددا من الأفراد ذكورا وإناثا حاصلين على شهادة الإجازة، أو شهادة عليا، في تخصص تطبيقي، وهؤلاء يسهمون بشكل مباشر في التنمية.



ديوان العدد

فَعِشْ لِلشَّعْبِ يَا رَمَزَ التَّآخِي..!!

● شعر ذ. محمد البلغمي - فاس .

عَرَّوسَ الشَّعْرِ بُوحِي بِالقَصِيدِ ***
وَهَاتِي مِنْ فَرَائِدِهِ بَيَّاناً ***
لَا نَظْمَهُ إِلَى الْمَلِكِ الْمُفَدَى ***
وَأَبْعَثْهُ لِسَيِّدِنَا ثَنَاءً ***
بِعِيدِ قَدْ تَأَلَّقَ فِي سَمَانَا ***
أَفَاضَ عَلَى الْحِمَى حُسْنًا فَرِيداً ***
وَهَبَّ الشَّعْبُ يَهْتَفُ فِي ابْتِهَاجٍ ***
مَلِكُ عِبْقَرِي الْفِكْرِ .. شَهْمٌ ***
أَضَافَ بِجُهِدِهِ مَجْدًا طَرِيفاً ***
أَيَادِيهِ الْكَرِيمَةُ كَمْ تَهَامَتْ ***
فَمِنْ تَحْقِيقِ مُنْجَزَةٍ لِأُخْرَى ***
وَأَنْشَأَ «لِلْحَدِيثِ» مَجَالَ دَرْسٍ ***
يُنْقَحُهُ .. لَيْسَلَمَ مِنْ دَخِيلٍ ***
وَعَايَتُهُ الْحِفَاطُ عَلَى تَرَاثٍ ***
وَتَجَنَّبِي مِنْهُ أُمْتًا قُطُوفاً ***
وَأَوَّلَى لِلصَّحَارَى كُلِّ جُهِدٍ ***

وَجُودِي لِلْمُتِمِّمِ بِالنَّشِيدِ
يُشْعُ سَنَاهُ كَالْعَقْدِ النَّضِيدِ
قَوَائِي تَزْدَهِي مِثْلَ الْعُقُودِ
يَفُوقُ شَذَاهُ أَنْسَامَ الْوُرُودِ
وَأَشْرَقَ بِالْأَمَانِي وَالسُّعُودِ
وَزَيْنَهُ بِوُشْيٍ مِنْ بُرُودِ
بِعِيدِ الْعَرْشِ وَالْمَلِكِ الْوُدُودِ
كَرِيمِ الْأَصْلِ مِنْ خَيْرِ الْجُدُودِ
إِلَى مَجْدٍ بِمَغْرِبِنَا تَلِيدِ
عَلَى وَطَنِي بِمَكْرَمَةٍ وَجُودِ
إِلَى مَشْرُوعِ تَنْمِيَةٍ جَدِيدِ
لَيْثَ الْوَعْيِ وَالْفِكْرِ الرَّشِيدِ
جَاهَابَذَةً دَوُو رَأْيٍ سَدِيدِ
لَمَنْ قَدْ جَاءَ بِالذِّكْرِ الْمُجِيدِ
مِنَ التَّفْسِيرِ وَالْعِلْمِ الْمُفِيدِ
لِيَحْيَا الْأَهْلُ فِي عَيْشٍ رَغِيدِ

وَأَصْبَحَتِ الرِّمَالُ حُقُولَ خَيْرٍ ***
 «بِحُكْمٍ ذَاتِيٍّ» قَدْ رَامَ حَلًّا ***
 وَنَالَ بِصِدْقِ فِكْرَتِهِ قَبُولًا ***
 مَلِيكَ مَا رَأَتْ عَيْنِي مِثَالًا ***
 طَبِيعَتُهُ التَّبَصُّرُ فِي الْقَضَايَا ***
 يَذُودُ عَنِ الْجَوَارِ بِكُلِّ صَبْرٍ ***
 وَقَدْ أَوْفَى لَهُ رَبُّ الْبَرََايَا ***
 صَدَاقَتُنَا مَعَ «الْإِسْبَانِ» كَانَتْ ***
 وَكَانَ الْبَحْرُ يَرْبِطُ مَوْطِنَيْنَا ***
 فَإِنْ مَالَتْ مَعَ الْأَهْوَاءِ حِينًا ***
 فَهِيَ هِيَ ذِي تُقَرُّ لَنَا بِحَقٍّ ***
 عَلَى صَوْنِ التَّجَاوُرِ عَاهَدَتْنَا ***
 وَيَكْفِي مَا أَضْعَنَا مِنْ سِنِينَ ***
 وَإِنَّا لَمْ نَزَلْ نَرْجُو خَلَاصًا ***
 فَبِالْإِيْمَانِ نُذِرُكَ مُبْتَغَانَا ***
 فَعِشْ لِلشَّعْبِ يَا رَمَزَ التَّآخِي ***
 وَعَاشْ وَلِيَّ عَهْدِكَ فِي ارْتِقَاءٍ ***
 وَأَبْقَاكَ الْإِلَهُ لَنَا مُعَافَى ***

وَفَاضَ زُلَاهُنَا عَذَبَ الْوُرُودِ
 فَأَخْرَسَ كُلَّ طِمَاعٍ حُسُودِ
 بِإِجْمَاعٍ وَتَأْيِيدٍ عَدِيدِ
 لَهُ فِي الْعَزْمِ وَالْخُلُقِ الْحَمِيدِ
 وَلَمْ يَكُ فِي التَّحَاوُرِ بِالْعَنِيدِ
 وَلَا يَخْشَى التَّطَاوُلَ مِنْ حَقُودِ
 بِمَا يَهَبُ الصَّبُورَ مِنَ الْوُعُودِ
 مُمَيِّزَةً عَلَى مَرِّ الْعُقُودِ
 بِجِسْرِ مِنْ تَعَاوُنَا وَطِيدِ
 وَقَرَّرَتْ أَنْحِيَازًا .. لِلْبُعِيدِ
 وَتَرْجِعُ لِلتَّصَافِي مِنْ جَدِيدِ
 وَإِنَّ الْحُرَّ يُوفِي بِالْعُهُودِ
 وَأَهْدَرْنَا هَبَاءً مِنْ جُهُودِ
 لِأَجْزَاءٍ لَنَا رَهْنَ الْقِيُودِ
 وَبِالْإِصْرَارِ نُنَجِّحُ .. وَالصُّمُودِ
 رَفِيعَ الْقَدْرِ مَنْصُورَ الْبُؤُودِ
 وَدَامَ الْعِزُّ فِي رَكْبِ الرَّشِيدِ
 سَلِيمًا فِي مَدَى عُمُرٍ مَدِيدِ

قصيدة: مغرب الأحرار، يزهو بالانتصار

● شعر ذ. مولاي أحمد هاشمي - مكناس.

من لي بمثل مسيرتي الخضرَاء *** هل من مواز، في ربي الغبراء
ملك همام، ثاقب الرأي، رننا *** لبلوغ أغلى مقصد، برخاء
فكرا، وإبراما، وتدبرا، غدا *** دحرا لأرباب العتاد، ودا
برزانة، وبحكمة، وتبصر *** صنع المسيرة من طفوح دهاء
تكفي إشارة عاهل لهوبنا *** بتدافع، ومحبة، وولاء
خسون ألفا، بعد ست مثلها *** قد شاركوا، تلقائيا، بوفاء
بمسالة، وتلاحم، ومحبة *** قد أزهبوا لب العدى بجلاء
سلم، سلام، وانضباط فائق *** فالحق يعلو، باطلا لفناء
كل جنود طيعون لقائد *** شهيم، إشارته كأمر سماء
قرآننا يميننا، بشالنا *** علم المفاخر، رافلا بسماء
لا للرصاص، فحقنا باد لمن *** للحق، ينصره، بدون جفاء
طوبى لمن شرفه المولى بها *** يبقى فخورا عمره بصفاء
أنجاله، أحفاده، بتعاقب *** يزهون بالموروث، في الأنحاء
أهل لنا، إخواننا، أبناؤنا *** والأرض، تاريخنا، لنا بولاء
أجدادهم بعراقة قد بايعوا *** بمحبة ورضى، ملوك وفاء
علم يفور، تعاون، وتلاحم *** بالعرش نسمو، نزدهي بولاء

رمز لوحدتنا كعاهلنا *** من يتعرض يلقي الردى بدهاء
 فالمغرب الأقصى قوي رائد *** أوراش أعمال لكل نماء
 الكل شمر عن سواعد قوة *** والحب يجمعنا، وفيض وفاء
 كل ينافس غيره بسلامة *** كل يجد، مثابرا، برضاء
 لصناعة وفلاحه وتجارة *** الكل هب منافسا، بصفاء
 كل لمغربنا محب مخلص *** والملك تاج، كلنا لولاء
 إن كنت في ريب، رُئيّ شاهد *** زرني جنوبا تنهر بنماء
 وادي وساقيتي، سباق فائق *** قد أدركا أوجا، بدون مرءاء
 أوراش خير، والعناية جمة *** عطف لعاهلنا، بكل وفاء

قصيدة شعرية بمناسبة ذكرى عيد العرش المجيد

● ذ. محمد الجيلالي

رئيس المجلس العلمي المحلي لإقليم أوسرد.

لاحت بوارق عيد سعد يا لها *** من فرحة عم الجميع جمالها
برزت ولاح ضياؤها فكأنما *** ضوء الشمس اللامعات أضأ لها
طلعت بروح السعد وابتسمت لها *** في الخافقين وحقت آمالها
وتزينت آفاقها وتوهجت *** بحلول عيد للحياة أنالها
فانظر ترى عجا وقل ما ينبغي *** أن الحقيقة صادق من قالها
واسمع من أفواه الفصيح بيانه *** واقرأ من أفواه اللغات من قالها
واستجل قولاً صادقاً من قولها *** تجد الصحيح من الحديث حلالها
واهناً سعيداً بين أربع صحرة *** ظل المعمر يشتوي أوصالها
فاسأل إذا شئت العيون وإن تشأ *** فارسل عيونك واسمعن مقالها
وسل السامرة واشرب لسمعها *** كي ما تسجل بالنظار نضالها
واسمع مقالة وادي الذهب الذي *** فاق البلاد ببيعة وسعى لها
عن ما به كان المعمر قائماً *** في ذي الربوع وسائلاً أطلالها
كم قتلوا أو عذبوا أو شردوا *** وكم استباحوا بالحرام حلالها
تمت بحمد الله وحدة أرضنا *** بكملها تم المرام كمالها
يا شعب أبشر وافتخر واسعد وقل *** كي يحكي جيل بعد جيل جالها

يا سيد السادات يا قطب الرchy *** سيف الحقيقة ركنها ونصاها
 إنا جنودك إن تقل سىروا نسر *** نكسو البسطة أكمها وجباها
 نحمى مكاسب أسست أركانها *** ونرد قسرا من ىريد عقالها
 من ىقتحمها أو ىحاول جاهلا *** ىجد الرchy دوما تحك ثقالها
 يا سادس الأقمار دام لك العلى *** حتى تحقق للعروبة ماها
 وتعيد للقدس السلىبة أمنها *** وتصحن من حالها أحوها
 فجزاكم الرحمن خىر جزائه *** كم قلت فى المعضلات أناها
 وأقر عىنكم بوارث سركم *** ما سائق العىس العتاق حداها
 وأدام للصنو المبجل رفعة *** ما حلت الأطىار أوكاراً لها
 ثم الصلاة على النبى وآله *** وصحابه ما قالها من قالها



افتتاحية

5

ملف العدد

عيد العرش: مرحلة من رحم ملحمة

7

✍ ذ. مولاي عبد السلام علوي البلغيتي (رئيس المجلس العلمي المحلي لإقليم بولمان).

عيد العرش المجيد امتداد لتاريخ رابطة البيعة التليد

19

✍ ذ. بدر الدين الحميدي (كلية الشريعة بفاس).

عيد العرش المجيد عيد الأمل والتجديد

31

✍ ذ. سيدي محمد محي الدين (رئيس المجلس العلمي المحلي لطانطان).

شعر المديح في الاحتفاء بالعرش العلوي المجيد، الشاعر أبو بكر المريني أنموذجا

37

✍ ذ. عزيز بويغف (الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين - ورزازات).

البيعة في الإسلام نظام أمن وأمان

51

✍ ذ. إبراهيم بن أحمد الوافي (رئيس المجلس العلمي المحلي لإنزكان أيت ملول).

الوفاء بالبيعة وأثره في أمن الأمة واستقرارها

61

✍ ذ. حسن أكشاش (رئيس المجلس العلمي المحلي لإقليم الخميسات).

إمارة المؤمنين بالمغرب: المفهوم، التاريخ، الوظائف

65

✍ ذ. الجيلالي كريم (عضو المجلس العلمي المحلي لسطات).

الثواب الدينية وتجلياتها في التنمية، من خلال النموذج التنموي المغربي الجديد

79

✍ ذ. محمد البخاري (كلية الشريعة بفاس).

مقالات داعمة

- 97 من أرشيف مجلة دعوة الحق: مجلة دعوة الحق في سنتها الأولى
﴿ذ. أحمد بلخيري (فاس).﴾
- 107 جوانب من الاهتمامات الفكرية في حياة السلطان الحسن الأول
﴿ذ. محمد شابو (طنجة).﴾
- 123 برنامج عمل السلطان الأسبوعي من خلال كتاب (العز والصولة في معالم نظام الدولة
﴿ذ. أحمد الأزمي (جامعة سيدي محمد بن عبد الله - فاس).﴾
- 131 التعليم العالي في المغرب من الاستقلال إلى المرحلة الراهنة
﴿ذ. محمد الحجوي (سلا).﴾

ديوان العدد

- 143 فعش للشعب يا رمز التآخي..
﴿شعر ذ. محمد البلغمي (فاس).﴾
- 145 قصيدة: مغرب الأحرار يزهو بالانتصار
﴿شعر ذ. مولاي أحمد هاشمي (مكناس).﴾
- 147 قصيدة: ذكرى عيد العرش
﴿شعر ذ. محمد الجيلالي (رئيس المجلس العلمي المحلي لإقليم أوسرد).﴾

شروط النشر بالمجلة

- تنشر المجلة الدراسات العلمية والبحوث المترجمة والمقالات الفكرية ومراجعات الكتب التي تتسم بالعمق والموضوعية، في مجالات العلوم الشرعية والفكر الإسلامي والحضارة وفق الشروط الآتية:
- ✓ أن يكون البحث أصيلاً لم يسبق نشره، وألا يكون مستلاً من بحث جامعي، أو أرسل للنشر في مجلة أخرى.
 - ✓ أن تراعى قواعد البحث العلمي في توثيق المصادر والمراجع والإحالة عليها.
 - ✓ التقيد التام بكتابة الآيات القرآنية وفق المصحف المحمدي.
 - ✓ الاعتناء التام بعلامات الترقيم، والالتزام بالقواعد المتعارف عليها في تحرير البحوث والمقالات.
 - ✓ ألا يزيد عدد صفحات البحث أو المقال عن 18 صفحة من حجم A4.
 - ✓ في حالة إرسال بحث مترجم يشترط إرسال نسخة من البحث الأصلي.
 - ✓ في حالة وجود وثائق وصور، يرجى أن تكون موثقة وبدقة جيدة.
 - ✓ تخضع المادة المرسلة للتحكيم العلمي، وتمنح المجلة مكافأة مالية عن كل بحث منشور، وفق النظام المعمول به في المجلة.
 - ✓ ترسل البحوث بالبريد إلى عنوان المجلة مطبوعة على الورق، وفي قرص مضغوط، أو على البريد الإلكتروني، مع نبذة تعريفية عن صاحب البحث وصفته وعنوانه الكامل ورقم هاتفه.
 - ✓ البريد الإلكتروني هو: alamihamid49@gmail.com
 - ✓ ترتب مواد المجلة وفق اعتبارات فنية محضة لا علاقة لها بقيمة البحث أو مكانة صاحبه.
 - ✓ الأبحاث التي ترسل إلى المجلة لا تعاد إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر، كما أن المجلة غير ملزمة بإيضاح أسباب عدم النشر.
 - ✓ ما تنشره المجلة يعبر عن وجهة نظر كاتبه، ولا يمثل بالضرورة وجهة نظر المجلة أو الجهة التي تصدرها.
 - ✓ تصفيف البحث أو المقال وتنسيقه تنسيقاً جيداً.
 - ✓ هوامش التوثيق والإحالات والمصادر والمراجع تدرج في أسفل الصفحات وليس في آخر البحث أو المقال.
 - ✓ يكتب البحث أو المقال بخط Simplified Arabic مع التقيد بالمقاسات الآتية: 14 في النص، و10 في الهامش، و01 ما بين السطور.

محاوَر الأعداد المقبلة

تدعو إدارة مجلة دعوة الحق السادة الباحثين إلى الكتابة في أحد المحاور الآتية:

- 1- ثورة الملك والشعب.
- 2- المقاصد الشرعية لدى علماء المالكية.
- 3- الإمامة العظمى وارتباطها بالبيعة الشرعية.

دعوة الحق

مجلة شهرية تعنى بالكراسات الإسلامية
وبشؤون الثقافة والعكر تصدرها وزارة الأوقاف
والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية